فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية

إعداد

خميس بن ماجد بن خميس الصباري

المشرف

الدكتور حمدي منصور

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في

اللغة العربية وآدابها

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع.....التاريخ.....

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

نيسان ٢٠٠٦م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرار لجنة المناقشة :

نوقشت هذه الرسالة (فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية) وأجيزت بتاريخ ٢٠٠٦/٤/١٨م

أعضاء لجنة المناقشة : التوقيع :

الدكتور حمدي منصور ، مشرفا
أستاذ مشارك الأدب الجاهلي .....

الدكتور ياسين عايش خليل ، عضوا
أستاذ مشارك الأدب العباسي .....

الدكتور محمد علي أبو حمدة ، عضوا
أستاذ مساعد النقد القديم .....

الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن ، عضوا
أستاذ الأدب الجاهلي
(جامعة اليرموك) .....

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع.....التاريخ.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــداء

إلى هؤلاء الأحبّاء :

روحِ أمّي الغالية عسى أن يمن الله – تبارك وتعالى – عليها بالرحمة ! .

والدي الكريم عسى أن يطيل الله عمره ! .

زوجتي أم مصطفى .

أبنائي ؛ مصطفى ، محمد ، علي ، أحمد ، ماجد .

أمهات الشهداء اللواتي يحتسبن أولادهن عند الله تعالى .

كلِّ مَن ينشِد الصدق في الكلمة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشكر

أقدم شكري وعرفاني لأستاذي الدكتور الجليل حمدي منصور الذي شرفني بإشـــرافه على رسالتي هذه ، وأحاطني بمكارم أخلاقه ، وغزير علمه ، وأصيل أدبه ، وكان ذا صـــدر رحب في قراءتها قراءة متأنية واعية ؛ بصّرني بما يجب أن تفيد منه الرسالة ، وبما يلـــزم أن تسير عليه من خطوات ، فله مني جزيل الشكر ، وعـــاطر الـــذكر ، ولأعـــضاء لجنـــة المناقشـــة ؛ الدكتـــور ياسيـــن عايـــش ، ومحمد علي أبي حمدة ، والأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن الذين أكرموني غاية الإكرام بملاحظاتهم العلمية المثرية لمادة الرسالة .

والله ولي التوفيق ، والحمد لله رب العالمين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
الشكر	د
ثبت المحتويات	هـ
الملخص بالعربية	و
المقدمة	١-٣
التمهيد	٤-١١
الباب الأول : اتجاهات فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية	١٢-١١٩
الفصل الأول : رثاء الآباء والأعمام	١٣-٣٢
الفصل الثاني : رثاء الأبناء	٣٣-٤٧
الفصل الثالث : رثاء الإخوان	٤٨-٧٩
الفصل الرابع : رثاء الأزواج	٨٠-٩٤
الفصل الخامس : الرثاء القبلي	٩٥-١١٩
الباب الثاني : دراسة فنية لشعر الرثاء	١٢٠-١٩٢
الفصل الأول : بنية المرثية	١٢١-١٣٢
الفصل الثاني : الخصائص المعنوية	١٣٣-١٥١
الفصل الثالث : الخصائص اللفظية	١٥٢-١٦١
الفصل الرابع : الصدق في الرثاء	١٦٢-١٧٠
الفصل الخامس : الصورة الشعرية	١٧١-١٩٠
الخاتمة	١٩١-١٩٢
قائمة المصادر والمراجع	١٩٣-٢٠٦
الملخص باللغة الإنجليزية	٢٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية

إعداد
خميس بن ماجد بن خميس الصباري
المشرف
الدكتور حمدي منصور

الملخص

سعت هذه الدراسة إلى جمع ما أمكنها من شعر الرثاء عند شاعرات الجاهلية، ودراستها دراسة استقرائية تحليلية، تعتمد على قراءة الخصائص والسمات الجزئية الخاصة وصولاً إلى العموميات، التي تنتظم هذا اللون من الشعر لفظاً ومعنى وصورة.

واقتضت الدراسة أن تكون في مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة؛ عرضت المقدمة أهمية الموضوع، ومصادره، ومنهجه، وتناول التمهيد تعريف الرثاء لغة واصطلاحاً، وما يتصل به من ألفاظ تدل على بكاء الميت، والحزن عليه، والسلو عنه.

أما الباب الأول؛ فقد اشتمل على خمسة فصول، تناول كل فصل منها اتجاهاً من اتجاهات فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية، وهي رثاء الآباء والأعمام، رثاء الأبناء، رثاء الاخوان، رثاء الأزواج، الرثاء القبلي.أما الباب الثاني، فاشتمل على خمسة فصول أيضاً؛ تناولت بنية المرثية، وخصائصها اللفظية، والمعنوية، وصدقها في الرثاء، وصورتها الشعرية.وفي الخاتمة نتائج ما توصلت إليه الدراسة، وأهمها أولاً انحصر شعر الرثاء عند شاعرات الجاهلية في خمسة اتجاهات لرثاء الرجال دون النساء. ثانياً يغلب الوضوح والسهولة على بنية المراثي، وتستوحي صورها من واقع البيئة المحيطة بها.ثالثاً نقل إلينا هذا اللون من الشعر جانباً من واقع الحياة الحربية الجاهلية. رابعاً صدق العاطفة من أهم ما يميز هذا الفن. خامساً جسدت الراثية في شعرها صورة فقيدها بأجمل صفاته الأخلاقية، كما صورت حالها بعده بمعاني الأسى والحرمان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

الحمد لله الذي لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فإنّ فنّ الرّثاء من أكثر فنون الشعر تعبيرا عن صدق العواطف ، لا سيما إذا كان صادرا عن شاعرة قد أصاب الموت قريبا حبيبا لها ، فذاقت مرارة الثكل ، وعاشت مشقة الحرمان ؛ فذهبت مذهب الحمام في النوح والبكاء ، بكلام مسكون بالآلام والأحزان ، مضبوط بالقوافي والأوزان .

ولقد حظي هذا اللون من الشعر باهتمامي ، وإعجابي ؛ لأنه يمثل قيمة إنسانية فضلى ، فنهدتُ إلى جمْع ما أمكنني جمعُه من شعر الرثاء عند شاعرات الجاهلية ، وآثرت دراسته باتجاهاته المختلفة ، على أنّ هناك دراساتٍ حديثةً سبقني بها آخرون في هذا الحقل ،وقد باينتْ دراستي دراساتِهم بنظري في النصوص الشعرية واتجاهاتها ، ومن هذه الدراسات التي أمكنني الوقوف عليها :

ــ رثاء الأبناء في الشعر العربي ، إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، للدكتور مخيمر صالح موسى يحيى ؛ درس فيها اتجاها واحدا للرثاء ، لشعراء وشاعرات ، منذ الجاهلية حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، وقد ركّز في دراسته على التحليل الموضوعي للرثاء ومتغيرات هذه الظاهرة ، كما ركّز على التحليل الفنيّ لها .

ــ رثاء الأبناء في الشعر العربي ، حتى العصر الأموي ، للدكتور محمد إبراهيم حور ، الذي تناول نفس الاتجاه السابق ، باختلاف وجيز في الحدّ الزمني للدراسة ، عرض لهذا الغرض بالتحليل والتعليق ، وبيان أهم الخصائص الفنية عند الشعراء والشاعرات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ الشعر النسائي في أدبنا القديم ، تأليف الدكتورة مي يوسف خليف ، درست فيه نماذج من معظم الأغراض الشعرية النسائية في العصر الجاهلي حتى الأندلسي .

ـ شواعر الجاهلية ، دراسة نقدية ، لرغداء ماردينى ، تناولت فيها جلّ فنون شواعر الجاهلية ، من مديح ورثاء وفخر وغزل وحنين إلى الأوطان وهجاء .

أما دراستي هذه فقد حدّدت منهجا خاصّا بها يُعنى أولا بالإطار الزمني ، موقتا بالعصر الجاهلي . ويُعنى ثانيا بجنْس الراثي ، ممثلا بالشاعرات . ويعنى أخيرا بالاتجاه محددا برثاء الآباء والأعمام ، والأبناء ، والإخوان ، والأزواج ، والقبيلة ، وآخرين . مع الإحالة إلى كثير من المصادر الأصيلة ؛ توثيقا للمادة ، وترجيحا لأهم الروايات بأدلة عقلية ونقلية ، وتفسيرا للغريب ، وإضفاء للصبغة الشخصية ، بالنظر إلى فهم المعاني ، واستقرائها ووصفها وتحليلها .

وقد واجهتني خلالَها صعوبات ؛ أهمها : اختلاف الروايات في نسبة الرثاء إلى الراثي والمرثي ، واختلافها أيضا في مبانيها ومعانيها ، وقد تغلبت على هذه الصعوبة بتقديم الروايات السابقة على اللاحقة منها ، والتمييز بين ما أشكل من معانيها واتجاهاتها ، ببعض ما حضرني من أدلة عقلية .

وقد بُنيتْ هذه الدراسة على تمهيد ، وبابين ، وخاتمة . تناول التمهيد المعنيين اللغوي والاصطلاحي للرثاء ، والألفاظ المتصلة بمعنى الرثاء .

وتناول الباب الأول اتجاهات فنّ الرثاء عند شاعرات الجاهلية ، مقسّما إلى خمسة فصول :

الفصل الأول : رثاء الآباء والأعمام .

الفصل الثاني : رثاء الأبناء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث : رثاء الإخوان .

الفصل الرابع : رثاء الأزواج .

الفصل الخامس : الرثاء القبلي والفـــردي .

وتناول الباب الثاني الدراسة الفنية لشعر الرثاء وتكون من خمسة فصول ، هي :

الفصل الأول : بنيـــة المرثيـــــــة .

الفصل الثاني : الخصائص المعنوية .

الفصل الثالث : الخصائص اللفظـــية .

الفصل الرابع : الصدق في الرثـــاء .

الفصل الخامس : الصورة الشعرية .

ثم انتهت الدراسة بخاتمة ؛ فيها أهم ما توصلت إليها من نتائج .

وأمـــا أهـــم المصادر التي نهـــلتْ منها هـــذه الدراسة مادَّتهـــا الأمَّ فهـــي : ديـــوان الخرنق بنت بدر بن هفان ، وأيام العرب قبل الإسلام لأبي عبيدة ، والتعازي والمراثي للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وشـــرح أشعـــار الهذليين للـــسكري ، والأغـــاني للأصـــفهاني ، وديوان حماسة أبي تمام بشرحيه ؛ المرزوقي والتبريزي ، والعقد الفريد لابن عبد ربه .

وختاما ؛ حسبي من هذه الدراسة أنني اجتهدت فيها ، داعيا الله تبـــارك وتعـــالى أن يوفقني إلى ما يحبّه لي ويرضاه .

الباحث

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمهيد

المدخل اللُّغوي لكلمة الرِّثاء :

يقول الخليل [١] : " رَثَى فلانٌ فلاناً ، يَرثيهِ رَثْياً ومَرثِيَةً ، أيْ يَبكيهِ ويَمدَحُهُ ، ولا يَرثي فلانٌ لفلانٍ ، أيْ لا يَتوجّعُ إذا وقعَ في مكروهٍ " .

أمّا ابنُ فارسٍ فيقول في معنى الرِّثاء [٢] : " الرَّاءُ والثّاءُ والحرف المُعتلُّ أصيلٌ يدلُّ على رِقَّةٍ وإشفاقٍ . يُقالُ : رَثيتُ لفلانٍ : رَقَقْتُ . ومِنَ البابِ قولُهم : رَثَى الميّتَ بشِعْرٍ " .

وتوسّع ابن منظور في إيراد التصريفات التي تتصل بلفظ الرثاء فقال [٣] : " رَثَأتُ الرَّجلَ رَثْأً : مدحتُهُ بعدَ موتِهِ ، لغةٌ في رثيتُهُ ، ورَثَأتِ المرأةُ زوجَها كذلك ، وهي المُرْثِئَةُ . قالتِ امرأةٌ مِن العرب : رَثَأتُ زوجي بأبياتٍ ، وهمزَتْ ، أرادتْ رثيتُهُ . ورَثَيْتُ الْمَيِّتَ رَثْياً ورِثاءً ومَرْثاةً ومَرْثِيَةً ، ورثيتُهُ مدحتُهُ بعدَ الموتِ ، وبكيتُهُ ، ورثوْتُ الميّتَ أيضا ، إذا بكيتُهُ ، وعدَّدتُ محاسنَهُ ، وكذلك إذا نظمتُ فيه شِعراً ، ورثتِ المرأةُ بعلَها تَرثيهِ تَرثيةً ، ورثِيَتْهُ تَرثاهُ رِثايةً فيهما ، وامرأةٌ رثّاءةٌ ، ورثّايَةٌ : كثيرةُ الرّثاءِ لِبعلِها ، أو لغيرِهِ ممَّنْ يُكْرَمُ عندَها : تَنُوحُ نِياحةً " .

وممّا يُلاحَظُ على الأصل اللُّغوي لكلمة (رِثاء) أنها تصدُر عن ثلاثة جذور هي : (رَثأ ، ورَثَوَ ، ورَثِيَ) . وكُلُّها تتضمّن معانيَ الرِّثاء .

١- الخليل الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، (ت١٧٥هـ) : العين ، ط١، تحقيق : مهدي المخزومي ، و إبراهيم السامرائي ، انتشارات أسوة ، قم ــ إيران ، ١٤١٤هـ ، مادة (رثي) .

٢- ابن فارس، أبو الحسين ، أحمد بن فارس بن زكريا ، (ت٣٩٥هـ) : مقاييس اللغة ، ط٢ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة مصطفى البابي ، ١٣٨٩هـ ــ ١٩٦٩م ، مادة (رثى) .

٣- ابن منظور ، أبو الفضل ، جمال الدين بن مكرم ، (ت٧١١هـ) : لسان العرب، ط٢ ، دار صادر ، بيروت ــ لبنان ، ١٣٠٠هـ ، مادة (رثو) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعنى الاصطلاحي للرِّثاء :

يقول النُّوَيْريُّ [١] : " وبابُ الرِّثاءِ فهو بابٌ فسيحُ الرِّحاب ، والنَّوادي ، فصيحُ اللِّسانِ في إجابة الْمُنادي ، ذي القلبِ الصّادي ، مُتباينُ الأسلوب ، مُختلفُ الأطراف ، مُتباعدُ الشّعوب منه ما يُصمي القلوبَ بنبالِهِ ، ومنه ما يُسلِّيها بلطيفِ مقالِهِ ، ومنه ما يَبعثُها على الأسف ، ومنه ما يَصرفها عن مواردِ التَّلَف . وقد أكثر الشعراء القولَ في هذا الباب وارْتَقَوْا الذّروةَ العلياءَ من هذه الهِضاب ، ووجدوا مكانَ القول ذا سعَةٍ فقالوا ، وأصابهم هجيرُ اللّوعَة فمالوا إلى ظِلِّهِ وقالوا . قال الأصمعيُّ : قلت لأعرابيٍّ : ما بالُ المراثي أشرفَ أشعارِكم ؟ قال : لأنّا نقولُها وقلوبُنا مُحترقةٌ " .

ويُعرِّف الدكتور شوقي ضيف الرثاء فيقول [٢] : " هو بكاء يتعمَّق في القِدَم منذ وُجِدَ الإنسان ، ووُجِدَ أمامَهُ هذا المصيرُ المُحزِنُ ؛ مصيرُ الموت والفناء الذي لا بدّ أنْ يصيرَ إليه ، فيصبح أثَراً بعد عيْن ...؛ فينِنُّ الشاعر ويتفجّع ، إذ يشعر بلطمة مُروِّعة تُصوَّب إلى قلبه ، فقد أصابه القدَرُ في ابنه أو أبيه أو أخيه ، وهو يترنّح من هولِ الإصابة ترنّحَ الذّبيح فيبكي بالدموع الغِزار ، وينظم الأشعار ، يبثّ فيها لوعة قلبه ، وحرقتَه ، وقد ينظر فيرى الموت مُطِلاًّ نصْبَ عينيه وهو ينحدر راغماً إلى حُفرته ، ولا ناصر له ولا مُعين ، ويصيح ، ولا ينفعه صياحه ، فَفَم الهاوية يقترب منه ، ويوشك أن يلتقمه ، فيبكيه ويلحّن بكاءه على قيثارة شعره تلحينَا مُشجيا ، كلُّه آلام وحسرات " .

١- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، (ت٧٣٣هـ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، د.ط ، تحقيق : يحيى الشامي ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م ، مج٣ ، ج٥ ، ص١٦١ .

٢- شوقي ضيف : الرثاء ، د.ط ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت ، ص٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن المستشرقين الذين تناولوا موضوع الرثاء بلاشير الذي يقول [١] : " كانت موضوعات التفجع التي وسعها الشعراء السابقون في شعر الرثاء ذات استيحاء غنائي ومدحي ، وهي متصلة أيضا بمجموع الارتدادات النفسية " .

الألفاظ المتصلة بمعنى الرثاء :

ترتبط بالرثاء ألفاظ ذوات علاقة به منها البكاء والنواح والعويل ، والنعي والندب والتأبين والعزاء ، ولكل لفظ منها دلالة خاصة يؤديها ؛ ليصيب بها معنى مقصودا بعينه ولذاته ، في منظومة دلالات هذا الحقل اللغوي .

أولا : البكاء :

يقول ابن منظور [٢] : " البكاء يقصر ويمدّ ؛ قال الفرّاء وغيره ، إذا مددت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء ، وإذا قصرت أردت الدموع وخروجها ، وقد بكى يبكي بكاء وبكا . قال الخليل : من قصره ذهب به إلى معنى الحزن ، ومن مده ذهب به إلى معنى الصوت . قال الأصمعي : بكيت الرجل وبكيته ، بالتشديد كلاهما إذا بكيت عليه ، وأبكيته إذا صنعت به ما يبكيه . وقال ابن الأعرابي : التبكاء ، بالفتح ، كثرة البكاء وأنشد :

وأقرح عيني تبكاؤه وأحدث في السمع مني صمم

وباكيت فلانا فبكيته إذا كنت أكثر بكاء منه . وتباكى تكلف البكاء . والبكي الكثير البكاء ، على فعيل ، ورجل باك ، والجمع بكاة وبكي " .

١- بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، د.ط ، ترجمة : إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر العربي المعاصر ، دمشق ــ سورية ، ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م ، ص٤٩١ .

٢- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بكا) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول الفيروز آبادي[١] : " وأبكاه : فعل به ما يوجب بكاءه وبكاه على الميت تبكيــة : هيّجه للبكاء ، وبكاه بكاء ، وبكاه بكى عليه ورثاه " .

ويجعل أبو منصور الثعالبي للبكاء ترتيبا تصاعديا ، ذا قدرة تعبيرية نفسية متطــورة للباكي فيقول [٢] : " إذا تهيأ للبكاء قيل أجهش ، فإذا امتلأت عينه دموعا ، قيــل : اغرورقــت عينه وترقرقت ، فإذا سالت قيل : دمعت ، فإذا حاكت دموعها المطر قيل : همعــت ، فإذا كان لبكائه صوت قيل : نحب ونشــج ، فإذا صاح مــع بكائه قيل : أعول " .

ثانيا : النواح :

يقول الخليل : [٣] " النوح مصدر ناح ينوح نوحا . ويقال : نائحة ذات نياحة ، ونواحة ذات مناحة ، والمناحة أيضا الاسم ، ويجمع على المناحات والمناوح .

والنوائــح : اســم يقــع على النساء يجتمعن في مناحة ، ويجمع على هذا المعنــى على الأنواح " .

ويتوسع ابن منظور في اشتقاقات النواح المتعلقة بالرثاء فقال : [٤] " وناحــت المــرأة تنوح نوحا ونواحا ونياحا ونياحة ومناحة وناحته وناحت عليه . والمناحة والنــوح النــساء يجتمعــن للحــزن . ونــوح الحمامــة ما تبديه من سجعها على شــكل النــوح ، وحمامــة نائحــة ونواحــة . واستنــاح الرجــل : بكــى حتــى استبكــى غيــره . والتنــاوح التقابــل ومنــه تنــاوح الجبليــن وتناوح الريــاح ، ومنه سميت النساء النوائح نوائح ؛ لأن

١- الفيروز آبادي ، مجــد الديــن ، محمد بن يعقوب ، (ت٨١٧هـ) : القامــوس المحيط ، ط٤ ، مؤســسة الرسالة ، بيروت ــ لبنان ، ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤م ، مادة (بكى) .

٢- الثعالبي، أبو منصور ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، (ت٤٢٩هـ) : فقه اللغة وسر العربية ، د.ط ، مؤسسة مطبوعات ، قم ــ إيران ، د.ت ، ص١٠١ .

٣- الخليل الفراهيدي : العين ، مادة (نوح) .

٤- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نوح) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعضهن يقابل بعضا إذا نُحن ، وكذلك الرياح إذا تقابلت في المهبّ ؛ لأن بعضها يناوح بعضا ويناسج " .

ثالثا : العويل :

" العولة من العويل ،وهو البكاء ، أعولت المرأة إعوالا ، وهو شدة صياحها عن بكاء ، أو مكروه نزل بها [١] " . و " أعول الرجل والمرأة وعوّلا : رفعا صوتهما بالبكاء والصياح ، والاسم العول والعويل والعولة ، وقد تكون العولة حرارة وجْد الحزين والمحبّ من غير نداء ولا بكاء . وأعول عليه : بكى . وعال عولُهُ وعِيل عولُهُ : ثكلته أمه . الفراء : عال الرجل يعول إذا شقّ عليه الأمر . وعالني الشيء يعولني عولا : غلبني وثقل علي . وعِيل صبري ، فهو مَعُول : غُلِب [٢] " .

رابعا : النَّعي :

وله أربعة مصادر ، الأول عن الخليل : " نعى ينعى نُعياً [٣] " ، والثاني والثالث عن ابن منظور : " .. نَعيا ونُعيانا [٤] " ، والأخير عن الفيروز آبادي : " نعِيّا [٥] " . وهي كلها تعني : " الدعاء بموت الميت والإشعار به [٦] " ، و " كانت العرب إذا مات منهم ميت له قدر ركب راكب فرسا وجعل يسير في الناس ويقول : نعاءِ [٧] فلانا [٨] " .

١- الخليل الفراهيدي : العين ، مادة (عول) .
٢- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عول) .
٣- الخليل الفراهيدي : العين ، مادة (نعي) .
٤- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نعا) .
٥- الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، مادة (نعي) .
٦- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نعا) .
٧- نعاء : أي انعَه وأظهر خبر وفاته ، مبنية على الكسر . المصدر السابق ، مادة (نعا) .
٨- المصدر نفسه ، مادة (نعا) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا : الندب :

يرد معنى (الندب) بمعان متباينة أولاها الأثر ، وثانيها الخطر ، وثالثها الدعوة ، وآخرها الصفة ؛ بين ذلك الخليل الفراهيدي حين يقول [١] : الندب أثر جرح قد أجلب ، وجرح نديب أي ذو ندَب ، ورجل ندْب : أريب لبيب متيقظ ، وندب ندابة نقيض بلد بلادة ، والندب الفرس الماضي ، والنادبة تندب بالميت بحسن الثناء : وافلاناه واهناه ، والندبة الاسم ، والندب أن تندب إنسانا أو قوما إلى أمر في حرب تدعوهم إليه وإلى غيره فينتدبون أي يتسارعون وانتدبوا له من قبل أنفسهم من غير أن يندبوا .

ويفسّر ابن منظور العلاقة بين الندب بمعنى أثر الجرْح وبين الندب بمعنى بكاء الميت حكاية عن ابن سيدة فيقول [٢] : " وندب الميت بعد موته وهو من الندب للجراح ؛ لأنه احتراق ولذع من الحزن " .

سادسا : التأبين :

وفعله : أبّن . و " الهمزة والباء والنون يدل على الذكر ، وعلى العُقَدِ ، وقَفْوِ الشيء . والتأبين مدح الرجل بعد موته " [٣] .

وفي لسان العرب : " وأبن الرجل تأبينا ، و أبله : مدحه بعد موته وبكاه ؛ قال متمم بن نويرة [٤] :

لعمري ! وما دهري بتأبين هالك ولا جزعا مما أصاب فأوجعا

١- الخليل الفراهيدي : العين ، مادة (ندب) .

٢- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ندب) .

٣- ابن فارس : مقاييس اللغة ، مادة (أبن) .

٤- المفضل الضبي ، أبو العباس ، المفضل بن محمد (ت١٦٨هـ) : المفضليات ، ط٨ ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ــ مصر ، ١٩٩٣م ، ص٢٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول الفيروز آبادي[١] : " التأبين الثناء على الشخص بعد موته واقتفاء أثر الشيء " . ولا يقتصر التأبين أن يكون مدحا للميت حسب ، بل يمكن أن يكون مدحا للحيّ الذي سيؤول أمرُه إلى الموت ، يذكر ذلك ابنُ منظور في كلام يرفعه إلى شمر : [٢] " التأبين الثناء على الرجل في الموت والحياة " .

سابعا : العزاء :

أصله الانتماء والاتصال ؛ يقول ابن فارس [٣] : " العين والزاء والحرف المعتل أصيل صحيح ، يدل على الانتماء والاتصال . يقول الخليل : الاعتزاء : الاتصال في الدعوى إذا كانت الحرب ، فكلّ من ادّعى في شعاره أنا فلان بن فلان أو فلان الفلاني ، فقد اعتزى إليه " .

ويقول ابن منظور عن العزاء بما يخصّ الرثاء [٤] : " العزاء : الصبر عن كل ما فقدت ، وقيل : حسنه ، عزي يعزى عزاء ، ممدود ، فهو عزٍ ، ويقال : إنه لعزي صبور إذا كان حسن العزاء على المصائب ، وعزيت فلانا أعزيه تعزية أسيته وضربت له الأُسى ، وأمرته بالعزاء فتعزى تعزيا أي : تصبر تصبرا " .

ويظهر من هذا التعريف أن التأسي والاعتبار من معاني العزاء ، الذي يتجلّى فيه موقف العقل إزاء حدَث الموت ، كيف يضبط الانفعال والأعصاب ، ويسوس الإحساس والشعور في وقت ذروة المصاب ، وهول الفجيعة ، فيرى أن الصبر خير من الشكو ، والجلَد أولى من الجزَع ؛ لأنّ المصير بين الناس جميعا مشترك ، ودربَهم فيه واحد .

١- الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، مادة (أبن) .
٢- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أبن) .
٣- ابن فارس : مقاييس اللغة ، مادة (عزوى) .
٤- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عزا) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينهد المبرد إلى تسمية أحد كتبه بـــ (التعازي والمراثي) وهو زاخر فياض بالحديث عن العزاء وفضائله ، ومن ذلك قوله [١] : " والعزاء هو السلوّ ، وحسن الصبر على المصاب ، وخير من المصيبة العِوَض منها ، والرضى بقضاء الله ، والتسليم لأمره ، تنجّزا لمـــا وعـــد مـــن حسن الثواب ، وجعل للصابرين من الصلاة عليهم الرحمة ، فإنه يقول تبارك وتعالى [٢] : (وبشـــر الصابرين . الذيـــن إذا أصابتهم مصيبـــة قالـــوا إنـــا للـــه وإنا إليـــه راجعـــون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) .

١- المبرد ، أبو العبـــاس ، محمد بن يزيد ، (ت٢٨٦هـــ) : التعـــازي والمرائـــي ، ط٢ ، تحقيـــق : محمد الديباجي ، دار صادر ، بيروت ــ لبنان ، ١٤١٢هـــ ــ ١٩٩٢م ، ص٨ .

٢- سورة البقرة ، الآية ١٥٥ ــ ١٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الأول

اتجاهات فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الأول

اتجاهات فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية

يعد فنّ الرثاء من أقدم الأغراض الشعرية ؛ لأنه بوح يلازم الطبيعة الإنسانية في التعبير عما تشعر به تجاه فقد عزيز غال عليها هذا من ناحية، ولِما تنتظره من مواجهة محتومة لنفس المصير الذي آل إليه المرثي ، من ناحية أخرى ، منذ وجد الإنسان على هذه الأرض ، واستطاع أن يطوّع لغته لتكون وسيلته الإبداعية في الإبانة والإفصاح عما في نفسه من مشاعر وأحاسيس ، أو في عقله من أفكار ورؤى .

وللشاعرة الجاهلية في هذا الميدان سابقة القول ؛ فقد قالت في معظم اتجاهاته ، فرثت الأب ، والعم ، والابن ، والأخ ، والزوج ، وبعض من أفراد قبيلتها وخرين ، واستطاعت أن تنقل إلينا صورة عن تجاربها ومواقفها في معمعان الحروب ، إذ " كان الرثاء الجاهلي يقوم على استنهاض الرجولة ابتغاء الثأر للقتيل ، الأمر الذي قد يعني أن من كانت أرواحهم لا تسيل على حدود السيف ، لم يكونوا ينالون رثاء في المراحل السحيقة من الجاهلية . وأيا ما كان الشأن ، فإن استنهاض الرجولة للثأر أمر قد تجيده الأنوثة أكثر مما تجيده الذكورة ، وذلك نظرا لقابلية الرجل للاستفزاز والاستنفار على يد المرأة التي يجد فيها إحياء وإيقاظا لقدراته [١] " . وقد اهتمت أغلب المصادر بنقل جلّ ما للشاعرة الجاهلية من شعر في غرض الرثاء ؛ لقدرتها الفطرية على التفجّع والبكاء ، قال ابن قتيبة [٢] : " الشعراء أيضا بالطبع مختلفون ، فمنهم من يسهل عليه المديح ، ويعسر عليه الهجاء ، ومنهم من يتيسر له

٦٢٢٩٦٧

١- يوسف اليوسف : مقالات في الشعر الجاهلي ، ط٤ ، دار الحقائق ، بيروت ــ لبنان ، ١٩٨٥م ، ص٣٣٣ .

٢- ابن قتيبة ، أبو محمد ، عبد الله بن مسلم ، (ت٢٧٦هـ) : الشعر والشعراء ، د.ط ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ــ مصر ، ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٣م ، ج١ ، ص٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المراثيس" . فأكثر ما تيسر للمرأة الجاهلية من شعر هو الرثاء ؛ لتلك الصفات المعدودة لها ؛ فنقلت لنا صورة لأحداث حربية قبَليّة ، يزخر بها التاريخ الجاهلي ، وقدمت لنا وثائق سجلت فيها مآثر قومها ؛ ذودَهم عن حياضهم وتغنيَهم ببطولاتهم ، وتباهيَهم بمكارم أخلاقهم ، ومواقفهم الرجولية في سلمهم وحربهم ، " ولا نجد في رثائهم من التفجع والتوجع للقتيل إلا ما جاء على ألسنة النوائح ، أو نسوة القتيل من أهله كزوجه أو أمه أو شقيقته [١] " .

ويتناول هذا الباب اتجاهات فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية ؛ فيبدأ بالأقرب نسبا إلى الشاعرة وهو رثاء الآباء ، حتى ينتهي بأبعدهم صلة بها وهم الأفراد الذين تجمعهم بالشاعرة آصرة القبيلة ؛ فتؤبّن فيهم صفاتٍ خاصةً تراها حريّة بالذكْر والتشهير .

١- اعفيف عبد الرحمن : الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ط١ ، دار الأندلس ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م ، ص٢٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

رثاء الآباء والأعمام

ينطلق رثاء الشاعرة أباها من منطلق عاطفي ، تظهر فيه فداحة الثكل ، ومرارة الحرمان ، فبعْدَ أن كانت ناعمة بالحنان والأمان والرعاية ، في كنَف والدها الذي يعطيها ذلك منه تجد نفسها فجأة منبتَّةً عنه ، محرومة منه ، فتبكي فقدها إياه تارة ، وتبكي خسارتها مما اعتادته منه تارة أخرى ، ولا ترى مَن يقوم مقام والدها ، من قريب أو بعيد ، لا سيما إذا كان الوالد قد جمع بين صفات الأبوة ، وصفات السيادة ؛ فنهلت الشاعرة من مشارب الأولى ، وزهت ببحبوحة الأخرى ؛ فهذه حارثة بنت كلمن [١] ترثي أباها ، وكان ملكاً على مَدْيَن [٢] ، ثم قضى الله عليه وعلى قومه بعذاب يوم الظُلّة [٣] ؛ فما ملكت ابنته عندما وصلها الخبر إلا أن تصرخ باسمه من أول بيت في المقطعة ناعية له ، تقول [٤] :

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحله

سيد القوم أتاه الـ ـحتف نارا تحت ظله

كونت نارا وأضحت دار قومي مضمحله

١- لم أعثر لها على ترجمة .

٢- مدين : مدينة قوم شعيب ــ عليه السلام ــ بين وادي القرى والشام وقيل مدين : اسم القبيلة ؛ ولهذا قال الله تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيبا) . [الأعراف ، الآية ٨٥] . الحموي ، ياقوت ، شهاب الدين ، أبو عبدالله ، ياقوت بن عبدالله ، (ت ٦٢٦هـ) : معجم البلدان ، د.ط ، دار إحياء التراث ، بيروت ــ لبنان ، د.ت ، مج٤ ، ج٨ ، ص٢٢٤ .

٣- يوم الظلة : على قوم شعيب ــ عليه السلام ــ وهي سحابة أظلتهم فلجؤوا إلى ظلها من شدة الحر ، فأطبقت عليهم وأهلكتهم . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ظلل) .

٤- المسعودي ، أبو الحسن ، علي بن الحسين بن علي ، (ت٣٤٦هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط٤ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م ، ج٢ ، ص١٤٩ ــ ١٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تصرخ باسمه ؛ لتلفت الأسماع بأن الخبر الذي يقترن باسم الملك لـذو خطـر ، وأن الأمر لا يخصها وحدَها ، بل يتجاوزها إلى عموم القوم ؛ فقدمت الاسم المشهور ، ثم اتبعتـه بذكر الخطْب الجليل ، الذي هدّم ركنها ، وزلزل عرشها ، في مكان ليس بعيداً عنها ، إنما هو قريب " وسط المحلّة " أي في كبد الدولة وعزها ، فأضحت " مضمحلة " بسبب مـوت الوالـد الملك بحادثة السحابة العجيبة التي تحولّت إلى نار محرقة .

صرخت الشاعرة بالثلاثة الأبيات السابقة ، ولم تزد شيئا عليها ، ولم تقل شـيئا عـن صفات والدها ، وكأن الحزن قد بلغ بها حدّا وجمها فذهلت لذلك المصير ، لكن خالدة [١] بنـت هاشم بن عبد مناف ، وهي ترثي أباها سيد قريش ، تنادي عينها عسى أن تـسفح بالـدموع فتغسل عنها حزنها الحادث بسبب وفاة أبيها ؛ فتستهل قصيدتها بقولها [٢] :

عيـن جـودي بعبـرة وسجـوم ... واسفحـي الدمـع للجواد الكريم

عيـن واستعبـري وسحّي وجمّي ... لأبـيـك المـسـوّد المعلـوم

ثـم تمضـي في تعـداد مناقبـه ، فتقـول :

هاشـم الخيـر ذي الجلال والحمد ... وذي البـاع و الندى والصميـم

وربـيـع للمـجـتـديـن وحرز ... ولزاز [٣] لـكـل أمـر جسيـم

شِمـري [٤] نمـاه للعـز صـقـر ... شامخ البيت من سـراة الأديـم

١- هي : " خالدة بنت هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهـر " . ابن هشام ، أبو محمد ، عبدالملك بن هشام الحميري ، (ت٢١٨هـ أو ٢١٣هـ) : السيرة النبويـة ، ط١ ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، دار الخير ، بيروت ــ لبنان ، ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م ، مج١ ، ج١ ، ص٣ .

٢- ابن طيفور ، أبو الفضل ، أحمد بن أبي طاهر ، (ت٢٨٠هـ) : بلاغات النساء ، ط١ ، تحقيق : يوسف البقاعي ، دار الأضواء ، بيروت ــ لبنان ، ١٩٩٩م ، ص٢٣٣ ــ ٢٣٤ .

٣- لزاز : لزّ الشيء بالشيء يلزه لزا وألزه : ألزمه إياه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لزز) .

٤- شمري : ماض في الأمور والحوائج مجرب . المصدر السابق ، مادة (شمر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شيظمـــي [1] مهـــذب ذي فـــضـــول أبطحـــي مـــثـــل القنـــاة وسيـــم

صادق البأس في المواطـــن شهـــم ماجـــد الجد غيـــر نكـــس ذميـــم

غالـــبـــي مشـــمـــر أحـــــوذي [2] باســـق المجد مصرخيّ [3] حليـــم

ثم تقول أبياتا أخر ، ترثيه بها ، وكأن الأولى على ما أغدقت فيها عليه مـــن صـــفات ونعوت جميلة من علو نسب ، وجزيل عطاء ، ومضاء موقف ، وسداد رأي ، لم تنصف مقام والدها نسل الشرف[4] ؛ لذلك رأته حريّا أن تقول فيه أيضا [5] :

بكـــتْ عينـــي وحـــقّ لها بكاهـــا وعـــاودهـــا إذا تمســـي قـــذاهـــا

أبكّـــي خيـــر مـــن ركـــب المطايا ومن لبس النعال ومـــن حـــذاهـــا

أبكـــي هاشمـــا وبـــنـــي أبـــيـــه فعيل الصبـــر إذ منعـــت كـــراهـــا

وكـــنـــت غـــداة أذكرهـــم أراهـــا شديـــدا سقمهـــا بـــاد جـــواهـــا

فلو كانت نفـــوس القـــوم تفـــدى فديتهـــم وحـــقّ لـــهـــا فـــداهـــا

تقول : " وعاودها إذا تمسي قذاها " دليل على تواصل حزنها على والـــدها الـــشريف نسبا ومركبا ولباسا ، ثم تختم أبياتها بتقديم روحها فداء لروحه . والظاهر أنها قالـــت هـــذه الأبيات بعد مدّة من قولها للأولى بعد أن تبع موت والدها موت أعمامها بدليل قولها : " وبني أبيه " أي : إخوانه ؛ فعيل صبرها ، ومنعت نومها لتتابع موت أهلها الواحد تلو الآخر .

١- شيظمي : الطويل الجسيم الفتيّ من الناس . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شظم) .

٢- أحوذي : السريع في كل ما أخذ فيه . المصدر السابق ، مادة (حوذ) .

٣- مصرخي : المصرِّخ : المغيث والمعيد . الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، مادة (صرخ) .

٤- ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم ــ خليـــل الرحمن ــ عليهما السلام . ابن هشام : الـــسيرة النبويـــة ، مج١ ، ج١ ، ص٤ .

٥- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٣ ــ ٢٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي مرثية عَمْرَة [١] بنت دُرَيْد لأبيها سيد بني جُشَم تظهر لنا مزايا السيد البطولية التي جعلت منه حقيقا بالسيادة ، فتقسم قائلة [٢] :

لعمـــرك مـــا خشيـــت على دريـــد ببطن سُميرة [٣] جيـــش العَنَـــاق [٤]

وتنفي خشيتها عليه من جيش العناق ؛ لما خبرته من صلابته عند المواجهـــة ، ثـــم تدعو على بني سُلَيْم ؛ لأنهم قتلوه شيخا كبير السنّ ، ولم يرقّوا لشيبته ، ولم يرعَوْا صـــنيع يديه عليهم في سابق الأيام ، تقول :

جزى عنـــه الإله بـــنـــي سلـــيـــم وعقتهـــم بما فعلـــوا عقـــاق [٥]

وأسقـــانـــا إذا قـــدنـــا إلـــيـــهـــم دمـــاء خيارهـــم عنـــد التلاقـــي

فـــرب عظيمـــة دافـــعـــت عنهـــم وقـــد بلغـــت نفوسهـــم التراقـــي

ورب كريـــمـــة أعتقـــت منـــهـــم وأخرى قد فككـــت مـــن الوثـــاق

ورب منـــوّه بـــك مـــن سُلـــيـــم أجبت وقـــد دعـــاك بـــلا رمـــاق

فكـــان جزاؤنـــا منهـــم عقوقـــا وهمّا مـــاع منـــه مـــخّ ساقـــي

١- هي عمرة بنت دريد بن الصِّمّة بن جشم ، كان أبوها سيد قومه ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، وخرج مع قومه يوم حنين سنة ثمان للهجرة بعد فتح مكـــة مظاهرا للمشركين ، ولا فضل فيه للحرب ، وإنما أخرجـــوه تيمنـــا برأيه ، فقتله ربيعة بن رفيع السلمي . ابن هشام : السيرة النبوية ، مج٢ ، ج٤ ، ص٦٣ ــ ٧٥ . وانـــظـــر : القرشي : جمهرة أشعار العرب ، ص١١٧ .

٢- المصدر السابق ، مج٢ ، ج٤ ، ص٧٥ .

انظر : ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٢٤ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١٠ ، ص٢٧ .

٣- سميرة : واد قرب حنين قتل فيه دريد بن الصمة . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٣ ، ج٥ ، ص٧٥ .

٤- العناق : الداهية أو الخيبة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عنق) .

٥- عقاق : مبنية على الكسر مثل حذام ورقاش . المصدر السابق ، مادة (عقق) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو الفارس الذي دافع عن بني سليم سابقا في ذلك الحين الذي بلغت فيه نفوسهم من الخوف التراقي ، وهو الذي أعتق كريماتهم من الأسر والهوان ، وهو ذو النجدة في ساعة العسرة ، فجزوا أهله عقوقا ، وأورثوا ابنته همّا ماع لشدته مُخُّ ساقها . وبقتل والدها يتغير المكان على الشاعرة ، ويتنكر لها ما عهدته من مرابع الصبا ومدارج الشباب في أين وبذي بقر إلى فيف النهاق :

عفت آثار خيلك بعد أين [١] بذي بقر [٢] إلى فَيف النهاق [٣]

ثم تردف أبياتها هذه أبياتا أخر تصدق فيها واقعة قتل أبيها الذي بات مشهورا لشهرته ، ومن لم يسمع به وهو من فرسان العرب المعروفين ، تقول [٤] :

قالوا : قتلنا دريدا قلت قد صدقوا فظل دمعي على السربال ينحدر

فالخبر صادق ؛ مما أعقبها دمعا متواليَ العبرات ينحدر لكثرته انحدارا يصل إلى قميصها ولولا الموت الذي يقهر الجميع لرآه أعداؤه على رأس جحفل شاكي السلاح لا يدع لهم فرصة يفرون منه :

لولا الذي قهر الأقوام كلهم رأت سليم وكعب كيف تأتمر

إذن لصبحهم غبا [٥] وظاهرة [٦] حيث استقرت نواهم جحفل ذفر [٧]

١- أين : قرية بين مكة والمدينة . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج١ ، ج١ ، ص٢٣٤ .

٢- ذي بقر : قرية في ديار بني أسد . البكري ، أبو عبيد ، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي ، (ت ٤٨٧هـ) : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ط٣ ، تحقيق : مصطفى السقا ، مكتبة الخانجي ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م ، مج١ ، ج١ ، ص٢٦٣ .

٣- فيف النهاق : موضع في ديار بني كنانة . المصدر السابق ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٣٦ .

٤- ابن هشام : السيرة النبوية ، مج٢ ، ج٣ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

٥- غبا : ورد يوم وظمء آخر . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (غبب) .

٦- ظاهرة : أن ترد الإبل كل يوم نصف النهار . المصدر السابق ، مادة (ظهر) .

٧- ذفر : الذفر ، بالتحريك : شدة ذكاء الريح من طيب أو نتن . المصدر نفسه . مادة (ذفر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي رثاء دختنوس [١] بنت لقيط أباها سيد بني فهم تبدأ قصيدتها بإعلان خبر الموت الذي يصبّحها باكرا بعد هجوع فتقول [٢] :

بكر النعي [٣] بخير خِنْدِف [٤] كهلها وشبابها
وبخيرها نسبا إذا عدت إلى أنسابها
وأضرها لعدوها وأفكها لرقابها
و قريعها و نجيبها في المطبقات و نابها
ورئيسها عند الملوك وزين يوم خطابها

تبكي فقده وافتقادها للعديد من الصفات الحميدة ، التي كان يتجمّل بها ، حتى يصل بها إعجابها بمناقبه إلى أن ترفعه إلى الأفق الأعلى ، تشبيها له بالكواكب اللامعة :

كالكوكب الدريّ في سيماء لا يخفى بها

ثم تمضي ؛ لتبين السبب الذي أوقع أباها بين يدي القدر المحتوم :

عبث الأغرُّ به وكلُّ منيّة لكتابها

١- هي دختنوس بنت لقيط بن زرارة ، كانت تحت عمرو بن عمرو بن عُدُس . قتل أبوها لقيط يوم شعب جبلة وهو يوم لعامر وعبس على ذبيان وتميم . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص٥٨٣ .

٢- أبو عبيدة ، معمر بن المثنى ، (ت ٢٠٩هـ) : أيام العرب قبل الإسلام ، ط١ ، جمع وتحقيق ودراسة : عادل جاسم البياتي،مكتبة النهضة العربية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ، ج٢ ، ص٢٥١ ـ ٢٥٢ . وانظر : ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٢ . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص١٤٣ ـ ١٤٤ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١١ ، ص١٠٢ .

٣- النعي : خبر الموت . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نعا) .

٤- خندف : ليلى بنت حلوان ، غلبت على نسب أولادها ؛ فذهب لها اسما ولأولادها نسبا ، وسميت بها القبيلة . المصدر السابق ، مادة (خندف) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فعثور الفرس (الأغرّ) هو السبب في موت الفارس ، وفرار الحليف في المعركة هو السبب الآخر :

فرّت بنو أسد حرود [١] الطير عن أربابها

ثم تصفع بني هوازن بالبيت الأخير من قصيدتها تحقيرا لهم ، ولأصحابهم بني أسد ؛ فتشبههم بالفئران العالقة بالأذناب ، كناية عن دونيّتهم وتبعيّتهم ، وعدم نديتهم لرؤوس القوم أولي الصفات التي وجدتها في أبيها :

وهوازن أصحابهم كالفأر في أذنابها .

وتنفجر الراثية غضبا عندما تعلم أن عبْسا ضربت أباها ميتا ؛ فتتوعدهم بالويلات ، فتقول [٢] :

ألا يا لها الويلات ويلات من بكى لضرب بني عبس لقيطا وقد قضى

وتشنّع عليهم الغدْر بوالدها فتصفهم بـ " الخُضَّب " : النعام ؛ لتلصق بهم صفة الجبن :

غدرتم ولكن كنتم مثل خضب أصاب لها القناص من جانب الشرى [٣]

١- حرود : حرد يحرد حرودا : إذا ترك قومه وتحول عنهم . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حرد) .

٢- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج١ ، ص٢٥٠ ــ ٢٥١ . وانظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج١١ ، ص١٠١ .

٣- الشرى : والشرى : موضع تنسب إليه الأسد ، يقال للشجعان : ما هم إلا أسود الشرى . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شري) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم تتربص النوازل من قادم الأيام ببني عامر بن صعصعة ؛ لتجزيهم بالقتل قتلا ، يشفي غليلها من قتلهم عمها مَعْبِد بن زُرارة سابقا [١] ، وأباها لقيطا لاحقا :

فإن تعقب الأيام من عامر يكن ... عليهم حريقا لا يرام إذا سما

ليجزيهم بالقتل قتلا مضعّفا ... ومافي دماء الحُمْس [٢] يا مال من بوا [٣]

وناهيك بكلمة " مضعّفا " من مبالغة في الانتقام ؛ فهي لا تريد لهم قتلا واحدا ، بل أكثر من ذلك ؛ لأنهم تجاوزا قتل الواحد ؛ فالعدل أن يكون كما قالت .

أما ابنة مالك بن بدر [٤] ، فترثي أباها يوم الهَباءة [٥] فترى أن أباها قد قتله أكفاؤه بمالك بن زهير [٦] قتلا يناسب مكانة الشريف ، وإن تمنّت السلامة له ، وآثرت ألا يغيب عنها ، ولكنّ ساجعة بالرقمتين ، أو الرسّ ستملأ ذلك الوادي بكاء يحيي بطولات فارس (الكتفان) . تقول [٧] :

١- انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص٥٨٣ .

٢- الحمس : رجل حمس وحميس وأحمس : شجاع . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حمس) .

٣- بوا : البواء بالهمز : السواء . وفلان بواء فلان : أي كفؤه . المصدر السابق ، مادة (بوأ) .

٤- هي ابنة مالك بن بدر شاعرة جاهلية مقلة ، وكان " بنو بدر بن عدي بن فزارة ، وعظماؤهم في الجاهلية يرأسون جميع غطفان ، وتدين لهم قبائل قيس " . الأندلسي ، ابن سعيد ، أبو الحسن ، علي بن موسى بن محمد ابن عبدالملك ، بن سعيد ، (ت٦٨٥هـ) : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ط١ ، تحقيق : نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ــ الأردن ، ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م ، ج٢ ، ص٥٥٢ .

٥- يوم الهباءة : يوم لعبس على ذبيان . ابن عبد ربه ، أبو عمر ، أحمد بن محمد الأندلسي ، (٣٢٧هـ) : العقد الفريد ، د.ط ، شرح وتحقيق وضبط : أحمد أمين وآخرين ، دار الكتاب العرب ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م ، ج٥ ، ص١٥٦ .

٦- مالك بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس . ابن حزم ، أبو محمد ، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي ، (ت٤٥٦هـ) : جمهرة أنساب العرب ، ط٦ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ــ مصر ، د.ت ، ص٢٥١ .

٧- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٧ ، ص١٤٥ . وانظر : أبا طالب ، المفضل بن سلمة : الفاخر ، ص٢٢٨ . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ج٤ ، ص٤٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطئا ، والأكثر حزنا ؛ مما حدا بها أن تعبّر عنه بصيغة " شيّب رأسي " ؛ ولا يشيب الرأس إلا لهول عظيم أو أمر جسيم ، تقول [١] :

تطـــاول ليلـــي للهمـــوم الحواضـــر وشيب رأسي يوم قيس بـــن جابـــر

ثم تتماسك ، فتعزي نفسها بما لأبيها من مواقف بطولية مشهورة بين الأحياء والقبائل في السنين الغوابر :

فإن تكن الأحـــداث أودت بفـــارس عظيم المساعي في السنين الغوابر

فقد علمت أحياء زيـــد وكاهـــل [٢] وعمـــرو وودّان قبيل الغواضـــر [٣]

بأن أبي قد كان فـــارس قومـــه به تتقي حـــدّ الرمـــاح الشواجـــر

ثم تنتهي إلى الدعاء على (حيٍّ الأراقم)، مذكرة لهم بأنهم سيردون نفـــس المـــورد الذي ورده والدها :

فلا يهنئن حـــيَّ الأراقـــمِ [٤] فقْـــدُه فكلُّ امرئ رهن لريـــب المقـــادر .

وفي يوم أبايض [٥] يقتل أبو الجَدْعاء [٦] ؛ فتنبري ابنته لرثائه باكية ، ومبكيـــة عليـــه صنفين من الناس ، هما : ضيف مُعيّل ، وأرملة ؛ فتقول [٧] :

ليبك أبا الجدعـــاء ضيـــف مُعيَّـــل وأرملـــة تغشـــى النّـــديّ فترمـــل

١- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص٢٤١ ــ ٢٤٢ .

٢- كاهل : جاء في الأنوار ومحاسن الأشعار : " ... قيس بن جابر ، وكان فارس بني كاهل " . ج١ ، ص٢٣٩ .

٣- الغواضر : قبيلة في بني أسد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (غضر) .

٤- حي الأراقم : حي من تغلب . المصدر السابق ، مادة (رقم) .

٥- يوم أبايض : يوم لبكر بن وائل ، على بني تميم . الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص٩٦ .

٦- في المصدر السابق : " وقتل أبو الجدعاء الطهوي ، قتله سعد بن عباد بن مسعود " ، ج١ ، ص٩٦ .

٧- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يخفى أنها بدأت البيت بـ (لام الأمر) طالبة ممن ذكَرت مشاركتها البكاء ؛ ليخفَّ عليها ثقل الحزن ، ولات حين وقت للتلطف في القول ، لاستخدام مالا يكون أمرا من أساليب الكلام ، لعظم فاجعتها ، ثم أنها تصرّح أن سبب النجاة من القتل ، وقد حمي وطِيس الحرب كان مهينا لأبيها ؛ فما كان عليه إلا أن يأذن لفرسه أن ينجوَ به عن معمعان القتال ، دون أن يستخدم سوطه لحثّه على ذلك :

ولو شاء نجّاه من الخيل سابح جموم[1] على الساقين والسوط مفضل

ولكن هربه عار ، لا يليق بفارس القبيلة المحامي عن ذمار الآباء :

ولكن فتى يحمي ذمار [2] أبيكم فأدركه من رهبة العار محفل

ثم تذمّ قومه ومن كان معه ؛ إذ أسلموه لمصيره ولم ينشطوا لنجدته ، وقد استحرّ القتال :

دعا دعوة ــ إذ جاءه ــ ثَمَّ مالكا ولم يك عبدالله ثَم ونهشل

وغابت بنو ميثاء عنه ولم يكن نعيم بن شيطان هناك وجرول

ولكن دعا أشباه نبت كأنهم قرود على خيل تخبّ وتركل

فتصل إلى حكم محقق بخسارة تشمل القبيلة ؛ لقتل فارسها المحامي عن عوراتها :

لقد فجعت شيبان قومي بفارس محام على عوراتهم ليس ينكل .

١- جموم : فرس جموم إذا ذهب منه إحضار جاءه إحضار . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جمم) .

٢- ذمار : كل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه وإن ضيعته لزمه اللوم . المصدر السابق ، مادة (ذمر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكما فعلت ابنة أبي الجدعاء في مستهل أبياتها تفعل أروى [١] بنت الحُباب الأمَر نفسه في رثائها أباها ؛ فتعرض لذكر صنفين من الناس شملهما والدها بالإحسان ، هما صنفا الأرامل واليتامى ، تقول [٢] :

قل للأرامل واليتامى قد ثوى فلتبك أعينها لفقد حُباب

وهو الكريم الكرم الموروث ، الأصيل النسب ، المعروف فيه وفي آبائه ، المقرون بأعلى غاية الكرم ، وهو الجود بالنفس ، التي يأتي بذلها إبقاءً على الأحساب ؛ فحياة القبيلة بحاجة إلى من يدفع نفسه لبقائها ، وإلا لهلكت جميعا :

أودى ابن كلُّ مخاطر بتلاده [٣] وبنفسه بُقيا على الأحساب

فهو من قوم لا يقبلون لأنفسهم إلا صدور الأمور نافية عنهم أسافلها :

الراكبين من الأمور صدورَها لا يركبون معاقدَ الأذناب .

وكذلك وصفت بنت ملاعب الأسنة [٤] رائية أباها ، بأنه كان غياث المرملين ، ومعتصما في الزمن الشديد ، تقول [٥] :

١- " شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية " . عبد مهنا : معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م ، ص١١ .

٢- البحتري ، أبو عبادة ، الوليد بن عبيد ، (ت ٢٨٤هـ) : الحماسة ، ط٢ ، اعتنى به : الأب لويس شيخو اليسوعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ــ لبنان ، ١٩٦٧م ، ص٢٧٥ .

٣- التلاد : كل مال قديم من حيوان وغيره ، يورث عن الآباء . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (تلد) .

٤- هي ابنة " ملاعب الأسنة الكلابي ، وهو أبو براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ، كان ابن أخيه عامر بن الطفيل " . الآمدي ، أبو القاسم ، الحسن بن بشر بن يحيى ، (ت ٣٧٠هـ أو ٣٧١هـ) : المؤتلف والمختلف ، د.ط ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، د.ت ، ص٢٨٦ .

٥- ابن الشجري ، هبة الله بن علي بن حمزة العلوي ، (ت ٥٤٢هـ) : الحماسة الشجرية ، د.ط ، تحقيق : عبد المعين الملوحي ، دار منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ــ سورية ، ١٩٧٠م ، ج١ ، ص٣٢٩ ــ ٣٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان غِيـاث المرمـل الملتـاح [١] وعصمـة في الزمـن الـكـلاح

ثم تجمع كرمه بشجاعته ؛ لتجعل الصفتين معا نسيجا واحدا ، يتحلى بهمـا والـدها ، وتتجلى بهما طلعته بين فتية ، تعودوا أن يباكرهم بالهدايا والشراب والطرب والطيب ، أمارة على سيادته عليهم ، تقول :

ومعمـل الناجيـة [٢] الـوقـاح [٣] وذائـد الكـتـيـبـة الـرداح [٤]

بالخـيـل تشكـو ألـم الـجـراح وفتـيـة هـبـوا إلى الـمـراح

بـاكـرتـهـم بـحـلـل وراح [٥] وقـيـنـة ومـزهـر [٦] صـداح

وزعـفـران كـدم الأذبـاح .

وتصف ابنة وثيمة [٧] وهي ترثي أباهـا واقعـا من القحط والشدة ، تحمرّ فيه الآفاق ، وتمسك السماء عن القطر ، ويكسو الصقيع وجه الأرض فتغبرّ ، ولا ثمةَ مرعـى للماشـية ، معبّرة عن صورة من صور المعاناة المعيشيّة التي تتفاقم أشدَّ ما يكـون علـى الأرامـل والأيتـام ؛ فتجعل والدها مأواهم الذي يأوون إليه ؛ فيُحسن إليهم بكرمه ، تقول [٨] :

واحـمـرّ آفـاق الـسـمـاء ولـم تـقـعْ في الأرض دِيـمـة

١- الملتاح : اللتح ، بالتحريك : الجوع . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لتح) .

٢- الناجية : الناقة السريعة . المصدر السابق ، مادة (نجا) .

٣- الوقاح : حافر وقاح : صلب باق على الحجارة . المصدر نفسه ، مادة (وقح) .

٤- الرداح : كتيبة رداح : ضخمة . المصدر نفسه ، مادة (ردح) .

٥- راح : خمر . المصدر نفسه ، مادة (روح) .

٦- مزهر : العود الذي يضرب به . المصدر نفسه ، مادة (زهر) .

٧- ابنة وثيمة : " شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية قالت ترثي أباها " . عمر رضا كحالة : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، ج٥ ، ص٢٧٣ .

٨- الجاحـظ ، أبو عثمـان ، عمرو بن بحـر ، (ت ٢٥٥هـ) : البيان والتبيين ، د.ط ، تحقيق وشـرح : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ــ لبنان ، د.ت ، ج١ ، ص١٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعـــذّر الآكـــال حـتّـــى كـــان أحـمـدهـا الهشـيـمـه

لا ثـلـــة [١] تـــرعـــى ولا إبـل ولا بـقـر مـسـيـمـه [٢]

ألـــفـــيـــتـــه مـــــأوى الأرامـل والـمـدفـعـة اليـتـيـمـه

ثم تصفه حكيما ؛ يستخدم لسانه ، لا سنانه ، دفعا للخصم ، في موقف لا يقوى عليه إلا البلغاء :

الـدافـــع الـخـصـــم الألـد إذا تـفـوضـــح فـي الـخـصـومـــه

بـلـسـان لـقـمـان [٣] بـن عـاد وفـصـل خـطـبـتـه الحكـيـمـه

ألـجـمـتـهـم بـعـد الـتـدافـع والـتـجـاذب فـي الـحـكـومـــه

ويتضح أن الوضع كان صعبا على أبيها ؛ فهناك خصومة يشعلها التجاذب ، غير أن بيانه وفصاحته ألجمتا خصمه الألد ، فكانت له عليه الغلبة .

وترثي بنت بُجير بن عبدالله [٤] والدها يوم المرّوت [٥] ؛ فتصفه بـ " النهوض " الذي يكثر النهوض من المِحَن ؛ لجلَده وصبره ، أو المسارعة بالنهوض إلى أعالي الأمور ، حين تصيب الرزايا غيرَه من الكرام ؛ فتقعدهم ، تقول [٦] :

نهوضـا حـيـن تعتمـد الرزايـا ذوي الأفعـال بالعـبء الثقـيـل

١- ثلة : الضأن الكثيرة . الجاحـظ : البيان والتبيين ، ج١ ، ١٨٤ .

٢- مسيمة : أي صارت في السوم ، ودخلت فيه ، والسوم : المرعى . المصدر السابق ، ج١ ، ص١٨٤ .

٣- لقمان بن عاد : صاحب النسور ، تنسبه الشعراء إلى عاد . [وهو غير] لقمان الذي أثنى عليه الله تعالى في كتابه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لقم) .

٤- هي ابنة " بجير بن عبدالله بن عامر بن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة " . أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٣٤٧ .

٥- يوم المروت : لبني العنبر على بني قشير . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ١٧٩ .

٦- المرزباني ، أبو عبيدالله ، محمد بن عمران ، (ت٣٨٤هـ) : أشعار النساء ، ط١ ، عالم الكتب ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م ، ص٦٤ . وانظر : البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١١٨ ـ ١١١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتنفي قبيلتها إن لم تثأرْ لأبيها ، مشخّصة الثأر كائنا حيّا ، ينادي مطالبا بالقصاص :

فما كعب [١] بكعب إن أقامت ولم تثأر بفارسها القتيل

وذحلهم [٢] يناديهم مقيما لدى الكدّام [٣] طلاب الذُحول .

ومن الطبيعيّ أن يقاسم الإنسان أخاه الإنسان شيئا من الأشياء ، ولكن من غير الطبيعي أن يقاسم الإنسان المنايا ؛ لأنها بلا شكّ حال مختلف ، فلا وجه لمشاركته ، أو مقارنته بالإنسان ؛ فإذا تقاسم مع الإنسان شيئا صارت إليه بحكم صفاته الخاصة القدرة المطلقة على الربح ، ورغم هذا فقد قاسمته ابنة فَروة بن مسعود [٤] أغلى ما تملك تحدّيا لقوة المنايا التي يعشق سلاحُها الكرام ، ويولع بهم ، تقول [٥]:

١- كعب : " هو كعب بن ربيعة بن عامر " . أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٣٤٧ .

٢- ذحلهم : الذحل : الثأر ، وجمعه : أذحال وذحول . يقال : طلب بذحله ، أي : بثأره . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ذحل) .

٣- الكدام : " هو يزيد بن أزهر بن عبدالله المازني ، وكان أسر بجيرا " . المرزباني : أشعار النساء ، ص٦٤ . والكدام : " موضع قبل المروت " . البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١١٨ ــ ١١١٩ .

٤- هي ابنة " فروة بن مسعود بن عامر بن عمر بن أبي ربيعة . قتل أبوها وعمها قيس مع المنذر ذي القرنين يوم عين أباغ ، وكان الذي قتل المنذر شمر بن عمرو الحنفي ، وكان مع الحارث بن أبي شمر الغساني ، وهو المنذر بن امرئ القيس ، وأمه ماء السماء النمرية " . التبريزي ، أبو زكريا ، يحيى بن علي بن محمد الشيباني ، (ت٥٠٢هـ) : شرح ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م ، ج١ ، ص٥٦٢ ــ ٥٦٣ .

٥- المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٦٢ ــ ٥٦٣ . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج١ ، ج١ ، ص٦٠ . وفي : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي : " وقالت امرأة من بني شيبان " . المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن ، (ت٤٢١هـ) ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ــ لبنان ، ١٤١١هـ ــ ١٩٩١م ، مج١ ، ج٢ ، ص٨٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقالــوا : ماجــدا منكــم قتلــنــا كــذاك الرمــح يكلــف بالكريــم

بعيــن أبــاغ [١] قاسمنــا المنايــا فكــان قسيمهــا خيــر القسيــم

فقولها " خير القسيم " أي : أن المنايا " أخذت بعضا ، وتركت بعضا ، فكان من أخذت خيرا ممن تركت [٢] " ، وقد أخذت أباها فروة ، وعمَّها قيسا [٣] كليهما .

وتطلب آمنة بنت عُتيبة [٤] في يوم خَوّ [٥] نعي والدها ، وأمارة ذلك أن تشق له النساء جيوبهن على عادة الجاهلية عندما يموت أحد ، فتقول [٦] :

علــى مثــل ابــن ميــّة فانعياه بشــقّ نواعــم البَشَــر الجيوبــا

ثم تصفه بالصلابة كالرمح ، لا يدّخر نصيبا لديه ؛ لأن الذي لا يكون صلبا جلدا مــع نفسه تراه يلين عند بذل المال ؛ فيموت تحت بروق الأطماع ولا يقوى على العطــاء منهمكــا على كنز ماله وادخاره :

وكــان أبــي عتيبــة سمهريا [٧] فــلا تلــقــاه يــدخــر النصيبــا

١- عين أباغ : كان عندها في الجاهلية يوم بين ملوك غسان وملوك الشام وملوك لخم ملوك الحيرة ، قتل فيها المنذر بن امرئ القيس اللخمي . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج١ ، ج١ ، ص٦٠ .

٢- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، ج١ ، ص٥٦٣ .

٣- انظر : المصدر السابق ، (الشرح) ، ج١ ، ص٥٦٣ .

٤- هي " ابنة عتيبة بن الحارث بن شهاب أخــي بنــي جعفــر بن ثعلبــة بن يربــوع " . نوادر المخطوطات (أسماء المغتالين) ، ط١ ، تحقيــق : عبد السلام محمــد هــارون ، دار الجيــل ، بيــروت ــ لبنــان ، ١٤١١هــ ــ ١٩٩١م ، ج١ ، ص٢٥٢ .

٥- يوم خوّ : يوم لبني أسد على بني يربوع . أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام م، ج٢ ، ص٤٨٦ .

٦- ابــن عبــد ربــه : العقــد الفريد ، ج٥ ، ص٢٥٠ . وانظر : معجم البلدان ، مــج٤ ، ج٧ ، ص١٧٨ ، وفي (بلاغات النساء) : " وقالت ابنة عيينة ترثي أباها " ، ص٢٣٧ .

٧- سمهريا : السمهري : الرمح الصليب العود . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (سمهر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما إن تذكر صفة الجود حتى تقرنها بصفة الشجاعة والثبات في الحرب ، وكأن الصفة الأولى عقلية ، والصفة الأخرى قلبية ، فاحتاج كل منهما للآخر :

ضروبا للكميّ [١] إذا اشمعلّت [٢] عوان [٣] الحرب لا ورعا [٤] هيوبا

وتصوّر رَيْطَة بنت العباس [٥] ميدان والدها المرثي فسيحا ؛ يبدأ من " بيشة " ، وينتهي بـ " هضب أشراك " تلميحا إلى سيطرة والدها على هذه المساحة ، رغم ما فيها من أعداء ، أو أنداد ، ولا يقتصر الأمر على هذا بل يتعداه إلى إقامة والدها بالمكان نفسه ، إقامة القوي المتمكن من هزيمة خصومه إن بدا منهم ما يوجب القيام بذلك منه ، أو عن أمان بتسليم هذه المنطقة قيادها إليه ، واستسلامها له ، تقول [٦] :

وكان إذا ما أورد الخيل بيشة [٧] إلى هضب أشراك [٨] أقام فألجما

تعني أقام كأنه استراح استراحة المحارب ؛ ليستوفي قوته ؛ فيعود ليلجم فرسه للغارة ؛ لتفيء بالغنائم الثقيلة :

١- الكميّ : الشجاع المتكمي في سلاحه لأنه كمى نفسه أي سترها بالدرع والبيضة ، والجمع : الكماة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (كمي) .

٢- اشمعلت : اشمعلت الغارة : شملت وتفرقت وانتشرت المصدر السابق ، مادة (شمعل) .

٣- عوان : حرب عوان : كان قبلها حرب . المصدر نفسه ، مادة (عون) .

٤- ورعا : الورع ، بالتحريك : الجبان . المصدر نفسه ، مادة (ورع) .

٥- هي "ريطة بنت العباس الأصم الرعلي ، ترث أباها ، وكانت خثعم قتلته ، فأدرك بثأرها عباس بن مرداس " . البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، مج١ ، ج٢ ، ص٢٩٣ .

٦- المصدر السابق ، مج١ ، ج١ ، ص٢٩٣ .

٧- بيشة : وادٍ من أودية تهامة . البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، مج١ ، ج١ ، ص٢٩٣ .

٨- هضب أشراك : لم تعرفه المصادر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففاءت عشاء بالنهـــاب [١] وكلهـــا أتى قلقـــا تحت الرحالة [٢] أهضما [٣]

ثم تختتم بتعداد مجال خيله المظفرة ، كما بدأت :

وكانت إذا ما لم تطـــارد بعاقـــل [٤] وبالرأس [٥] خيلا طاردتهـــا بعيهما [٦]

١- النهاب : جمع نهب : الغنيمة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نهب) .

٢- الرحالة : سرج من جلود ليس فيه خشب كانوا يتخذونه للركض الشديد . المصدر السابق ، مادة (رحل) .

٣- أهضما : الهضم ، بالتحريك : انضمام الجنبين ، المصدر نفسه ، مادة (هضم) .

٤- عاقل : جبل كان يسكنه الحارث بن آكل المرار . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٣ ، ج٦ ، ص٢٨٦ .

٥- الرأس : الرس : واد بنجد . البكري : معجم ما استعجم من أســماء الــبلاد والمواضــع ، مــج١ ، ج٢ ، ص٦٥٢ .

٦- عيهما : جبل بالغور. المصدر السابق ، مج٢ ، ج٣ ، ص٩٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

رثاء الأبناء

يوصف الأبناء بأنهم ثمرات قلوب آبائهم ، فما إن يتمّ الزواج حتى ينتظر الزوجان أولادا ؛ بهم يحفظ النسب ، ويتصل النسل ، وتستمرّ الحياة الإنسانية ، وبفقْد الأولاد يُصاب الآباء في آمالهم التي كانوا يرجُونها أن تتحقق بأبنائهم ؛ فتتلاشى آمالهم ، وتنصدع أفئدتهم إلا من صبرَ منهم معتقدا الحسنى .

" قال رجل لعبيدالله بن أبي بكرة[١] : ما تقول في موت الوالد ؟ قال : مِلك حادث . قال : فموت الزوج ؟ قال : عرس جديد . قال : فموت الأخ ؟ قال : قصّ جناح . قال : فموت الولد ؟ قال : صدْع في الفؤاد لا يُجبر[٢] " .

وتعبّر الشاعرة الجاهلية برهافة حسّها عن لوعتها فتصوّر " فداحة المواقف التي تعرضت لها بفقدها للولد الذي كثيرا ما مَنّت النفس في أن يكون سندا ، وحصنا لها في النوائب والشدائد[٣] " ؛ فيشتدّ عويلها ويتواتر نشيجها ؛ فترتجل أبياتا تبكي بها تلك الثمرة الغالية ؛ إذ لا قدرة لها على حبْس البكاء ؛ لأن حبسه يفتّت كبدها ، أو يقضي عليها .

١- هو " عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي ، أبو حاتم ، ولد ١١٤هـ ، تابعي ثقة ، من أهل البصرة ، كان أمير سجستان،وولي قضاء البصرة ،وكان أسود اللون ، وهو ابن صحابي " أبي بكرة " نفيع بن الحارث " الزركلي ، خيرالدين : الأعلام ، ط٧ ، دار العلم للملايين ، بيروت ــ لبنان ، ١٩٨٦م ، ج٤ ، ص١٩١ .

٢- ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ط١ ، شرحه وعلق عليه : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٤ .

٣- محمد إبراهيم حور : رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي ، د.ط ، مكتبة المكتبة ، أبو ظبي ، العين ــ دولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م ، ص٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يذكر " أن امرأة مات ولدها ، فأمسكت نفسها عن البكاء صبرا واحتسابا ؛ فخرج الدم من ثديها ؛ وذلك لما ورد عليها من شدة الحزن ، مع الامتناع عن البكاء [١] " .

وتحاول الأم الشاعرة وهي ترثي ابنها أن تنفث تلك العاطفة المتأججة في صدرها نتيجة فقدانها ابنها، مزينة له بأحسن الصور الجمالية التي يمكن أن تتصورها بخيالها ؛ لتجعل منه صورة متكاملة الأبعاد ، آخذة بالأبصار ، رائعة الألوان ؛ فهذه أم عمرو بن عَدِيّ [٢] ، ترثيه ، وقد قتل في وقعة ذي قار [٣] ، تقول [٤] :

ويح [٥] عمرو بن عدي من رجل ... حان يوما بعدما قيل كمل

كان لا يعقل حتى ما إذا ... جاء يوم يأكل الناس عقل

أيهم دلاّك [٦] عمرو للردى ... وقديما حيّن [٧] المرء الأجل

١- العسكري ، أبو هلال ، الحسن بن عبدالله بن سهل ، (ت ٣٩٥هـ) : الصناعتين ، د.ط ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، و محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ، ص١٢٥ .

٢- هي أم عمرو بن عدي بن زيد العبادي الشاعر ، وكان عمرو كاتب كسرى وترجمانه بالعربية ، قتل يوم ذي قار . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٤ ، ص٣٨ و ٤٣ .

٣- ذي قار : " ماء لبكر بن وائل ، قريب من الكوفة ، بينها وبين واسط وحنو ذي قار على ليلة منه ، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس،وكانت يوم ولادة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقيل : كانت وقعة ذي قار عند منصرف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وقعة بدر الكبرى ، وكان أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم انتصفوا ، وهي من مفاخر بكر بن وائل " . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٤ ، ج٧ ، ص٨ ـ ٩ .

٤- الأصفهاني ، أبو الفرج ، علي بن الحسين ، (ت٣٥٦هـ) : الأغاني ، ط١ ، تحقيق : إحسان عباس ، و إبراهيم السعافين ،و بكر عباس ، دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م ، ج٢٤ ، ص٤٤ .

٥- ويح : كلمة تقال رحمة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ويح) .

٦- دلاك : يقال : ما دلك علي أي : ما جرأك علي . المصدر السابق ، مادة (دلل) .

٧- حيّن : جعل له حينا . المصدر نفسه ، مادة (حين) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فعبّرت عن ابنها بلفظ (كمل) أي تناهى في الرجولة وصفاتها كما أرادت له أن يكون ، ولكن سرعان ما يخترم الموت ولدها ؛ لأنه كمل ؛ فوافاه النقصان ، كالقمر يكون بدراً ثم ينقص ، ثم أنها تلمّح بطرْف خفيّ عن مرحلة من مراحل عمره ، عايشتها أمه لحظة بلحظة ؛ حين (كان لا يعقل) في مرحلة الصبا ، ثم شبّ وعقل ، فتزامنت مرحلة عقله بيومٍ نشبت فيه الحرب ؛ فأكلته نارُها ، ثم تستسلم الأم للواقع المؤلم ؛ لأنها تعرفه (قديما) أنه واقع لا بدّ منه ، فكل غادٍ إليه لا يرجع ، وإن تعلّل المرء بالآمال :

قد تنظّرنا لغادٍ أوبةً ... كان لو أغنى عن المرءِ الأملْ

بان منه عضد عن ساعد ... بؤس للدهر وبؤسى للرجل

ويبلغ تأثر تَماضر بنت الشريد [١] يوم الهباءة [٢] مبلغا يجعلها في سهاد دائم ، لفقد ابنها الذي تراه زينَ الناس جميعا ، تقول [٣] :

كأن العين خالطها قذاها ... لحزن واقع أفنى كراها

على ولد وزين الناس طرّا ... إذا ما النار لم ترَ مَن صلاها

ثم تعلل حزن القبيلة عليه ؛ بأنه كان فتاها ، وهذا ملحظ يقفنا على العصبية القبلية ؛ أي أن الفتى لم يكن ابنا لها وحدَها ، بل كان فتىً للقبيلة كلها ، فعلى القبيلة أن تشترك في الحزن عليه :

لئن حزنت بنو عبس عليه ... فقد فقدت بنو عبس فتاها

١- هي " تماضر بنت الشريد ، أم قيس ومالك ابني زهير ، وزوجها زهير ملك بني عبس ، لها رثاء قليل في مالك لما قتله حذيفة بن بدر. شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، د.ط ، دار التراث ، بيروت ــ لبنان ، ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨م ، ص١٣٩ .

٢- يوم الهباءة : يوم لعبس على ذبيان . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص١٥٦ .

٣- شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص١٣٩ . وانظر : بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ص٦٣ ــ ٦٤ . بديع صقر : شاعرات العرب ، ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم تذكر كرمه ، وتحدد الوقت الذي يمتحن فيه جوهر الكريم ، أحقيقي هو أم زائف ؟ وهو وقت هبوب ريح الشمال ، في فصل الشتاء ، الذي تقِلّ فيه المُؤَن ، وتستفهم منكرةً أن يقوم أحد مقامه وقتذاك :

فمن للضيف إن هبّت شمال مزعزِعة يجاوبها مداها

وتأخذها حرارة الحُنْق على الذين تخلّوْا عن نجدة ابنها في حَوْمة الوغى ؛ فتؤنّبهم وتقرّعهم بقولها :

أسيدَكم وحاميَكم تركتم على الغبراء منهدما رحاها

ثم تدعو على قاتل ابنها ؛ فتقول :

حذيفة لا سقيتَ من الغوادي ولا روّتْك هاطلةٌ نداها

كما أفجعتني بفتى كريم إذا وزنت بنو عبس وفاها

وتختم بذكر الدمع والبكاء ، كما بدأت أبياتها ؛ لتدلنا على أن حزنها باق متواصل ، ودمعها سيال رقراق ، وهو ما تؤكده بألفاظها (أبدا ، دائما ، هطول) في بيتها الأخير :

فدمعي بعده أبدا هطول وعيني دائم أبدا بكاها .

ويتكرر ذكر ريح الشمال الباردة الشديدة في رثاء أم معدان [١] لابنها أيضا ؛ للدلالة على الحاجة في إبّانها إلى الطعام ؛ فتنادي ابنها ؛ مستفهمة ومنكرة على غيره أن يقوم بما قام به من إكرام للحيّ ؛ تقول [٢] :

١- هي " أم معدان الشيبانية من بني أسد " . المرزباني : أشعار النساء ، ص١٢٧ .

٢- المصدر السابق ، ص١٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مـعـدان ، مـن لـلـحـي إذ هـبـت شـآمـيـة [١] فـجـورا

عـسـراء مـن قـبـل الـشـمـال تـكـاد تـنـتـزع الـكـسـورا [٢]

وتـبـادر الـقـوم الـقـداح [٣] وأغلـت الـسـنـة [٤] الـجزورا [٥]

فبينت الشاعرة اسم الريح (شآمية) ، ثم حددت جهة هبوبها (من قبل الشمال) ، كما قدرت قوتها (تكاد تنتزع الكسورا) ، ثم تنعت تأثيرها على الناس ، وبينما الناس على تلك الحال التي ينتظرون فيها سخاء ابنها (معدان) ، تقتله قبيلة بهراء ! ، ولم يكن قتلها إياه قصاصا ، أو ثأرا فتكون لهم حجة يحتجون بها ، بل كان غدرا قبيحا ، مقابل وفاء جميل :

غـدرت بـه بـهـراء [٦] ولـم يـكـن ابـنـي غـدورا [٧]

ويعظم قتل تأبّطَ شرّا [٨] في عين أمه [٩] ؛ لرفعة منزلته عندها ، ولكرمه الذي يكون منه أكثر ما يكون في الشتاء ، الذي لا مطرَ فيه ، تقول [١٠] :

قتيـل مـا قتيـل بنـي قريـم [١١] إذا ضنَّتْ جُمـادى [١٢] بالقِطـار [١٣]

١- شآمية : الشآم ، والنسب إليها شاميّ ، وشآم . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شأم) .

٢- الكسورا : الكَسر والكِسر : الشقة السفلى من الخباء . المصدر السابق ، مادة (كسر) .

٣- القداح : القدح من الآنية ، بالتحريك : واحد الأقداح التي للشرب ، ... ويأكل فيه . المصدر نفسه ، مادة (قدح) .

٤- السنة : الجدب والقحط . الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، مادة (سنو) .

٥- الجزورا : الناقة المجزورة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جزر) .

٦- بهراء : قبيلة . المصدر السابق ، مادة (بهر) .

٧- البيت منكسر .

٨- هو " ثابت بن جابر بن سفيان بن عميثل بن عدي بن كعب بن حزن . وقيل : حرب بن تميم بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار " . الأصفهاني : الأغاني ، ج٢١ ، ص٩٤ .

٩- " يقال لها أميمة ، يقال : إنها من بني القين بطن من فهم " . المصدر السابق ، ج٢١ ، ٩٤ .

١٠- المصدر نفسه ، ج٢١ ، ص١٢٤ . وانظر : السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٤٦ . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٤٢ .

١١- قريم : اسم حيّ . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قرم) .

١٢- جمادى : الشتاء عند العرب جمادى ؛ لجمود الماء فيه . المصدر السابق ، مادة (جمد) .

١٣- القطار : جمع قطرٌ وهو المطر . المصدر نفسه ، مادة (قطر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو فتى القبيلة جميعا ، لا ندّ له فيها ؛ فلذا كبر عليها قتله ؛ لأن في قتله ضعفا لقوة القبيلة ، ثم غادره أصحابه وتركوه جارا لجبل (نُمار) ؛ فاختارت لـــه رفعة القبر ، دالة على رفعة قدره ، وسموّ منزلته ، وإن صار إلى الموت :

فتـــى فَهْـــمٍ [١] جميعـــا ، غـــادروه مقيما بالحُريضـــة [٢] من نُمـــار [٣] .

ويتعاظم المصاب على الأم ، عندما تفتقد ابنها الكريم ، المحامي عنها ، وعن قومها ؛ فتدعو على نفسها بالهلاك ؛ تقول في رَجَزٍ لها [٤] :

ويـــلُ امِّ طرَفٍ [٥] غادروا برَخْمان [٦] بثابـــت بن جابـــر بـــن سفيان [٧]

يجدّل [٨] القِرن [٩] ويروي النِّدمان ذو مأقـــطٍ [١٠] يحمي وراء الإخوان

ويظهـــر أنها تذكر هنـــا مكانـــا آخـــر هو (رَخْمَان) غير المكان الذي ذكرته سابقا (الحُرَيْضَة) ؛ مما يقودنا إلى عدم معرفتها الدقيقة بقبر ابنها الذي لم تقف عليه مودّعة له ،

١- فهم : قبيلة ، أبو حي ، وهو فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان . المصدر نفسه ، مادة (فهم) .

٢- بالحريضة: موضع في بلاد هذيل ، فيه قتل تأبط شرا . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٤٢ .

٣- نمار : جبل . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نمر) .

٤- الأصفهاني :الأغاني ، ج٢١ ، ص١٢٤ . وانظر : السكري : شرح أشـــعار الهـــذليين ، ج٢ ، ص٨٤٦ . الحموي ياقوت: معجم البلدان ، مج٢ ، ج٤ ، ص٣٩٨ . شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص١٢٢ .

٥- طرف : الكريم من الفتيان والرجال . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (طرف) .

٦- رخمان : موضع في ديار هذيل ، وهو الموضع الذي قتل فيه تأبط شرا . البكري : معجم ما استعجم مـــن أسماء البلاد والمواضع ، مج١ ، ج٢ ، ص٦٤٦ .

٧- ينسب البيت الأول لأخت تأبط شرا هكذا :

فثابت بن جابر بن سفيان نعم الفتى غادرته برخمان .

المصدر السابق ، مج١ ، ج٢ ، ص٦٤٦ .

٨- يجدل : الجدّل : الصرع . ابن منظور: لسان العرب ، مادة (جدل) .

٩- القرن : الكفء ، والنظير في الشجاعة والحرب . المصدر السابق ، مادة (قرن) .

١٠- مأقط : المضيق في الحرب ، والموضع الذي يقتتلون فيه . المصدر نفسه ، مادة (أقط) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو أن البيتين الأخيرين لأخت تأبط شرا كما يروي البكري ، وقد وقفتْ على مكان مقتله ، كما يظهر من رواية البيت الأول بدليل قولها : (غادرته) .

وترفع أم بُسْطام [١] ابنها إلى صفحة السماء ، وهي ترثيه يوم الشقيقة [٢] ؛ فتجعل منه هلالا بين النجوم اللامعة ؛ لزينه وجماله واصفة إيّاه بأجمل صفات الفارس ؛ فهو الذي ضُرِبَ به المثل فقيل [٣] : " أفرس من بسطام " ، وهو السيد الكريم الذي ما إن ذهب حتى " ذهبت الشجاعة بذهابه ، وأصيب كلّ من حولَه بخطب كبير لفقده ، وهو مفرج الأسرى ، وحامي الحمى ، وراعي أبناء الأرامل ، وفارس حومات الوغى [٤] " ؛ فترسم له بهذا في رثائها لوحات فنية جميلة ، تتناول في الأولى صفاته ومكانته الاجتماعية بين قومه ، تقول [٥] :

ليبكِ ابنَ ذي الجدين بكرُ بنُ وائلٍ ... فقد بان منها زينُها وجمالُها

إذا ما غدا فيهم غدوا و كأنهم ... نجوم سماء بينهن هلالها

فلله عينا من رأى مثله فتى ... إذا الخيل يوم الروْع هبّ نزالها

عزيز المكرِّ لا يهدُّ جناحه ... وليث إذا الفتيان زلّت نعالها

١- هي " ليلى بنت الأحوص ، أخت الفرافصة الكلبي ، أم بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن عبدالله بن ذي الجدين . أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٤٠١ .

٢- يوم الشقيقة : يوم نقى الحسن ، وهو يوم الشقيقة لبني ضبة على بني شيبان . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص٢٠٢ .

٣- الميداني ، أبو الفضل ، أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ، (ت٥١٨هـ) : مجمع الأمثال ، د.ط ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ــ لبنان ، ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م ، ج٢ ، ص٨٧ .

٤- رغداء ماريني : شواعر الجاهلية ، ط١ ، دار الفكر ، دمشق ــ سورية ، ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠٢م ، ص١١٢ .

٥- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص٦١٦ ــ ٦١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحمّال أثقـــال و عائـــذ مِخجـــر [١] تـــحـــلّ إليـــه كـــلّ ذاك رحالـــهـــا

مفرّج حومـــات الخطـــوب و مـــدرك الحـــروب إذا صـــالـــت وعـــزّ صـــيـــالـهـــا

وترسم في اللوحة الثانية الأثر النفسيَّ الذي يتركه في شريحة الباكين عليه وهي ثلاث فئات : الأولى ؛ الأسرى ، وهـــم نوعـــان ؛ أســـرى طالما فكّهم من أسارهم ــ قبـــل حـــدث مقتله ــ وأسرى لم يجدوا من يفكهم ــ بعد حدث مقتله ــ وفئة ثانية هي فئة فرسان الـــوغى الذين افتقدوا قائدهم ، والفئة الأخيرة هي فئة الأرامل اللواتي يسبب مقتل المرثي ضياعا لهن ولأولادهن ، تقول :

ويبكيـــك عـــان لم يجد من يفكـــه ويبكيك فرسان الوغـــى ورجالهـــا

وتبكيك أسرى طالمـــا قد فككتهـــم وأرملة ضاعـــت وضـــاع عيالهـــا

أما اللوحة التي تختتم بها مرثيتها فهي توضّح دائرة المصاب في قبيلة شَيبانَ والحيِّ يَشْكُر وتمتدّ حتى تشمل طيور السماء ، التي اعتادت أن تصيب بسبب ظفَرِه في الحروب مـــا تقتات عليه ، كناية عن مصاب الأمّ الأليم الذي عمّ ما حولَها ، وطمّ على ما فوقها ، تقول :

أصيبـــت به شيبان والحيّ يشكر وطيـــر يُرى أرسالها [٢] و حبالها

وإذا كـــان غالب الرثاء يجري لرثاء الواحد ، ويجري في جدول العاطفـــة المـــشبوبة لفقده ، فتتهالك قوى الأمّ ، فلا تقوى على التماسك ويأتيها الجزَع من كلّ مكان ، وتتـــيقن أن أمرا مهولا قد نزل عليها بقارعة جعلتها تجثم على الأرض لشدة مصابها ، فكيف يكون جـــزع

١- محجر : بفتح الجيم ، الحرمة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حجر) .

٢- أرسالها : جماعة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (رسل) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من فقدت ابنيها معا في وقت واحد ، وموقف واحد ، فلا شكّ أن الحدث أشدّ ألما ، وأبلغ تأثيرا على نفس الوالدة الشاعرة ؛ كحال عَمْرة الخثعمية [١] ، التي فقدت ولديها معا ؛ فانهارت ، فرأى الناس شدة جزعها ، وتألمت وشكت وتمنت أن تفديهما بنفسها وبنفس أبيهما ، ثم نظرت في أمرها ، فإذا هي عجوز ضعيفة ، حرَمها الدهر أهلها ، فعندذاك لم تر لها معنى في الإقامة فآثرت الرحيل والتعلق بالإله ، تقول [٢] :

لقد زعموا أني جزعت عليهما ... وهل جزع إن قلت وابأباهما [٣]

بنيا عجوز حرّم الدهر أهلها ... فما إن لها إلا الإله سواهما

ثم تجعلهما مشتركيْن معا في كلّ الصفات ، لا ينفرد أحدهما بصفة دون الآخر ولا يزيد أحدهما عن الآخر بشيء ، أو ينقص عنه بشيء ؛ إذ جعلتهما في كفتين ، فوزنتهما بميزان الأمومة العادلة ، فكانت النتيجة التساوي في القيمة ، فلم ترجّح كفّة أحدهما على كفّة الآخر :

هما أخوا في الحرب من لا أخا له ... إذا خاف يوما نبوة فدعاهما

هما يلبسان المجد أحسن لبسة ... شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما

شهابان منا أوقدا ثم أخمدا ... وكان سناً للمدلجين [٤] سناهما

١- هي " عمرة الخثعمية ، من بني تيم اللات ، أو من بني تيم الله بن ثعلبة " . المرزباني : أشعار النساء ، ص١١٤ . وفي أعلام النساء : " شاعرة من شواعر الجاهلية " . ج٣ ، ص٣٥٠ .

٢- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٢ ــ ١٠٨٧ . وانظر : التبريزي : شرح ديوان الحماسة،ج١، ص٦٧٠ ــ ٦٧٢ . المرزباني : أشعار النساء ، ص١١٤ ــ ١١٥ . البصري : الحماسة البصرية ، ج٢ ، ص٦٦٥ ــ ٦٦٦ . وفي لسان العرب (أبي) نسبت القصيدة أيضا لدرنى بنت سيار بن ضبرة ترثي أخويها .

٣- وا بأباهما : " وا " تألم وتشكّ ، وهي حرف للندبة . و " بأباهما " : أرادت بأبي هما ، ففر من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ألفا . على ذلك قولهم : باداة وناصاة ، في بادية وناصية . المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٣ .

٤- المدلجين : تريد نارهما الموقدة للضيفان وللطراق بالليل . المصدر السابق ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا نزلا الأرض المخوف بها الردى يخفّض من جأشيهما منصلاهمـــا

إذا استغنيـــا حبَّ الجميع إليهمـــا ولم ينأ من نفع الصديق غناهمـــا

إذا افتقرا لم يجثما خشية الـــردى ولم يخش رزءا منهما مولياهمـــا

تظهر هنا ثنائية المناقب ،مرسومة برؤية الشاعرة لابنيها معا ، بـــألوان مـــشتركة ، تعطي صورتين متحركتين حركة واحدة ، باستخدام ألف التثنية ؛ فهما أخوا من لا أخـــا لـــه ، وهما يلبسان المجد ، وهما شهابان ، إذا نزلا ، وإذا استغنيا ، وإذا افتقرا . .

ثم تنتقل إلى الحديث عن الأثر الاجتماعي الذي يتركه موت ولديها وهو عنوس زوجة كلّ منهما ، " وكأنهما قد تزوجا بامرأتين ولم يحوّلاهما [١] " ، وفقدان الجندي المحـــامي عـــن قومه :

لقد ساءني أن عنّست زوجتاهمـــا وأن عُرّيت بعد الوجى [٢] فرساهما

ثم تختتـــم قصيدتها مصوّرة ولديها بالسيدين العظيمين وأنهما كانا في ذروة المجـــد ، وسُدّة الرياسة ، وأنهما احتلّا فيها المكانة العالية ، فهما عرشان تستظلّ بهما هي وغيرهـــا ، وبموتهما فقد تهاوى العرشان ، وسقط المجد ، وانحلّ العقد ، وهما من قوم خيار ، وهم خيار أولئك القوم ، وسقوط الأخيار سوف يودي بالعرش والمجد والسؤدد ، " وهذا مثل ضربته لعزّ ذويهما [٣] " :

١- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٧ .

٢- الوجى : الحفى . المصدر السابق ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٧ .

٣- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولن يلبث العرشان يستــلّ منهما خيار الأواسي [١] أن يميل غماهما [٢]

وتستفهم أم قيس الضَّبية [٣] متوجّعة من فقْد ابنها ، مستفظعة مما وقــع عليــه مــن موت ، كاشفة عن الفراغ الذي تركه المرثي ، فقد كان الحكيمَ الذي يفصل بــين الخــصــوم الجامحين عــن الصواب ، والفارس الذي يركــب الخيــل المعــدودة لمواقف الــشدة ، ثــم تصفــه بالبيان في مَجْمَع مشهود من أشــراف الناس ، يتكلم عــن نفسه ، وينــوب فيه عن الغائبيــن بلسان مبيــن ، وقلب ثابت ، " محافظة على الــشرف ، والاحتمــاء ، مــن عــار الهضيمة والعنت [٤] " [٥] ، تقول [٦] :

من للخصوم إذا جدّ الضجاج [٧] بهم بعــد ابن سعــد ومن للضمّر القُود

ومشهــد قــد كفيــتَ الغائبين بــه فيمجْمع من نواصي [٨] الناس مشهود

فرجــتــه بلســان غيــر ملتبــس عنــد الحفــاظ وقلــب غير مزؤود [٩]

١- الأواسي : الأساطين . المصدر السابق ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٧ .

٢- غماهما : سقف البيت . المصدر نفسه ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٧ .

٣- لم تذكــر لها المصادر ترجمة . وفي (شاعرات العرب) ، ص١٣١ ، عدها بشير يمــوت فــي القــسم الجاهلي . وأرجح أنها جاهلية لأسلوبها ، ولكون أبياتها جاءت مقطوعة في أربعة أبيــات شــأن أكثــر شــعر الشاعرات الجاهليات .

٤- العنت : الجور والإثم والأذى . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عنت) .

٥- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٦٠ .

٦- المصــدر السابــق ، مــج٢ ، ج٣ ، ص١٠٥٩ ــ ١٠٦٠ . وانظر : شرح ديوان الحماسة للتبريــزي ، ج١ ، ص٦٥٧ . ابــن طيفــور : بلاغات النساء ، ص٢٢١ ــ ٢٢٢ . لسان العرب (نــصا) ، تنــسب لأم قبيس الضبية .

٧- الضجاج : الصياح . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ضجج) .

٨- نواصي الناس : أشرافهم ، والمقدمين منهم . المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٦٠ .

٩- مزؤود : الزُّؤُد : الذعر . المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وترثي أم السليك [١] ابنها ؛ فتعبر عن حركته في الطواف طلبا للنجاة من الهلاك ، فإذا به يصاب من حيث أمن ، وتتمنى أن تعلم سبب قتله ، معبرة عن قلقها واضطرابها بأسلوب الاستفهام ، فتقول [٢] :

طاف يبغي نجوة [٣] من هلاك فهلك

ليت شعري ضلة [٤] أي شيء قتلك ؟

أمريض لم تعد ؟ أم عدو ختلك [٥] ؟

أم تولى بك ما غال في الدهر السلك [٦]

تستفهم على سجية أغلب الأمهات ، إذا غاب عنهن أولادهن ؛ فيدب في نفوسهن الخوف ، ويبدأن بالتساؤل المكرور ، وعرض الاحتمالات والتوقعات التي يمكن أن تعترض لأولادهن ،ثم تجزع جزعا شديدا ، متوقعة لابنها أسوأ الاحتمالات ، حداها إلى ذلك معرفتها بطبيعة الواقع الذي يعيشه ابنها وحدس الأم وشعورها ؛ فرجحت أن تكون المنايا هي التي

١- " السليك بن عمرو ، وقيل : بن عمير بن يثربي ، أحد بني مقاعس ، وهو الحارث بن.عمرو بن كعب ابن سعد بن زيد بن مناة بن تميم . والسلكة : أمه ، وهي أمة سوداء " . الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٠ ، ص٢٤٠ .

٢- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، ج١ ، ص٥٧٩ ــ ٥٨١ . وينسبها لأم تأبط شرا ولأم السليك ، ويرجح أنها لأم السليك ؛ لخبر طويل ساقه في ج١ ، ص٥٨١ .

وهي لأم السليك في : لباب الآداب ، ص١٨٣ . ونشوة الطرب ، ج١ ، ص٤٣٧ ــ ٤٣٨ . وهي لأم تأبط شرا في: الصاهل والشاحج ، ص٥٧٢ ــ ٥٧٣ . وهي لامرأة في: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، مج١ ، ج٢ ، ص٩١٤ ــ ٩١٨ . وهي لأعرابي يرثي أخاه في : العقد الفريد ، ج٣ ، ص٤٢٧ . وهي لبعض الشعراء في : عيون الأخبار ، مج٢ ، ج٣ ، ص٧٤ ــ ٧٥ .

٣- نجوة : النجوة والنجاة : ما ارتفع من الأرض . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نجا) .

٤- ضلة : الغيبوبة في خير أو شر . المصدر السابق ، مادة (ضلل) .

٥- ختلك : الختل : تخادع عن غفلة . المصدر نفسه ، مادة (ختل) .

٦- السلك : فرخ القطا ، وقيل : فرخ الحجل . المصدر نفسه ، مادة (سلك) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رصدت ابنها في طريقه ، ثم تصل الأم إلى ذروة اليأس ؛ فتنهار مقرّة أن ابنها ليس لها ؛ لعجزها عن دفع المنايا عنه :

و المنايا رصد للفتى حيث سلك

أي شيء حسن لفتى لم يك لك

ثم تصل إلى نتيجة مفادها أنّ كلّ الأسباب صغيرة أو كبيرة ستكون قاتلة إذا بلغ أجل الإنسان منتهاه :

كلّ شيء قاتل حين تلقى أجلك

طالما قد نلت في غير كدٍّ أملَك

ثم تستذكر العلاقة الحميمة المتبادلة التي كانت بينها وبينه ، حين كانت تسأل والابن يجيب في جوّ عاطفيّ ينعم بالمباسطة الكلاميّة ، غير أن أمرا عظيما هذه المرّة شغل الابن عمّا كان عادةً بين الأم وابنها ، فما ترى من سبيل إلاّ أنْ تعزّي نفسها :

إن أمرا فادحا عن جوابي شغلك

ساأعزّي النفس إذ لم تجب من سألك

ولكن هيهات الصبر لقلب الوالدة ، ولو إلى ساعة فهي لا تملك ذلك منها ، بل تتمنى أن يكون الموت قد أخذها مكان ابنها :

ليت قلبي ساعة صبرَه عنك ملَك

ليت نفسي قُدّمتْ للمنايا بَدَلَك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتكشف أم قِرْفة [١] في رثائها ابنها عن أنفتها من قبول الدِّيَة ؛ لأن عزتها تأبى لها ذلك ؛ فهي التي ضُرب بها المثل ، فقيل [٢] : " أعز من أم قرفة " ، وتخاطب حذيفة زوجها الذي همّ بأخذ الدية ، والرغبة عن الثأر لابنها ، داعية عليه ، ومعيِّرة له ، تقول [٣] :

حذيفة لا سلمت من الأعادي ... ولا وقيت شرّ النائبات

أيقتل قرفةً قيسٌ فترضى ... بأنعام ونوق سارحات

أما تخشى إذا قال الأعادي ... حذيفة قلبه قلب البنات

ثم تجعل حذيفة بين خيارين ؛ فإما أن يأخذ بثأرها من قاتل ابنها ، وإما أن يتركها في غمرة أحزانها ، تخوض فيها راجية أن يعاجلها الموت ، فذاك أحبّ إليها من العيش بجانب زوج جبان :

فخذ ثأرًا بأطراف العوالي ... وبالبيض الحداد المرهفات

وإلا خلِّني أبكي نهاري ... وليلي بالدموع الجاريات

فذاك أحبّ من بعل جبان ... تكون حياته أردا الحياة

١- " هي امرأة من بني فزارة ، وكانت تحت مالك بن حذيفة بن بدر ، وكان يعلق في بيتها خمسون سيفا ، لخمسين رجلا كلهم لها محرم " . العسكري ، أبو هلال ، الحسن بن عبدالله بن سهل ، (ت ٣٩٥هـ) : جمهرة الأمثال ، ط٢ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعبدالمجيد قطامش ، دار الجيل ، بيروت ــ لبنان ، د.ت ، ج٢ ، ص٦٦ . وانظر : الميداني : مجمع الأمثال ، ج٢ ، ص٤٥ .

٢- العسكري : جمهرة الأمثال ، ج٢ ، ص٦٦ . وانظر : الميداني : مجمع الأمثال ، ج٢ ، ص٤٥ .

٣- بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ط١ ، تحقيق : عبدالقادر محمد مايو ، دار القلم العربي ، حلب ــ سورية ، ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م ، ص٦٢ . وانظر : عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج٤ ، ص٥٦ ــ ٥٧ . عبدالبديع صقر : شاعرات العرب ، ص٣٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم تذكر طير الأراك والحمائم ، وكأنها تطلب منهما أن يقاسماها الحزن على ابنهـا ، غير أنها تؤكد أن حزنها أعمق من حزنهما وإن شاركاها ذلك :

تـرى طيـر الأراك ينـوح مثلي على أعلى الغصـون المائـلات

وهـل تجـد [١] الحمائم مثل وجدي إذا رُميـَتْ بسهـمٍ مِـن شتات

١- تجد : وجد الرجل في الحزن وجدا : حزن . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (وجد) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

رثاء الإخوان

يقــول الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيَّه موسى ــ عليه السلام ــ [١] : (سَنَشُدُّ عَـضُدَكَ بِأَخِيكَ) ، أي " سنقوّيك به ونُعينك [٢] " ؛ فالأخ مَضِنَّة القوة ، ومصدر العون يتوقّع منه إخوانه مقاسمتهم كلّ ما ينوبُهم من هموم ، أو يطرقهم من بلاء ، كما قاسمهم في دمــائهم نــسباً ، وفي صباهم رعاية وتربية ومعيشة ، حتى في ذكريات الصِّبا ، ومدارج الــشباب ؛ فتتحقّــق القوة ، وتتأكّد العزيمة ، ويصدُق التحدّي أمام المِحن والعوادي ، وبموت الأخ ؛ يضعف الصف ، وتخور العزيمة ؛ لهذا تتعالى صرخات الشاعرة الجاهلية ، وهي ترثي أخاها بأصوات متواترة ، وآهات متوالية ، فها هي رائِطَة [٣] بنت شَيْظَم تتحسّر على مقتل أخويها الــسيدين المحــاميين عن الأعراض ، وتحزن على فراق كلّ ما عهدته منهمــا ؛ من مكارم أخلاق ، ونجْدة وبأس ، وحِذْق ورباطة جأش ، تقول [٤] :

لهفــي على الأخويــنِ كالأسديــــنِ مسعــودٍ وحــــاتــــمْ

١- سورة القصص ، الآية ٣٥ .

٢- الزمخشري ، أبو القاسم ، جار الله ، محمود بن عمر ، (ت٥٣٨ هـ) : الكشــاف ، د.ط ، دار الفكــر ، دمشق ــ سورية ، د.ت ، ج٣ ، ص١٧٦ .

٣- لم أعثر لها على ترجمة ، وأرجح أن تكون جاهلية بسبب أن أسلوبها يشبه أسلوب شعر النساء الجاهليــات ، وتتفق مقطوعتها مع جلّ ما أُثر من شعر النساء الجاهليات . ولا يعرف عن الشاعرة شيء ســوى مــا ذكــره صاحب كتاب المنازل والديار عن مناسبة القصيدة ؛ " عن خِداش بن فراس النميري ، قال : أغارت علينا بنــو جُشَم بن بكر بظهر البِشْر ، فأصابوا منا أخوين فارسين سيدين ، يقال لأحدهما : مسعود ، وللآخر حاتم ، ابنــا شيظــم ، وكانت لهما أخــت سيدة بَــرْزَة ، يقال لها : رائــطة بنت شيــظم ، فبكتهما ، ورثتهــما طــويلا " . ابن منقــذ ، (ت ٥٨٤ هـ) : المنــازل والديــار ، ط٢ ، تحقيــق : مصطفــى حجــازي ، دار سعــاد الصبــاح ، القاهــرة ــ مصر ، ١٤١٢ هـ ــ ١٩٩٢م ، ص٤٤٨ .

٤- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٨ ــ ٤٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السيديـــنِ المانعيـنِ الذائديـــنِ عـنِ الـمـــحـــارمْ

الفاتقيـــنِ الراتقيـنِ السابقيـــنِ إلى الـمـــكـــارمْ

الضاربيـنِ جماجـمَ الأبـطـــالِ بالبـيـضِ الـصـوارمْ

والطاعنيـنِ بكـــلّ مـارنـــةٍ وقـاصـمـــةٍ وقـاصـمْ

حـدَقَ الفـوارسِ بالأسـنـــةِ والقلوبُ لدى الغلاصمْ [1]

ويذكرنا قولها " والقلوب لدى الغلاصم " بما نزل به القرآن العظيم في قوله تعالى [2] :

((... وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ...)) .

ثم تصل إلى بيان خسارتها الفادحة ؛ فتشبّه أخويها بيديها ؛ رمزي القوة والبطش ، فيصيبها الشلل إصابة كاملة ، تشمل الساعدين والمعصمين معا ، ثم تصوّر حالها أكثر ضعفا ؛ فتشبّه نفسها بالطير المقصّص ريشُه :

كـانـا يـديّ فـشـلّـتـا بالساعديـــن وبالمعاصـــمْ

فبقيـتُ كالـطـيـرِ المقـصّـــص ريـشُـهُ واهـــي الـقـــوادِمْ

وناهيك بكلمة " فبقيت " ؛ تعبيرا عن الانتقال من حالة عابرة إلى حالة باقية ملازمـة للشاعرة ، تعاني فيها نتائج فقْد أخويها :

لا أستـطـيـــعُ ، ولا أطـيـــقُ أردُّ عنـي كـــفَّ ظـالـــمْ

مـــعْ كـلِّ رنَّـةِ مَـأتَـمٍ لـي مأتـمٌ وعلـيَّ ماتـمْ

١- الغلاصم : الغلصمة : رأس الحلقوم ، والجميع : الغلاصم . الخليل الفراهيدي : العين ، مادة (غلصم) .

٢- سورة الأحزاب ، الآية ١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فـالـيـومَ أخـضـعُ لـلـذلـيـلِ وللمحـاربِ والمسـالـمْ

فلا ناصر لها من ظالمها ، لها مأتم دائم الحزن ، وعليها واجب القيام به ، ثم عليها أن تكون خاضعة مسالمة ؛ تحاشيا للشرّ ، فقد بان عنها العضد ، وعزّ عليها السند ، اللذان لا تجامل أحدا أراد بها سوءا في وجودهما .

ونستقري من أبيات صَفِيَّة [١] الباهليَّة راثية أخاها وصفا لواقع الأخوة داخل الأسرة ، وتأثير موت أحدهم على الأخت الراثية ، وجميع أهل البيت أو العشيرة ؛ فتشبّه الشاعرة ذلك الحال بغصنين نبتا وشبّا من شجرة واحدة ، حتى جاء موعد نضج الثمار ، فاعترض الموت أحدهما ، فحال بينه وبين ما يُرجى وينتظر منه ؛ تقول [٢] :

كنا كغصنينِ في جُرثُومةٍ [٣] سمَوا ... حيناً بأحسنَ ما تسمُو له الشجرُ

حتّى إذا قِيلَ قد طالتْ فروعُهما ... وطابَ قِنواهما واستُنْظِرَ الثمرُ

أخْنى [٤] على واحدي ريْبُ الزمانِ ولا ... يُبقي الزمانُ على شيءٍ ولا يَذَرُ

١- في المصادر التي سيتبع ذكرها في توثيق الأبيات لم تزد على اسمها ؛ صفية الباهلية ، وهي " شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية " عند عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج٢ ، ص٣٣٧ .

٢- ابن قتيبة : عيون الأخبار ، مج٢ ، ج٣ ، ص٧٥ . وانظر : العسكري : المصون في الأدب ، ص١٥٣ . وله أيضا : ديوان المعاني ، ص١٧ . المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، مج١ ، ج٢ ، ص٩٤٨ ــ ٩٤٩ . التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج٢ ، ص٦٠١ ــ ٦٠٢ . البصري : الحماسة البصرية ، ج٢ ، ص٦٦٧ . الأندلسي : نشوة الطرب ، ج٢ ، ص٥٨٦ . ينسب البيت الأخير للخنساء : ديوانها ، ص٧٤ . والأبيات لطيبة الباهلية عند البحتري : الحماسة ، ص٢٧٣ . وهي لأعرابية ترثي زوجها عند ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٣ ، ص٢٧٧ .

٣- جرثومة : الأصل . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جرثم) .

٤- أخنى : أخنى عليه الدهر إذا مال عليه وأهلكه . المصدر السابق ، مادة (خنا) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحتمل أن يكون أخوها المتوفّى توأما ، أو أخا شقيقا لها ، ليس لها أخ سواه كما يُفهم من قولهـا " أخنى على واحدي " ؛ ممّا يضاعف عليها الحسرة ، ويزيد عليها الغُمّة ، كمـا يُحتمـل أن يكـون المتوفى آخرَ مـَن كـان لها مـن عائلتها ، وبوفاته أمست وحيدة منبتّة عن الأهل .

كان ذلك تأثير موت أخيها على العائلة . فما تأثير موته على العشيرة ؟ تـأثير ذلـك كتأثير غياب القمر ليلةَ الحاجة الملحّة إليه ، كنايةً عن تفرُّده في جلال قدره ، ورفيع منزلتـه بين قومه ، وحاجتهم الخاصّة إليه وحدَه في عظائم الأمور :

كنـّا كأنجـُمِ ليـلٍ وسطَنا قمـرٌ يجلو الدُّجَى فهوى مِن بينِنا القمـرُ

وتؤثر الشاعرة في مرثيتها أن تقدم لنا صورة مرثيها في حلة موشـاة بالتـشبيهات والرمزية ، نازعة عن الصورة التقليدية التي تتخذ من تعداد المناقب سمتا مباشرا في رثـاء الميت ؛ لكنها ها هنا لم تنبس ببنت شفة كالسيد والبطل ، والكريم والشجـاع ؛ بـل شـبهته بالغصن تـارة ، وبالقمـر تـارة أخـرى ، ورمزت إلى سمـوه بالـشجـر ، وعطائـه بعـذق النخلـة ، وهـذا من الكلام البليغ الجامع لجميل المعاني .

والأمرَ نفسَه تفعل العوراء [١] بنت سُبيع في رثاء أخيها ؛ عبد الله ؛ تقول [٢] :

١- في المصادر التـي سيتبـع ذكرهـا في توثيـق الأبيـات لم تزد على اسمها ؛ العـوراء بنـت سـبيع ، وهـي " شاعـرة من شواعر العرب في الجاهلية " عند عبد البديع صقر : شاعرات العرب ، ص٢٨٥ . عبـد مهنأ : معجم النساء الشاعرات ، ص١٩٧ .

٢- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١٠٥ ــ ١١٠٦ . وانظر : التبريـزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٦٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبـكـي لـعـبـدِ الـلّـهِ إذْ حُشّتْ [١] قبيل الصبحِ نارُهْ

طـيّـان [٢] طـاوي الكشْـح [٣] لا يُرخـى لـمُـظـلـمـةٍ [٤] إزارُهْ

يـعـصـي الـبـخـيـلَ إذا أرا د المـجـدَ مخلـوعـا عِـذاره [٥]

وإذا نظـر إلى هذه الأبيات نظـرة معجمية بحتـة ، فإنها ستقدم لنا صـورة هزيلـة للمرثي ؛ فنراه شخصا جائعا ضامـرا حريصا على ثوبه ، خالعا ربقـة الطاعة ، وهذا مـا لا يتفق مع المقام تماما ، ولكن إذا أمعن النظر في البنية العميقة لدلالة ألفاظ هذه الأبيات قُضِيَتْ اللباتة منها على نحو واضح ؛ فعلمنا أن المرثي هنا هو بطل هذا الموقف ، ولا يليق به إلا أن تفسّر الأبيات بما يقترن بها من معـانٍ ببطولتـه ؛ فقولهـا : " حُشّـتْ قُبيـل الـصبـحِ نارُهْ " ، أي " أنه قتل قبيل الصبح [٦] " ، وعرفنا أنها تريد بقولها : " طيان طاوي الكـشح " أن مرثيها " يمضي في الأمور لوجهه لا يعرج على شيء ولا ينثنـي [٧] " ؛ أي أنه ذو عزمـة وتصميم ، لا يتردّد إذا أقبـل على أمرٍ من الأمور ، أما قولها : " لا يُرخى لمظلمةٍ إزارُه " أي أنه عفيف لا يطلب البغايـا [٨] .

١- حشت : " ضم ما تفرق من الحطب إليها وأوقدت " . المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١٠٦ .

٢- طيان : الجائع . التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج٢ ، ص٦٨٥ .

٣- طاوي الكشح : أي مضمر ؛ ليس بضخم الجنبين . المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٨٥ .

٤- مظلمة : المرأة التي أظلم عليها الليل . المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٦٨٥ .

٥- عـذاره : عذار الرجـل : شعـره النابت في موضع العذار . يقال : ما أحسن عذاره أي خـط لحيتـه ، ومنه قولهم : خلع عذاره أي خرج عن الطاعة وانهمك في الغي . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عذر) .

٦- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٦٨٥ .

٧- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١٠٦ .

٨- انظر : التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٦٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتختم مرثيتها بإلباسه صفة الكرم ، وكأنها تريد بذلك أن تقول عنه إنه جمـاع كـل صفات الخير ؛ فتلبسه إياها من حيث تخلع عنه طاعته للبخيل .

ويتكرر هذا النمط عند أم الصريح الكندية [١] راثية إخوتها ؛ فتصفهم بالثبات في ميدان المعركة ، والإقـدام على مقارعـة الأبطـال ، والصبر على الموت ، دون أن تستخدم ألفاظا تدل دلالة

مباشرة على ما قصدتْ من معان ، تقول [٢] :

أبوا أن يفرّوا ، والقنا في نحورِهم فماتوا ، وأطرافُ القنا تقطـر الدما

ولو أن سائـلا سألها عنهم لكان محتملا أن يجـري الحوار بينهما كالتـالي : مـا موقفهم في المعـركـة ؟ " أبوا أن يفروا " ، وكيف واجهوا رماح المعركة ؟ كانـت " القنـا في نحورهـم " ، ومـا النتيجـة ؟ " فماتـوا " ، علـى أي حـال ؟ " وأطراف القنـا تقطـر الدما " ؛ أي قتلوا أثناء المعركة ، والدم ساخن سيّال ، ليس قبلها خائفين منهـا ، ولا بعـدها هاربين عنها ، ولماذا لم يحاولوا الفرار ، وقد أمكنتهم الفرصـة بعـدما " أسـلموا وخـذلوا ، وأحسنوا البلاء ، ولو فروا يوما نسبوا إلى حسن الرأي ، لا إلى قبح الفرار [٣] " ؟ تجيب :

ولـو أنهـم فروا لكانـوا أعـزة ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

١- هي " أم الصريح بنت أوس الكندية من شواعر حضر موت ، ولدت حوالي ٣٠ قبل الميلاد النبـوي " . عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج٢ ، ص٣٥٢ .

٢- المبرد: التعازي والمراثي ، ص٢٦ و ١٦٤. وانظر : المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج١ ، ج٢ ، ص٩٣٣ ــ ٩٣٤ . التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٩٣ ــ ٥٩٤ . ابن منقـذ : المنـازل والديار ، ص٤٦٩ ــ ٤٧٠ . والأبيات " للكندية " عند ابن منظور : لسان العرب ، مادة(نيب).وهي لأم الصريع الكندية عند الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٤ ــ ١٠٥ .

٣- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي أنهم " وجدوا الصبر على الموت ، والاستقتال بعد اللقاء أكرم في الأحدوثة ، وأنفى للعار والمذمة [١] " ، ولو أن السائل حينذاك همس إليها سائلا : وما تأثير موتهم عليك ؟ لجهرت قائلة :

هوت أمهم ! ماذا بهم يوم صرّعوا بجيشان [٢] من أسباب مجدٍ تصرّما

أي أن أمهم بموتهم هلكت ، وانصرم المجد الذي كانت ترجوه منهم [3] .

ويلاحظ أنها استخدمت لفظ " أمهم " بدلا من أختهم ؛ تعبيرا عن المحبّة التي تكنّها الأخت لإخوانها ؛ إذ إن درجة حبّ الأم لأبنائها أسمى من درجة حبّ الأخت لإخوانها ؛ من أجل هذا آثرت الشاعرة استخدام كلمة " أمهم " على كلمة أختهم للتعبير عن هذه الرتبة من المحبة ، وهذا التصرف يشي كذلك بأن أمهم لم تعد حينذاك موجودة على قيد الحياة ، وإلا لما تجرأت البنت على استخدام لفظٍ لا يجدر لها استخدامه في حياة أمها .

ونقف عند فاطمة بنت [٤] الأجْحَم على أبيات فريدة في رثاء الإخوة ؛ فقد " كان لها إخوة سبعة ، فاطّلعتْ في بئر ، فسقطتْ لها مِدْرى [5] من فضة ، فنزل أحدهم يخرجها ،

١- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج١ ، ج٢ ، ص٩٣٤ .

٢- جيشان : مخلاف جيشان باليمن . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٤ ، ومج٤ ، ج٧ ، ص٢١٧ .

٣- انظر : التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٩٣ .

٤- هي " فاطمة بنت الأجحم بن دندنة الخزاعي ، زوج خالدة بنت هاشم بن عبد المطلب ، وكان أجحم هذا من سادات العرب ". التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٧ . وعند الاندلسي في نشوة الطرب ، هي " فاطمة بنت الأحجم الخزرجية ، من بني النجار ، شاعرة جاهلية " ، ج١ ، ص١٩٧ .

٥- مدرى : المدرى والمدراة : شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه ، يسرّح به الشعَر المتلبد ويستعمله من لم يكن له مشط . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (درى) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأسن [١] فمات ، وما زال ذلك دأبهم واحدا بعد واحد إلى أن هلك السبعة [٢] " ؛ فيعظم عليها المصاب ؛ تقول [٣] :

إخوتي لا تبعدوا أبدا ... وبلى والله قد بعدوا

لو تملتهم [٤]عشيرتهم ... لاقتناء العز أو ولدوا

هان من بعض الرزية أو ... هان من بعض الذي أجد

كل ما حي وإن أمروا [٥] ... واردو الحوض الذي وردوا

يصلها خبر إخوانها الذين ماتوا في إدراك حاجتها ؛ فيهولها وتصرخ منادية لهم : " إخوتي " ، وتدفعها الحسرة والذهول إلى نهيهم عن الموت : " لا تبعدوا أبدا " ، طمعا في خلودهم من فرط حبها إياهم، وكأنها فقدتْ الوعي بالحقيقة التي لا مناص منها ؛ وهي أن الموت لا كذب في خبره ، ثم تقسم وتحقق خبر موتهم ؛ لتعيد إلى نفسها ما كادت تفقده من توازن للنفس ، وإدراك لواقع الحال الذي آل إليه إخوانها من الموت الجماعي ، ولم يمهلهم وقتا لاكتساب العزّ ، أو تعقيب النسل ليكون سلوة لها في مصيبتها ، ثم تصدر حكمها على الحدث المفجع ؛ فترى الأحياء وإن كثروا واردين موارد الموت جميعا ، وكأنها تقول عن نفسها : إني

١- أسن : أخذه دوار ،وهو الغشي ، ولهذا قيل للرجل إذا دخل بئرا فاشتدت عليه ريحها حتى يصيبه دوار فيسقط : قد أسن . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أسن) .

٢- الأندلسي : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ج١ ، ص١٩٨ .

٣- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٨ ــ ٥٧٩ . وانظر : الأندلسي : نشوة الطرب ، ج١ ، ص١٩٨ .

جاء في شرح المرزوقي لديوان حماسة أبي تمام " وقال آخر " ، مج١ ، ج٢ ، ص٩١٢ .

٤- لو تملتهم : لو عاشوا معهم مليا من الدهر أي طويلا . التبريزي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٩ .

٥- أمروا : كثروا . المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج١ ، ج٢ ، ص٩١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حيــة ميتــة لاحقــة بهــم حتما ولكن بعـد حيــن ، وتتــفق في هذا المعنى مع ما يقولــه قُسُّ [١] بن ساعدة [٢] :

لـــمّـــا رأيـــت مـــواردا ... للمــوت ليــس لهــا مصــادر

ورأيـــت قــومــي نــحــوهــا ... يمضـــي الأصاغــر والأكابــر

أيــقــنـــتُ أنـــي لا مــحـــا ... لة حيث صــار القــوم صائــر

أما أخت حاجز [٣] الأزدي فيذهب بها الحزن على فقد أخيهــا مــذهبا يجعلهــا متــرددة متشككة ، لا تقوى على تحديد مصيره ؛ أحيٌّ هو أم ليس حيا ؟ تقول [٤] :

أحــيٌّ حاجــز أم ليــس حيــا ... فيسلكَ بيــن جَنْــدَفَ والبهيمِ [٥]

ويشرَب شَربةً من ماء تَرْجٍ [٦] ... فيصــدرَ مِشيــة السبُــعِ الكليمِ

تأمل أن يكون باقيا على ما كان عليه من عادةٍ في سالف عهده ، سالكا طريقه بــين جبلي " جَندف والبهيم " ، شاربا من ماء ترْج ، ماشيا مشية السبع الكليم ؛ لأنه إذا جرح حمي أنفه [٧] ؛ فصار إلى حالة من الهيجان والغضب ، فيُتقى جانبُهُ حينذاك ويُخشى .

١- هو قس بن ساعدة بن عمرو ، وقيل مكان عمرو شِمر بن عدي بن مالك بن أيدعان بن النمر بن واثلة مــن إيــاد ، خطيب العــرب وشاعرهــا وحليمهــا وحكيمهــا في عصــره . الأصــفهاني : الأغــاني ، ج١٥ ، ص١٦٤ .

٢- المصدر السابق ، ج١٥ ، ص١٦٤ .

٣- هي أخت " حاجز بن عوف بن الحارث بن الأختم بن عبد الله بن ذهل بن مالك بن سلامان بن مفرج بــن مالك ابــن زهران بن عوف ميدعان بن مالك بن نصر بن الأزد ، وهو شاعر جاهلي مقل ، ليس من مشهوري الشعــراء ، وهو أحــد الصعاليك المغيريــن على قبائــل العــرب ، وممــن كــان يعدو على رجليه عــدوا يسبق الخيل " . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج١٣ ، ص١٤٧ و ١٥١ .

٤- المصدر السابق ، ج١٣ ، ص١٥١ .

٥- جندف والبهيم : جبلان باليمن في ديار خثعم . الحموي ياقوت : معجــم البلــدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص٨١ .

٦- ترج : واد بين جندف والبهيم . المصدر السابق ، مج٢ ، ج٣ ، ص٨١ .

٧- انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (كلم) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد فضّلتِ الشاعرة استخدام لفظ " السبع " على سواه من الألفاظ ؛ لتدلّ على أن أخاها يملك سائر صفات ذات الناب من الضواري كالشجاعة والإقدام والبسالة وغيرها ، وأن كلّ سبُع يمكن أن " يعدوَ على الناس والدواب فيفترسها [١] " .

وفي رثاء ابنة ضِرار الضبية [٢] أخاها يُلحظ أنها تُصدم بموته ؛ فتتوجع ويعلو صوتها متحسرة لفقده، وتتمنى بقاءه، مستخدمة ألفاظ المني والرجاء ؛ تقول [٣] :

لا تبعدنَّ ، وكلُّ شيءٍ ذاهبٌ زَيْنَ المجالسِ والنَّدِيِّ [٤] قَبِيصا

تريد ذلك منه ضنّاً بالسند المعاون ، ثم تُعقبه بالتسلي مؤمنة ومعزية نفسها بفناء كلّ شيء ، ثم تناديه بـ " زين المجالس والندي " ؛ لأن المجالس هي محكُّ الرجال ، تتجلى فيها معاملاتهم وسلوكهم مع بني جلدتهم ؛ فيحكم فيها لهم أو عليهم ، ثم هاهي ترخِّم اسم أخيها" قبيصا " تعبيرا عن الضعف [٥] ، الذي انتهت إليه ، فخنقتها الحسرة ، فلم تعدْ قادرة على النطق باسمه كاملا ، ثم تستجمع عزيمتها وتلتقط أنفاسها ؛ فتعمد إلى مدح أجمل صفة فيه :

يطوي إذا ما الشحُّ أبْهِمَ [٦] قفله بطناً من الزادِ الخبيثِ خميصا [٧]

١- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (سبع) .

٢- هي ابنة ضرار ، أخوها قبيصة بن ضرار ، أحد فرسان ضبة ، كان قد شهد الكلاب الثاني حين اجتمعت مذحج لقتال تميم ، فهزمتهم تميم وقتلوا قائدهم عبد يغوث بن صلاءة . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج١٦ ، ص٢٢٧ . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص٢٢٨ ــ ٢٣١ .

٣- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٥٣ ــ ١٠٥٤ . وانظر : التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ينسبها لمية بنت ضرار ، ج١ ، ص٦٥٤ ــ ٦٥٥ .

٤- الندي : نادي الحي . المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٥٤

٥- انظر : فاضل صالح السامرائي : معاني النحو ، ج٤ ، ص٢٨٦ .

٦- أبهم : إبهامه : أن يجعل على وجه لا يدرى كيف يفتح . المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٥٤ .

٧- خميصا : ضامر البطن . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (خمص) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا تقــرب الكَلِــمُ العُــورانُ مجلسَه ولا يــذوق طعاما وهــو مستــور

تذكر أن له مجلسا ، كناية عن اجتماع قومه إليه ؛ لسيادته وإمارته عليهم ، وأنه بلغ من سداد الرأي ما جعله عفّا عن الكلام القبيح ؛ فأوجد له الهيبة بين قومــه ؛ فــلا يجــرؤ أحــد منهم أن يزلّ بكلمة في مجلسه ، وقد أجادت وصف الكلام القبيح بلفظ " العوران " جمع أعور[١] ؛ لعدم إبصاره جادّة الصواب في الخطاب المهذّب .

وفي مقطوعة منسوبة لمَيَّةَ بنت ضِرار الضبية تتناول وصفا أوفــرَ لشخــصية هــذا المرثي نفسه ؛ فتعدّد صفاتِه : كريما ، كافي العشيرة ، مقداما ، وتُبيّن الأثر الذي يتركه موته على قومه ؛ إذ يصيرون عُرضة للحوادث وذلّها ؛ تقول[٢] :

لــتجــرِ الحــوادثُ بعــد امــرئٍ بــوادي أشــانــيــن[٣] إذلالَــهــا

كــــريــم ثــــنــــاه و آلاؤه وكافــي العشيــرة مــا غالــهــا

تــراه على الخــيــل ذا قُــدْمــةٍ إذا ســربــل الــدم أكــفــالــهــا

وخلــت وعــولا أشــارى[٤] بهــا وقــد أزهــف[٥] الطعــن أبطالهــا

ولــم يمنــع الحــي رثّ القــوى ولــم تخــف حسنــاء خلخالــهــا

١- عوران . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عور) .

٢- المصدر نفسه ، مادتا (زهف) و (أشر) .

٣- وادي أشائين : لم أعثر له على وصف .

٤- أشارى : جمع أشران من الأشر ، وهو البطر . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أشر) .

٥- أزهف : أزهفتْه الطعنة وازهفتْه أي هجمت به على الموت . المصدر السابق ، مادة (زهف) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقدم لنا الراثية وصفا لحركة أخيها داخل ميدان المعركة ؛ فتقدمه لنا فارسا يقدُم قومه مكرًا على عدوّه إذا قمّص الدم أكفال الخيل ، وهجم الطعن على الأبطال ، وعـزّت المَنَعـة ، وأخرج الخـوف الحسناء مـن خبائها ؛ فطلبـت ملجأ تلجأ إليـه ، أو كهفا تأويه ؛ صـيانة لعرضها .

ومـن الشواعـر من تلتفت إلى التحسر على سرعة نفاد عمر المرثي ، نجد ذلك عند الخِرْنِق [١] بنت بدْر ، وكانت " أختَ طرَفة بن العبْد [٢] " ، تقول [٣] :

عددنا له ستـا وعشريـن حِجّـة ... فلما توفاها استوى سيـدا ضخمـا

فجعنـا بـه لمـا رجونـا إيابـه ... علـى خير حال لا وليدا ولا قحما [٤]

تعايش أخاها يوما بيوم ، وشهرا بشهر ، وسنة بسنة مع أفراد أسرتها فتعبّر عـنهم جميعـا " عددنـا " ، وكم عدّتْ له من السنين ؟ عدّت له ستا وعشرين حجة تامة ، حينـذاك بلغ مرحلة النضج ؛ فاستوى سيدا غليظا ، عظيم الجِرْم [٥] ، يزور أبواب الملوك ، ثـم يـزلّ لسانه في بلاط عمـرِو بن هنْد ملك الحِيرة ؛ فيأمر بقتله ، فتفجع أسرته بفاجعتين : قتلـه ،

١- " هي الخرنق بنت بدر بن هفان بن تيم بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي ، وزوجها بشر بـن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة " . البكري ، أبو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيـز ابـن محمد ، (ت٤٨٧هـ) : سمـط اللآلـئ ، ط١ ، تحقيق : عبد العزيز الميمني ، دار الكتـب العلميـة ، بيروت ــ لبنان ، ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م ، ج٢ ، ص٧٨٠ .

٢- المرزباني : أشعار النساء ، ص١٠٩ .

٣- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ط٢ ، تحقيق : حسين نصار ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ــ مصر ، ١٩٩٦م ، ص١٩ ــ ٢٠ . وانـظـر : الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، د.ط ، تحقيق وشـرح : يسري عبد الغني عبدالله ، ص١٥ . وانظر : طرفة بن العبد : ديوانه ، تقديم وشرح وتعليق : محمـد محمـود ، ص١٣ .

٤- قحما : القحم : الكبير المسن . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قحم) .

٥- انظر : المصدر السابق ، مادة (ضخم) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغضب الملك عليه الذي قد يجاوزه ليشمل آل طرفة جميعا [١] وهذا على غير ما كانت تأمله من عودته على خير حال ، في ربيع الشباب .

وتقع أم عمرو بن مَكدَّم [٢] في سَبي بني سليم يوم الفَيفا [٣] ، وترى النساء باكياتٍ على من قُتل من أهلهن يومئذ [٤] ؛ فيلهبن جمر حزنها على مقتل أخيها ربيعة بن مكدّم ، تقول [٥] :

هلا على الفيّاض [٦] عمرِو بن مالك [٧] تبكّين أو تبكْين وابن مكدّم

فتى هو خير من أخيكن مالك [٨] إذا احمر أطراف الرماح من الدم

وشبّت حروب بينكم وتقصّفت عوالٍ بأيدي شَجْعة غيرِ لوّم

تخاطب الباكيات وقد أشعلن فيها ذكرى مقتل عزيزين لها ؛ أحدهما عمرو بن مالك والآخر هو أخوها ابن مكدم ؛ فتحضهن على بكائهما ، ثم تفاضلهن بأخيها حالة كونه في ميدان القتال ، مفاضلة من رأت ذهبها خيرا من ذهب غيرها ؛ بعدما نقدت صنعته فوجدته

١- انظر : الميداني : مجمع الأمثال ، ج١ ، ٣٩٩ ــ ٤٠٠ .

٢- هي أم عمرو بن مكدم بن عامر بن حرثان بن علقمة بن جذل ، أحد فرسان مضر المعدودين ، قتله نبيشة بن حبيب السلمي في يوم الكديد . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٣١٧ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١٦ ، ص٤٠ .

٣- يوم الفيفا : لبني سليم على بني كنانة .انظر: أبا عبيدة: أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٣١٥ ــ ٣١٨ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١٦ ، ص٤٠ ــ ٥٤ . الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص١٢٧ . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص١٧٦ ــ ١٧٧ .

٤- انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٣١٧ .

٥- المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣١٧ . وانظر : الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص١٣١ .

٦- الفياض : كثير المعروف . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (فيض) .

٧- عمرو بن مالك من بني فراس بن مالك ، قتله بنو سليم يوم الفيفا .انظر: أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٣١٥ .

٨- هو " مالك بن خالد بن صخر بن الشريد ، واسم الشريد عمرو ، وكانت بنو سليم قد توجوه ملكا وأمروه عليهم " . أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٣١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نقي الجوهر ، تفاضل بأخيها ؛ لأنه حِمى عزتها ، فلولاه لما وقعت في ذلّ السبي ؛ لذلك رأت الفرصة مواتية أن تستشيط غضب الباكيات ، لتبقي لها شيئا من عزتها لا يمكن للأسار أن يحكم حَلَقَه عليها ، كما لا يمكن منعها من هِراقة الدمع عليه ، بعد ما ترك لها إرثا ، ليس مالا فتنعم برخائه ، ولا سلطة فتشرف بسلطانها ، ولكنه أورثها حزنا باقيا ، تقول [١] :

أبكي على هالك أودى وأورثني ... بعد التفرّق حزنا بعدَه باقِ

لو كان يُرجع ميْتا وجدُ ذي رحِمٍ ... أبقى أخي سالما وجدي وإشفاقي

أو كان يُفدى لكان الأهل كلهم ... وما أثمّر من مال له واق

لكن سهام المنايا من نصبن له ... لم ينجه طبّ ذي طبٍّ ولا راق

وتساوم الموت ، من أجل أن يُرجع أخاها إلى الحياة ، فتقدّم له عرضين ، كلاهما غاية في استجداء السلامة منه ، هما وجدها وإشفاقها ، ثم تُخيّره في عرض آخر بين اختيار ما سبق عرضه عليه،وبين فدائها أخاها بأهلها ومالها ، لكنّ الموت لا يقدر على إيقاف سهامه ، فمهما كان العرض مغريا ، أو الطب حاذقا ، هنا تيأس من رجوعه ، وتؤمن بالقضاء ، قائمة بما عليها من واجب البكاء :

فاذهب فلا يبعدنك الله من رجل ... لاقى الذي كلّ حيٍّ مثله لاق

فسوف أبكيك ما ناحت مطوقة ... وما سريت مع الساري على ساق

أبكي لذكرته عبرى مفجعة ... ما إن يجفّ لها من ذكره آقي [٢]

١- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٣٠٧ .

٢- آقي: لا معنى لها يوافق سياق معنى البيت ؛ تصحيف والتصويب : " ماقي " عن ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحاول الخنساء [١] بنت أبي سلمى أن تدفع الموت عن أخيها زهير ؛ فتعمد إلى عقد التمائم ، وتعليق ما يدفع العين عنه ، كاشفة لنا عن معتقد من معتقدات الجاهلية ، كان يزعم أصحابها أنها تدفع عنهم البلايا ، فإذا بواقع الأمر يكذّب ذلك الزّعم ، تقول [٢] :

وما يغني توقي الموت شيئا ولا عقد التميم ولا الغضار [٣]

إذا لاقى منيته فأمسى يساق به وقد حقّ الحذار

ولاقاه من الأيام يوم كما من قبلُ لم يخلد قُدار [٤]

وتكشف لنا أيضا عن بعض ثقافتها بالتاريخ وقصص العرب ؛ لمعرفتها بـ " قدار " ؛ فقد تأكد لها من تواتر أخباره أنه قد مُدَّ له في عمره غير أنه لم يخلد فمات ، فضربت به مثلا في حتميّة موت الإنسان ، وإنْ عُمِّر في الحياة طويلا .

ويتعاظم الغضب في صدر الفارعة [٥] القُشيريّة على من أسلموا أخاها للقتل يوم النِّسار [٦] ولم يكونوا معه صفّا منيعا ضدّ أعدائه ، فتدعو الله أن يشفي نفسها منهم ؛

١- هي الخنساء بنت أبي سلمى ، واسم أبي سلمى ربيعة بن رياح ، أخت زهير بن أبي سلمى ، وكانت شاعرة هي وإخوتها وأهل بيتها . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج١٠ ، ص٢٢٦ و ٢٤٤ . الآمدي : المؤتلف والمختلف ، ص١٥٧ .

٢- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٠ ، ص٢٤٤ . وانظر : الآمدي : المؤتلف والمختلف ، ص١٥٧ ، قالت : " ترثي أباها " . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (غضر) دون نسبة .

٣- الغضار : خزف أخضر يعلق على الإنسان يقي من العين . المصدر السابق ، مادة (غضر) .

٤- قدار : هو " قدار بن سالف الذي يقال له : أحمر ثمود عاقر ناقة صالح عليه السلام " . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قدر) .

٥- هي الفارعة بنت معاوية ، يعود نسبها إلى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٥٤٠ . ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٢٤ . المرزباني : أشعار النساء ، ص٦٤ ــ ٦٧ .

٦- يوم النسار : يوم لبني أسد وطيء وغطفان وضبة وعدي على بني عامر . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٥٢٧ ــ ٥٤٢ . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص٢٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليكون عقابهم مـن اللـه أعظـم من كـلّ عقـاب ، معتقدة وجود الله ، ربّاً عادلا منـصفا ؛ تقول [١] :

شفى اللـه نفسـيَ مـن معشـرٍ أضاعوا قُدامة [٢] يـوم النسـار

ثم تصفه برباطة الجأش ، لعلمها أنه ثبَتَ في ميدان المعركة في الوقت الذي فرّ عنـه أحلافه ، وتصفه أيضا بصفتين أخريين هما كرمه ، وعمق نِكايته بعدوّه :

أضاعـوا بـه غيـرَ رِعديـدة [٣] كريـم الصبـاح بعـيـد المـزار

تضيف كرمه إلى الصباح ، كناية عن عدم حرصه على المال ، ومسارعته إلى إكـرام ضيوفه بعاجل القرى ، صباحا دون ادّخار للمساء ، وكذلك هو إذا أغار على قوم أوغل فيهم ، متمكنا من نفسه في إدراك بغيته .

وتتحرق ناجية [٤] أخت هَرِم بن ضَمْضَم على موت أخيها الفارس تحرقا وتحسرا يجعلها تستعيد خياله ماثلا على ظهر جواده ، الذي جرتِ العادة أن تراه ملازما إياه ، وفي هذا إشارة خفيّة منها إلى علاقة حميمة كانت بين المرثي وفرسه ، تُظهر فيها جـلال حبِّـه واعتـزازه بمركبه المطهّم ، الذي يشنّ به الغارات ، ويحمي به الحمى ، ويذود به عن الظعائن ، فإذا ما

١- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٥٤٠ . وانظر : ابن طيفور : بلاغات النـساء ، ص٢٢٤ . المرزباني : أشعار النساء ، ص٦٧ .

٢-" قدامـة بن عبداللـه بن سلمـة بـن قشيـر ، وهو الذائـد " . أبو عبيـدة : أيـام العـرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٥٤٠ .

٣- رعديدة : جبان . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (رعد) .

٤- هي ناجية أخت هرم بن ضمضم المري ، قتله ورد بن حابس العبسي في حرب داحس والغبراء . انظـر : الأصفهانـي : الأغانـي ، ج١٧ ، ص١٣٦ ــ ١٥٠ . ابـن عبـد ربـه : العقـد الفريـد ، ج٥ ، ص١٥٠ و ١٥٣ و ١٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تغيّرت عادتها من رؤياها أخاها على هذه الصفة التي ذكرَتْها ، كانت هدفا للذكريات المؤلمة والمعاناة المريرة ، تقول [١] :

يا لهف نفسي لهفة المفجوع ألا أرى هرِما على مودوع [٢]

من أجل سيدنا ومصرع جنبه علق الفؤاد بحنظل مجدوع [٣]

وتستهل رَيطَة [٤] بنت عاصِيَة رثاءها أخاها بتأكيد خبر مصرعه الذي لا يمكنها أن تفرَّ منه أو تتوارى عنه ؛ لأنه أوقعها في لجَّة حزنه ، فعاشت واقعه الأليم ؛ فأكدت حدوثه ، تقول [٥] :

إن ابن عاصية البهزي مصرعه خلى عليك فجاجا كان يحميها

توضّح الخسارة الحادثة بمصرعه بأنه ترك " فجاجا " ، كان يحميها ، معبرة عن تلك الحماية بصيغة الفعل المضارع ، وكأنها تريد أن تقول : إنه يحميها في حياته بوجوده فيها ، وبذكرى شجاعته التي أورثها أهل ذلك المكان بعدَه ، مستخدمة كلمة " فجاجا " للدلالة على كثرتها ، ونوعها ؛ لأن الفجاج : جمع فجٍّ : " الطريق الواسع بين الجبلين [٦] " ، ويتفق هذا

١- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٧ ، ص١٤٦ . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٤ ، ج٨ ، ص٣٣٧ : " قالت نائحة هرم بن ضمضم المري " .

٢- مودوع : فرس هرم . المصدر السابق ، ج١٧ ، ص١٤٦ .

٣- مجدوع : سيء الغذاء . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جدع) .

٤- هي ريطة بنت عاصية ، أخوها عمرو بن عاصية البهزي ، كان يغزو بني سهم بن معاوية من هذيل ؛ فرصدوا له فقتلوه ، فأدرك بثأره أخوه عرعرة بن عاصية السلمي . انظر : السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٦٤ . البكري : معجم ما استعجم ، مج١ ، ج٢ ، ص٣٧٧ . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص٤٩ .

٥- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٦٤ ــ ٨٦٦ .

٦- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (فجج) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاستخدام اللفظي مع دقة الوصف الجغرافي لمكان الواقعة التي كانت بين هذيل وسليم ، وهو مكان الجُرْف : " موضع قرب مكة [١] " ، تغلب عليه البيئة الجبلية . ثم تنتقل إلى تعداد مواقفه ومناقبه :

الـــوارد المـــاء لا يسقـــي بجمته [٢] ريش الحمام جراف [٣] في مراكيها [٤]

والمانع الأرض ذات العرض خشيته حتى تمتـــع من مرعى محانيها [٥]

فتصفه بـــ " الوارد الماء الذي لا يَرِدُهُ أحد [٦] " سواه ، إلا الحمام ؛ لامتناع هذا المـــاء في الأماكن العاليـــة أو المُسنِبة ، وتصفه أيضا بالذائد عن أرض قومه ذودا . " يتمتع هو من مرعاها [٧] " مغايرا عادة كثير ممن يدافعون فلا يتمتعون ؛ بسبب تكلفهم ذلك ، أما هو فدافعـــه عن طبيعة قيادية فِطْرية فيه لا يُعنِّيه بذلها ، بل قـــد يضرُّه الإقلاع عنها .

ثـــم تمضـــي إلى عرض العلاقة الملتهبة بين قبيلتها " بهز " وقبيلة " هذيل " بـــسبب قتلهم أخاها :

شبـــت هذيل وبَهـــز بينهـــا إرة [٨] فمـــا تبوخ [٩] ولا ينفـــك صاليهـــا

١- الحموي ياقوت: معجم البلدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص٤٩ . وانظر : البكري : معجم ما استعجم ، مج١ ، ج٢ ، ص٣٧٦ ــ ٣٧٧ .

٢- جم الماء : معظمه إذا ثاب . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جمم) .

٣- جراف : جمع جرف . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٦٥ .

٤- مراكيها : المراكي : الحياض . المصدر السابق ، ج٢ ، ص٨٦٤ .

٥- محانيها : المحنية : ما التوى من الوادي . المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٨٦٥ .

٦- المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٨٦٤ .

٧- المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٨٦٥ .

٨- إرة : أرّ نارك : اجعل لها إرة ، وهي حفرة تكون في وسط النار يكون فيها معظم الجمر . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أري) .

٩- تبوخ : تسكن . المصدر السابق ، مادة (بوخ) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما تبــوخ ومــا يصلى بجامحهــا إلا مصاليــت معقــود نواصيهــا

ككبة الغــزل تجــري في أمدتهــا إذا رمونــا بهــا عدنــا ندهديهــا

ترى أن نار العداوة بينهما لا تسكن ، ولا يصلى بلهيبها إلا رجال فرسان ماضون في الأمور غير متردّدين ، وأن الصراع بين القبيلتين جارٍ ممتدٌّ كــالخيوط الممــدودة للنــسيج ، وتشبيهها هذا يعطينا فكرة عن ضرْب من ضروب الصناعات التي اقتضتها ضرورة المعــاش حينذاك وهي صناعة الأقمشة والمنسوجات [١] .

ثم تعرض علينا موقفا من مواقفه التي تتسم بالجلَد ، وخبرته بدروب الــصحراء فــي ليلــة مطيــرة مظلمــة بــاردة ، يحــار فيها الساري ، ويصمت الكلب ، وتأوي الأفاعي إلى جحورها :

وليلــةٍ هَطــلٍ بالمــاءِ آخــرُهــا حيــرى جُماديّةٌ قــد بِتُّ تسريهــا

لا ينبح الكلب فيهــا غيــرَ واحــدة من القريس [٢] ولا تسري أفاعيهــا

ولا يخفى أنها بدأت عرض هذا الموقف بــ " واو ربَّ " ؛ لتدلنا على كثرة إتيانه هــذه السبيل ، راسمة لنا ذلك الحال بكلمات ذات حركة : " هطِلٍ ، حيرى ، تسريها ، ينبح ، تسري " ، والأجمل ما في هذه اللوحة : هي حركة الكلب المقرور ؛ الــذي يترنّح بين واجب الخدمــة ،

١- انظــر : حمــدي منصور : أهم صناعات الجاهليين كما تبدت في أشعارهم ، مجلة مجمع اللغة العربيــة الأردنــي ، العدد ٦٧ ، ص١٢٦ ــ ١٣٨ .

٢- القريــس : قــرس المــاء يقــرس قرســا ، فهــو قريس : جمــد . ابــن منظــور : لســان العــرب ، مادة (قرس) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخوفه على حياته ، فما يكاد يخرج رأسه من وِجاره ، فينبح نبحة واحدة ، حتى يسارع إلى إدخاله من شدة البرد .

ثم تعرّض بغدر " هذيل " وجبنهم في مواجهة أخيها :

كانت هذيل تمنى قتله سلما فقد أجيبتْ فلا تعجبْ أمانيها

ثم ترسم له شخصية سويّة ، امتزجت فيها حلاوته على أحبابه بمرارته على أعدائه ، أو أخلاقه السهلة بأخلاقه الوعرة ، وهو الذي يجدنه الأرامل مأواهن في الوقت الذي ما يزلن فيه حديثات العهد بالمصيبة ، ناشرات شعورهن :

حلو ومرٌّ جميع الأمر مجتمع مأوى أرامل لم تُعقصْ عَفاريها [1]

ثم تختتم بالمستحيل ؛ فتتمنى لو أنه لم يغزُ ابني سهم ، وآثر البقاء ، ولكنها تدرك أخيرا أن تمنّيها ضلال في القلب ، وسفة في الرأي :

يا ليت عمرا وليت ضلة سفه لم يغز سهما ولم يطلع لواديها

وتنادي عَمْرَة [2] بنت شدّاد عينها آمرةً لها بالبكاء على أخيها ؛ لتحدد لها نوع البكاء الذي تريده ، فما الذي حملها على نداء عينها ؟ هل هو جمودها من الدمع ؛ لقسوة في

١- عفاريها : عِفْرِيَة الرأس : الشعر الذي عليه . الخليل الفراهيدي : العين ، مادة (عفر) .

٢- يختلف على اسمها ونسبها في المصادر ؛ فقد وردت بأسماء : عمرة بنت شداد الكلبية ، والفارعة بنت شداد المرية ، والضبية ، وامرأة جاهلية . واختلف في الأبيات المنسوبة إليها عددا ومبنى ومعنى اختلافا كبيرا . انظر : البغدادي : أسماء المغتالين ، ج٢ ، ص٢٢٨ . المصدر السابق ، تحقيق : سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٢٢ هـ ــ ٢٠٠١م ، ص٢١٢ ــ ٢١٣ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٧٤ . القالي : الأمالي ، ج٢ ، ص٣٢٣ . البكري : معجم ما استعجم ، مج١ ، ج١ ، ص١٧٧ . نفسه : سمط اللآلئ ، ج٢ ، ص٩٧٠ . العلوي : أمالي ابن الشجري ، ج١ ، ص٣٧٧ . ابن منقذ : المنازل والديار ،ص٤٧٥ . البصري : الحماسة البصرية ، ج٢ ، ص٦٥٣ و ج٤ ، ص١٧٠٦ . الحصري : زهر الآداب ، ج٢ ، ص٩٤١ . البغدادي : خزانة الأدب ، ج١١ ، ص٢٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قلبها ؟ أم أن الحزن قد بلغ بها شأوه ؛ فكان أكبر من أن تغسله عنها دموع عينيها ؟ هذا ما أرجّحه ؛ لأنّ أخاها قُتل قتلة مُريعة ؛ إذ " قتلته جَرْم وهو عطشان [١] " . تقول [٢] :

يا عين بكي لمسعود بن شداد ... بكاء ذي عبرات حزنه باد

من لا يُمار [٣] له لحم الجَزور ولا ... يجفو الضيوف إذا ما ضُنّ بالزاد

ولا يحلّ إذا ما حلّ منتبذا [٤] ... خوفَ الرزيّة بين الحضْر والباد

تستمطر دموعها ، وتستدعي هملانها بفقدان أخلاق أخيها الكريمة ، فهو غير شَرِهٍ يَهشّ لضيوفه في وقت الجدْب ، شجاع لا ينتحي جانبا من الأرض خوف مصائب الناس ، وهي بهذا الوصف الأخير تذكرنا ببيت لطرفة بن العبد :

ولست بحلاّل التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد [٥]

ثم تلتفت إلى بني جرم التفاتة وقار وأدب فتحضّهم آملة منهم لو أنهم أحسنوا معاملة أخيها وسقوه على الأقل قبل أن يقتلوه ، مفدّية أخاها الشجاع الكريم بنفسها :

ألا سقيتم بني جَرْم أسيركم ... نفسي فداؤك من ذي كربة صاد

١- " سمت العرب جرما وجارما ... ، ومن قبائلهم : حرثان ، وعامر ، وشيْبَم " . ابن دريد ، أبو بكر ، محمد بن الحسن ، (ت٣٢١هـ) : الاشتقاق ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة المثنى ، بغداد ــ العراق ، ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م ، ص١٩١ .

٢- ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج٢ ، ص٢٢٨ . وانظر : المصدر السابق ، تحقيق : سيد كسروي ، ص٢١٢ ــ ٢١٣ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٧٤ . القالي : الأمالي ، ج٢ ، ص٣٢٣ . البكري : معجم ما استعجم ، مج١ ، ج١ ، ص١٧٧ . نفسه : سمط اللآلئ ، ج٢ ، ص٩٧٠ . العلوي : أمالي ابن الشجري ، ج١ ،ص٣٧٧ . ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٧٥ . البصري : الحماسة البصرية ، ج٢ ، ص٦٥٣ و ج٤ ، ص١٧٠٨ . الحصري : زهر الآداب ، ج٢ ، ص٩٤١ . البغدادي : خزانة الأدب ، ج١١ ، ص٢٦٠ .

٣- يمار : مار يمور مورا : إذا جعل يذهب ويجيء ويتردد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (مور) .

٤- منتبذا : المنتبذ : المتنحي ناحية . المصدر السابق ، مادة (نبذ) .

٥- طرفة بن العبد : ديوانه ، ص٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يــا فارســا ما قتلتم غير جَعثنــة [١] ولا بخيل على ذي الحاجة الجادي [٢]

قد يطعن الطعنة النجــلاء يتبعهــا مضــرّج بعدهــا تغلــي بإزبــاد

ويترك القِــرن [٣] مصفــرّا أنامــله كأن أثوابــه مُجّــت [٤] بفرصــاد [٥]

وتضرب لتصميم أخيها مثلا ؛ فهو يطعن الطعنة المميتة التي يصيب بها مقــتلا مــن عدوّه ، يغلي على إثرها دمه غلي المِرجل على النار ، فيموت " مصفرا أنامله " ملونة ثيابــه بالدم ، ولم يكن عدوه ضعيفا ، بل كان مكافئا له في الشجاعة ؛ لأن إظهار قوة الخصم ، هــي إظهار لقوة الممدوح .

تقول ذلك وتحسب أن ما هراقته من دموع لم تفِ أخاها حقَّهُ ، فتلجــأ إلــى الطبيعــة تستنزل دموع سحبها الثقال ، لتسحَّ على قبره :

يا من رأى بارقا قــد بت أرمقه جَوْدا [٦] على الحَرَّة السوداء بالوادي

أسقي به قبرَ من أعني وحُبَّ به قبــرا إليَّ ولــو لــم يــفْــدِه فــاد

ثم تمضي على غرار ما فعلته الخنساء في رثاء أخيها صخر ، من حسن التقسيم وكأن هذا الإيقاع الرتيــب يستجيش مزيدا من آهاتها المحبوسة في كبدها ؛ فتحاول أن تخفّف به ما تلقاه من كرْب :

شهــاد أنديــة ، رفــاع أبنــيــة شــداد ألويــة ، فتــاح أســداد

نحــار راغيــة ، قتــال طاغيــة حــلال رابيــة ، فكــاك أقــيــاد

١- جعثنة : أرومة كل شجر تبقى على الشتاء . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جعثن) .

٢- الجادي : طالب الجدوى . المصدر السابق ، مادة (جدا) .

٣- القرن : الكفؤ والنظير في الشجاعة والحرب . المصدر نفسه ، مادة (قرن) .

٤- مجت : مج الشراب والشيء من فيه يمجه مجا ومج به : رماه . المصدر نفسه ، مادة (مجج) .

٥- فرصاد : الفرصاد : التوت ، وقيل حمله وهو الأحمر منه . المصدر نفسه ، مادة (فرصد) .

٦- جَودا : الجَود : المطر الواسع الغزير . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جود) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوال محكمـــة ، نقاض مبرمـــة فـــراج مبهمة ، حـبـــاس أوراد

حلال ممرعـــة ، حمال مضلعـــة قـــراع مفظعة ، طـــلاع أنـــجـــاد

فتكرر صيغة " فعّال " للدلالة على كثرة إتيانه تلك المنقبة ، ثم تختم هذه الصفات بحكم عام ، رابطة الأسباب بالنتيجة :

جمّاع كل خصال الخير قـد علمـــوا زيـــن القريـــن وخطم الظالم العادي

وأخيرا تناديه نداء الوداع :

أبا زرارة لا تبعـد فـكـل فتـــى يوما رهيـــن صفيحـــات وأعـــواد

وتترقب أخت [١] عمرو ذي الكلب إيابه إليها بقلق ، يُذكيه حَدَسها الأخوي بـــأن ثمّـــة خطبا ألمّ به ، فترى صحبه مقبلين دونه ، فتلحّ عليهم بالسؤال عنه ؛ فيهدها الجواب مـــشتدا عليها ، وتروعها القصة مبرّحة بها ، تقول [٢] :

١- تختلف المصادر في تحديد اسمها ؛ فسماها بعضهم ريطة ، وآخرون عمرة ، ولكن الأسماء التي أجمعـت عليها جل المصادر هي جنوب أخت عمرو ذي الكلب بن العجلان بن عامر بن برد بن منبه ، أحد بني كاهـل ابن لحيان بن هذيل ، وإنما سمي بذي الكلب ؛ لأنه كان له كلب لا يفارقه ، وهو شاعر قديم مغـوار ، خـرج غازيا فهما ، فهبط واديا من أوديتهم فنام ، فوثب عليه نمران فأكلاه ، فادعت فهم قتله . انظـر : البحتـري : الحماسة ،ص٢٧٣ . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٧٨ و ٥٨٣ . المبرد : الفاضـل ، ص٥٩ . ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢١٥ . الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٣ ، ص١٠ . المرزباني : معجم الشعراء ، ص٢٧ . العسكري : الصناعتيـن ، ص١٤٢ . المعري : رسالة الصاهل والشاحج ، ص٢٩٦ . ابن رشـيق : العمـدة ، ج٢، ص٣١ . الحموي ياقوت : معجم البلـدان ، مج٣ ، ج٥ ، ص٤٧ و ١٣٨ . ابـن منظـور : لسان العرب ، مادتي (جلب) و (دعب) . السيوطي : شرح شواهد المغني ، ج١ ، ص١٠٦ . البغـدادي : خزانة الأدب ، ج١٠ ، ص٣٨٣ و ٣٨٤ و ٣٩٠ .

٢- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٣ ــ ٥٨٦ . وانظر : البحتري : الحماسة ، ص٢٧٣ . ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢١٥ ــ ٢١٦ . المبرد : الفاضل ، ص٦٠ ــ ٦١ . العـسكري : الـصناعتين، ص١٤٢ . المعري : رسالة الصاهل والشاحج ، ص٢٩٦ . ابن رشيق : العمدة ، ج٢ ، ص٣١ . ابن هـشام : شذور الذهب ، ص٢٣٣ . البغدادي : خزانة الأدب ، ج١٠ ، ٣٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سألــت بعــمــرٍو أخــي صحبــَهُ فأفظعنــي حــيــن ردوا الســؤالا

فقالــوا : أتيــح [1] لــه نــائــمــا أعــز السبــاع عــلــيــه أحــالا

أتــيــح لــه نــمــرا أجــبــل فنــالا لعمــرك مــنــه مــنــالا

أتيحــا لوقــت حــمــام المنــون فــنــالا لعمــرك مــنــه ونــالا

فأقسمــت يــا عمــرو لــو نبهاك إذاً نبهــا منــك أمــرا عــضــالا

إذاً نبهــا لــيــثَ عِــرِّيــسَــةٍ [2] مفيــدا مفيتــا نفــوســا ومــالا

وتتوقف عند زعم قبيلة " فَهْم " قتله ؛ فتبطل زعمهم ، وتفضح زيفهم :

وقــالــوا : قتــلــنــاه في غــارة بــآيــة مــا أن ورثنــا النــبــالا

فهــلا إذاً قــبــل ريــب المنــون فقد كــان رَجْــلا وكنتــم رجــالا

وقــد علمــت فهــمُ عنــد اللقــاء بأنهــم لــك كــاتــوا نــفــالا [3]

يزعمــون أنهم قتلوه في غارة إشهارا لتفوّقهم عليه بدليل أنهم قد ورثوا ســلاحه ، فتهزأ بهم وتكذبهم ، فلم يكن هذا موقفهم قبل موته بل كانوا غنائم له .

ثم تدأب على الاستعراض العام لمناقب فارسها ؛ فتوشــيّه بــصفات الفــارس المقــدام الشجاع ، الكريم ، المغيث إلى أن تنتهي بتشبيهه بالشمس نهارا ، وبالهلال ليلا ؛ إبرازا لفائق جوهره ، ورفيع منزلته ، وجميل أخلاقه :

فكنــت النهــارَ بــه شــمــسَــه وكنــت دجــى الليــل فيــه هلالا

١- أتيح : قضي له ، قدر له . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٤ .

٢- عريسة : العريسة ، والعريس : الشجر الملتف ، وهو مأوى الأسد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عرس) .

٣- نفالا : غنائم . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتشبيهها هذا وتشبيه النابغة الذبياني ، يعتنقان المعنى نفسه ؛ قال النابغة مادحا النعمان بن المنذر ملك الحِيرة [١] :

فإنك شمس ، والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وتمضي حِقبة من الزمن ، فترى نفسها وحيدة بغير مساند لها ، تفزع إليه إذا نابها نائب ، أو حزبها أمر ؛ فتتذكر أخاها وتتمنى لو لم يُقْدِم على غزو بني فَهْم والهبوط في واديهم المُسْبِع ، تقول [٢] :

يا ليت عَمْرا وما ليت بنافعة لم يغزو فَهْما ولم يهبط بواديها

شبّتْ هذيل وفهم بينها إرَة [٣] ما إن تبوخ [٤] وما يرتدّ صاليها

وتبيّن العَداء المتَّقدَ بين قبيلتها هذيل ، وقبيلة فهم بسبب مصرعه بأنه لا يسكن ولا يتوقف رجاله من ولوج ناره .

وربّ ليلة باردة عانت فيها الشاعرة من ملهبة الجوع ذكّرتها بليالي أخيها الكريمة التي كان يطعم فيها من خير وأعزّ ما يملك من الإبل ؛ ليختصّ بهذا الكرم المثرين مباهاة لهم بكرمه في الوقت الذي يبخلون فيه :

وليلة يصطلي بالفرث جازرها يختص بالنَّقَرى المثرين داعيها [٥]

١- النابغة الذبياني : ديوانه ، ط١ ، قدم له وبوبه وشرحه : علي أبو ملحم ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٩١م ، ص٤٢ .

٢- السكري: شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٢ ـ ٥٨٣ . وانظر : ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٣ . المرتضى : الأمالي : ج١ ، ص٣٤٥ ، " قال بعض هذيل " .

٣- إرة : الإرة : موقد النار . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٢ .

٤- تبوخ : تسكن . المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٨٢ .

٥- " يقول : من شدة البرد يصطلي بالفرث ، يدخل يديه ورجليه في الكرش من شدة البرد ، " والنقرى " أن يدعوا واحدا واحدا ، الرجل من ها هنا ، والرجل من ها هنا ، يخص ولا يعم ، والجفلى أن يعم في دعائه " . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أطعمت فيها على جـوع ومسغبـة شحم العِشار إذا ما قـام باغيهـا

وتذكر لنا بعض المصادر قصيدة بائية لها أيضا في رثاء أخيها هذا ، مطلعها [١] :

كـلّ امرئ بطـوال العيش مكذوبُ وكلّ مـن غالـب الأيـام مغلـوبُ

وقد تشاطـرت نسبتها مع " سَريع بن عِمران الصاهلي [٢] قالهـا يرثـي عَمْـرا [٣] " ، والقصيدة ــ كما أرجّح ــ ألصق نسبة به منها بأخت عمرو ، وآية ذلـك إنهـا سـألت فـي القصيدة اللامية الأولى أصحاب أخيها عندما رجعوا من غزاتهم عنه ، جاهلـة بحالـه حتـى أخبروها : " سالت بعمرو أخي صحبه " ، بينما هي في القصيدة البائية تخبر بالحدَث وكأنهـا عاشته ؛ فأقبلت تبلّغ به قومها ، وهذا يتنافى مع المعنى الحاصل من القصيدة اللاميـة فـي الوقت الذي يستقيم احتمال صحته مع نسبة القصيدة إلى سريع الصاهلي ، يقول [٤] :

أبلـغ هذيـلا وأبلـغ من يبلغهـا عني حديثا وبعض القـول تكذيـب

بان ذا الكلب عمْـرا خيرهم حسبا ببطن شِريان يعوي عنـده الذيـب

كمـا أن القصيدة بـدأت بالحكمة ، وهـذا يتنافى مـع طبيعة المـرأة الانفعاليـة ، التي ــ غالبا ــ لا تتقبل الأمور في مثل هذه المواقف إلا بما ينـسجم مـع فطرتهـا بالتـأثر والانفعـال ، لا بالإرعـواء والحكمة ، ومما يقوّي لديّ هذا الاحتمال هي الأناة التي ظهـرت في الأبيات الخمسـة الأُولِ ، فأنّى لشاعرة يمـوت أخوها وتتأنى حتى تقـول خمسة أبيـات ولا تصرخ ؟! .

١- انظر : السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٧٨ ــ ٥٨١ . البحتـري : الحماسـة ، ص٢٧٣ . الأصفهاني: الأغاني ، ج٢٣ ، ص١٠ ــ ١١ . المعـري : رسالة الصاهـل والشاحج ، ص٢٩٧ . البغدادي : خزانة الأدب ، ج١٠ ، ص٣٩٠ ــ ٤٠٠ .

٢- لم أعثر له على ترجمة غير ما ذكر .

٣- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٧٨ .

٤- المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم نراها في قصيدة أخرى مع المرثي نفسه تناديه دون أن تصرّح باسمه علانية كما فعلت في قصيدتيها السابقتين ، تقول [١] :

يا من بمقتله زُهى [٢] الدهر قد كان فيك تضاءل البدر

ماذا أحدث موته ؟ أحدث تكبّرَ الدهر على الشاعرة التي افتقدت عضدها ، والقبيلة التي ودّعت فارسها ، الذي كان يكشف بطلعته في ساحات الوغى ما لا يكشفه بدر السماء في حنادس الدجى ؛ لذا تضاءل البدر ، ولصفات أخر هي :

كنت المجير عليه تقهره فإذا سطوت سطا القهر

وإذا سكتّ فإنها عدة وإذا نطقت تدفق البحر

وإذا نظرت إلى أخي عدم أثرى وزال بلحظك الفقر

وإذا رقدت فأنت منتبه وإذا بدوت فوجهك البدر

فهو مجير من يلجأ إليه ، وهو القهر نفسه إذا سطا ، والواعد أو المتوعد إذا سكت ، والطليق الفصيح إذا نطق ، وما إن ينظر إلى فقير حتى يتيقن بحصول الثرى وزوال الفقر ، وهو الراقد المنتبه في وقت معا حذرا من الغائلة ، وإذا بدا فوجهه مشرق ، لما يراه من ترحاب من عافي إنائه ، وشاكري نعمائه ، إذ كان شأنه هذا بينهم أبدا مستمراً ودائما دائبا .

ثم تحلف :

والله لو بك لم أدع أحدا إلا قتلت لفاتني الوِتْر [٣]

ما زال يحسد بطنُ أرضك ظهرَها إذ تم أمرك واستوى القَدْرُ

١- المبرد : الفاضل ، ص٥٩ ــ ٦٠ . وانظر : القالي : الأمالي ، ج١ ، ص٣٩ ، ٤٠ ، " لامرأة على راحلة لها تطوف على قبر " . السراج : مصارع العشاق ، ج١ ، ص٢١٦ .

٢- زهى : طائية ، تريد زهي . المبرد : الفاضل ، ص٥٩ .

الزهو : الكبر والتيه والفخر والعظمة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (زها) .

٣- الوتر : الوتر والوتر والترة والوتيرة : الظلم في الذحل . المصدر السابق ، مادة (وتر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتـــى حللـــت ببطنهـــا فتقدّســـتْ فاليومَ يحـــســـد بطنَهـــا الظهـــرُ

تعبر عن أبلغ انفعالها فتقسم ، فتتمنى قتل الجميع بأخيها وإن فاتها إدراك ثأرها كلـــه ؛ لرجحان كفة أخيها على كفة سواه من الناس ، ثم تـــشخّص بطـــن الأرض ، وتجعلـــه حاســـدا لظهرها ، في الطرف الذي صار فيه أخوها سيدا يمشي بثبات على الأرض إلى أن انتهت تلك الغايـــة الزمنيـــة ، وانتقل إلى الغاية المكانية " القبر " ، فانقلب الحاســـد إلى محسود ، فحسد ظهرُ الأرض باطنها ، " وهذا من أحسن المعاني وألطفها [١] " .

ونلمس في رثاء سُعدى [٢] أخاها انتقالا من جوٍّ حزين عامّ تعيشه الشاعرة إلـــى جـــوٍّ حزين خاصّ ،ففي الأول حوادث ، ومنون وخوف ،وسهر ، وفي الآخر بكاء مفرد لموت أخيها حسب ، وكأنهـــا مهّـــدت بالعـــامّ الكثير لاستقبال الخاصّ الجليل الذي تجاوز حزنُـــه وجـــدَها القديم ؛ فباتت تبكّي أخاها الحقيق بالبكاء ، موقنة بكلل عينها ، تقول [٣] :

أمـــن الـــحـــوادث والمنـــون أروع وأبيـــت ليلـــي كلـــه لا أهـــجـــع

وأبيـــت مُخليـــة [٤] أبكّـــي أسعـــدا ولمثلـــه تبكـــي العيـــون وتهمـــع

وتبيـــن العيـــن الطليحـــة [٥] أنها تبكي مـــن الجزع الدخيـــل وتدمع

١- المبرد : الفاضل ، ص٦٠ .

٢- هـــي سعـــدى أو سلمـــى بنـــت الشمردل الجُهَنِيَّة ، أخت أسعد بن مجدعة الهذلي ، قتلته بهز من بني سليم ابن منصور . انظر : الأصمعي : أبا سعيد ، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك ، (ت٢١٦هـــ) : الأصمعيات ، ط٧ ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون ، دار المعـــارف ، مـــصر ، ١٩٩٣م ، ص١٠١ ــ ١٠٢ . ابـــن طيفـــور : بلاغات النســـاء ، ص٢١٩ . الجاحـــظ : الحيـــوان ، ج٥ ، ص٥٥٤ . ابن دريد : الاشتقاق ، ج١ ، ص٢٠٧ . ابن منظور : لسان العرب ، مواد (حضر) و (سلع) و (سمل) .

٣- الأصمعي:الأصمعيات ، ص١٠١ ــ ١٠٤ . وانظر ابـــن طيفـــور : بلاغـــات النـــســـاء ، ص٢١٩ . الجاحـــظ : الحيوان ، ج٥ ، ص٥٥٤ . ابن دريد :الاشتقاق ، ج١ ، ص٢٠٧ . ابن منظور : لسان العـــرب ، مواد (حضر) و (سلع) و (سمل) .

٤- مخلية : خالية [مفردة] . المصدر السابق ، مادة (خلا) .

٥- الطليحة : الطلح والطلاحة : الإعياء . المصدر السابق ، مادة (خلا) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يسكن نشيجها ، وتحاول حبس دموعها ؛ لتفسح لعقلها بتذكر العظات من حوادث ما سبق من الزمان ، فتتنهد بالحكمة :

ولقد بدالي قبل فيما قد مضى ... وعلمت ذاك لو ان علما ينفع

أن الحوادث والمنون كليهما ... لا يعتِبان [١] ولو بكى من يجزع

ولقد علمت بأن كل مؤخر ... يوما سبيل الأولين سيتبع

ولقد علمت لو ان علما نافع ... أن كل حي ذاهب فمودع

أفليس في من قد مضى لي عبرة ... هلكوا ولقد أيقنت أن لن يرجعوا

ويلمّ قتلى بالرّصاف [٢] لو انهم ... بلغوا الرجاء لقوهم أو متعوا

كم من جميع الشمل ملتئم الهوى ... كانوا كذلك قبله فتصدعوا

ثم تخاطب صحب أخيها ، علّهم يشاركونها المصاب ؛ فيخفّ عنها بعضه :

فلتبك أسعد فتية بسباسب [٣] ... أقووا [٤] وأصبح زادهم يتمزع [٥]

ولا تنسى أن تذكّرهم بأن أخاها قد جاد بنفسه في وقت كان المكرّ عليهم شنيعا ، وبما له من صفات وبطولات :

جاد ابن مجدعة [٦] الكميّ بنفسه ... ولقد يرى أن المكرّ لأشنع

١- يعتبان : الإعتاب والعتبى : رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عتب) .

٢- الرّصاف : موضع . البكري : معجم ما استعجم ، مج١ ، ج٢ ، ص٦٥٤ .

٣- سباسب : القفر والمفازة . المصدر نفسه ، مادة (سبسب) .

٤- أقووا : أقوى الرجل إذا نزل بالقفر . المصدر نفسه ، مادة (قوا) .

٥- يتمزع : التمزيع : التفريق . المصدر نفسه ، مادة (مزع) .

٦- ابن مجدعة : تريد بذلك أخاها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلـمّـه [١] رجـلا يليـذ بظهـره إبـلا ، ونسّـال [٢] الفيافـي أروع

يرد المياه حضيرة [٣] ونفيضـة [٤] ورْدَ القطاة إذا اسمألّ [٥] التبـع [٦]

وبه إلى أخرى الصحـاب تلفـت وبه إلى المكروب جري زعـزع

ويكبر القدح [٧] العنـود [٨] ويعتلـى بألى الصحاب إذا أصات [٩] الوعوع [١٠]

ثم تحقق موته بتعبير (ذهب) ؛ أي قتل ، وتذكر قاتله ؛ وهي قبيلة بَهْز التي أصـبح حظها عاليا ؛ بقتل أشد الفرسان جرأة عليها ، بينما أصبح حظ قومها خاشعا بـسبب فقـدهم فارسهم المقدم :

ذهبت بـه بهـز فأصبـح جدهـا يعلـو وأصبح جد قومي يخشع

ثم تسأل قاتله منكرة عليه صنيعه بأخيها ، داعية عليه :

أجعلـت أسعـد للرمـاح دريئة [١١] هبلتك [١٢] أمـك أيَّ جَـرْد [١٣] ترقـع

١- وَيْلُمِّهِ : ووَيْلُمِّهِ : يريدون ويل أمه . وقيل : وَيْ كلمة مفردة ولأمّه مفردة وهي كلمـة تفجـع وتعجـب ، وحذفـت الهمـزة مـن أمـه تخفيفا ، وألقيت حركتها على اللام ، وينصب ما بعدها على التمييـز . انظـر : لسان العرب ، مادة (ويل) .

٢- نسال : نسل : أسرع ، وأصل النسلان للذئب . المصدر نفسه ، مادة (نسل) .

٣- حضيرة : النفر يغزى بهم . المصدر السابق ، مادة (حضر) .

٤- نفيضة : الطلائع . المصدر السابق ، مادة (حضر) .

٥- اسمألّ : أي رجع الظل إلى أصل العود . المصدر السابق ، مادة (سمأل) .

٦- التبع : الظل . المصدر السابق ، مادة (تبع) .

٧- القدح : بالكسر : السهم قبل أن ينصل . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قدح) .

٨- العنود : قدح عنود : هو الذي يخرج فائزا على غير جهة سائر القداح . المصدر السابق ، مادة (عند) .

٩- أصات : نادى . المصدر نفسه ، مادة (صوت) .

١٠- الوعوع : الجبان . المصدر نفسه ، مادة (وعع) .

١١- دريئة : الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها . المصدر نفسه ، مادة (درأ) .

١٢- هبلتك : الهبل : الثكل . المصدر نفسه ، مادة (هبل) .

١٣- جرد : ثوب جرد : خلق : المصدر نفسه ، مادة (هبل) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم تلتفت مستأنسة بحواره وكأنه بجوارها تتملق إليه بأحب الصفات إليه ؛ تعبيرا عن مودتها وحبها له :

يا مطعـم الركـب الجياع إذا هـم ... حثوا المطي إلى العلى وتسرعـوا

وتجاهدوا سيـرا فبعـض مطيهم ... حسـرى مخلفـة وبعـض ظلـع

جـواب أوديـة بغيـر صحابـة ... كشـاف داوي الظـلام مشيـع

هذا على إثـر الـذي هـو قبلـه ... وهـي المنايـا والسبيـل المهيع

هذا اليقيـن فكيـف أنسى فقـده ... إن راب دهـر أو نبـا بي مضجع

إن تأتـه بعـد الهـدو لحاجـة ... تدعـو ، يجبك لها نجيـب أروع

متحلـب الكفيـن أميث [١] بـارع ... أنـف طوال الساعدين سَميدَع [٢]

سمح إذا ما الشول حـارد رسلها ... واستروح المـرق النساء الجـوع

من بعد أسعد إذ فجعـت بيومـه ... والمـوت مما قـد يريـب ويفجع

ثم تختتم قصيدتها برغبتها في فداء أخيها بكل غال لو كان السبيل إلى ذلـك ممكنـا ، ومشهد مقتله يوم الرصاف لا يزال شاهدا شنيعا أمامها :

فـوددت لـو قبلـت بأسعـد فدية ... ممـا يضـن بـه المصاب الموجع

غادرته يـوم الرصـاف مجـدلا ... خبـر لعمـرك يـوم ذلـك أشنـع

١- أميـث : الأرض الميثـاء : الأرض السهلـة ، ولعلها أرادت بأميث ؛ أي سهل . انظـر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ميث) .

٢- سَميدَع : الكريم السيد الجميل الجسم الموطأ الأكناف ، والأكناف : النواحي ، وقيل : هو الشجاع . المصدر السابق ، مادة (سمدع) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

رثاء الأزواج

يُبيّن ربُنا سبحانه وتعالى العلاقة الزوجية ، فيجعلها من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته ، يقول [١] : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

لقد خلق لنا من جنسنا البشري أزواجا لا من جنس آخر من جانّ أو غيره " وذلك لما بين الاثنين من الإلف والسكون ، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر ، وجعل لنا التوادّ والتراحم بعصمة الزواج ، بعد أن لم تكن بيننا سابقة معرفة ، لا لقاء ، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم [٢] " .

هذا هو الأساس الرباني الذي تسير عليه العلاقات الزوجية ، وتُبنى به الأُسر ، ويتكوّن به المجتمع ، ولضرورته يدعو رسولنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ معشر الشباب مشترطا عليهم الاستطاعة قائلا [٣] : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة [٤] فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء [٥] " . ومن فوائد الزواج " أنه

١- سورة الروم ، الآية ٢١ .

٢- الزمخشري ، أبو القاسم ، جار الله ، محمود بن عمر ، (ت٥٣٨هـ) : الكشاف ، ط١ ، دار الفكر ، بيروت ــ لبنان ، ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م ، ج٣ ، ص٢١٨ . وانظر : محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، ج٢ ، ص٤٣٨ .

٣- البخاري ، أبو عبدالله ، محمد بن إسماعيل ، (ت٢٥٦هـ) : صحيح البخاري ، د.ط ، دار إحياء التراث ، بيروت ــ لبنان ، د.ت ، مج٣ ، ج٧ ، ص٣ .

٤- الباءة : النكاح . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بوأ) .

٥- وجاء : أوجأ عنه : دفعه ونحاه. ابن منظور : لسان العرب ، مادة (وجأ) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سبب لوجود النوع الإنساني ، والتمتع بالنعمة ، وغضّ البصر ، وكفّ النفس عن الحرام [١] " .

يروي القالي قصة عن ملكة يمانيَة ، خلَفت والدها في حكم قومها ، فقرّبت النسوة اللواتي ربّيْنها تشاورهن ، فقلن لها يوما [٢] : " لو تزوجتِ لتمّ لك الملك ، فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن : الزوج عزّ في الشدائد ، وفي الخطوب مساعد ، إن غضبتِ عطف ، وإن مرضتِ لطف ، وقالت الثانية : الزوج شعاري [٣] حين أُصرد [٤] ، ومتكئي حين أرقُد ، وأنسي حين أُرد ، وقالت الأخرى : الزوج لما عناني كاف ، ولما شفني [٥] شاف ، يكفيني فقد الآلاف " .

فماذا تقول الشاعرة الجاهلية إذا مات زوجها عنها ؟ وكيف تقول ذلك ؟ وما تأثيره عليها ؟

ذلك ما يأمل الإجابة عنه هذا الفصل .

١- السالمي ، نور الدين ، أبو محمد ، عبدالله بن حميد ، (ت١٣٣٢هـ) : شرح الجامع الصحيح ، مسند الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي ، د.ط ، صححه وعلق عليه : عز الدين التنوخي . مكتبة الاستقامة ، مسقط ــ سلطنة عمان ، د.ت ، ج٣ ، ص٢ .

٢- القالي : الأمالي ، ج١ ، ص٨٠ .

٣- شعاري : ما ولي شعر جسد الإنسان دون سواه من الثياب . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شعر) .

٤- أصرد : أبرد . القالي : الأمالي ، ج١ ، ص٨١ .

٥- شفني : شفه الهم أي هزله وأضمره . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شفف) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمُدّ لعاطفتها المتقدة أسباب النجاة ؛ لينقذها من موقفها الخائر ، فتبدأ بالحوار الفكري منادية عاذلتها بعدم العجلة ، والتثبّت مما يُوجب لومها ، أو لا ، راضية باللوم إن ثبتتْ شماتتها حقا بأهل المقتول ، وشفقتها على أخيها القاتل .

إنه حوار غير متكافئ بين عقل يستضيء بالأدلة ، وبين عاطفة موتورة تستجير بالحزن ، ولائمة ميزان ؛ لينصف الأولى فيعدل ، أو شفيق على الأخرى فيعذر ، فكلتاهما على موقفها غير ملومة .ثم تنتقل إلى الكلام عن الحدَث ، وعرض موقفها الذاتيّ منه :

فغل جساس على وجدي [١] به ... قاطع ظهري ومُدْنٍ أجلي

لو بعين فقئتْ عيني سوى ... أختها فاتفقأتْ لم أحفل

تحمل العين قذى العين كما ... تحمل الأمُّ أذى ما تفتلي

يَقتل أخوها الذي هو يَسارها وسعتها زوجَها ؛ فيحُول بفعله هذا بين أخته وسعادتها ، وبينها وبين ما تأمله منه من عون فيقطع ظهرها ، ويعجل بيومها ؛ ولكانت غيرَ حافلة بالأمر ، لو فُقئت عينها قصاصا لعينٍ غير عينها ؛ لأن في اقتصاص الآخرين من إحدى عينيها إبقاءً لواحدة منهما ، أما في اقتصاص عينها الأولى من عينها الأخرى ذهاب لعينيها الاثنتين معا ، وفي هذا الكلام تشبيه لأخيها وزوجها بالعينين اللتين هما أغلى أعضاء الرأس ، وأرفعهما ، ترى بهما النور ، وتهتدي بهما السبيل ، ثم إنها هي نفسها عين ثالثة في نظر أخيها تحتمل قذاه كما تحتمل الأم أذى فلي رأسها .

١- وجدي : الوجد : اليسار والسعة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (وجد) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم تدلف إلى وصف معاناتها إثر مقتل زوجها ، والأثر الذي تركه لها :

يـــا قتيـــلا قـــوّضـــتْ صرعتـــُه سقف بيتـــيّ جميعـــا مـــن عـــل

قوّضـــت بيتـــي الذي استحدثتـــه وانثـــنـــت في هـــدم بيتـــي الأول

ورمـــاتـــي قتـــلـــه مـــن كـــثـــب رميـــة المُصمى بـــه المستأصـــل

تنادي غائبا مُعيّنا غير حاضر ، فتنكّر بقصْد ؛ ولو كان حاضرا شاهدا لواقـــع الكـــلام لرفعت المنادي ، وسدّدت الوزن ، جاعلة من التنكير أمارة على الغياب ، ومن التعريف آيـــة على الحضـــور ، ثـــم تصفه وصفا غير مباشر ؛ فردّت انهدام سقف بيتها إلـــى " صـــرعته " تأدّبا واحتراما لزوجها القتيل ، الذي قُتل عن قصد أخيها به ؛ فخسرت بيـــت زوجهـــا الـــذي استحدثته بالزواج ، كما خسرت بيتها الأول ، بيت أخيها بما تتوقعه من قتل قوم زوجها أخاها ؛ إدراكا لثأرهم منه ، ويمكن أن نفهم أن البيتين هما زوجها وأخوها نفساهما ، ويـــدلنا تكـــرار لفظ " بيتي " على حرصها على سلامة بيتها حرصَ أيّ امرأة تكون ربة بيت ، تُوليه عنايتهـــا واهتمامها ، بما يضمّ هذا البيت من أفراد ، كما يثبت لنا هذا اللفظ أن الشعر لامرأة ، إذا مـــا استبعدنا معرفة القائل له مثلا .

وتوضّح أن القتل كان " من كثب " أي من قرب ، فإما أن يكون هذا القرب من ناحيـــة الرحـــم الذي بينها وبين أخيها ، وإما أن يكون قد قصدت بالقرب العلاقة الزوجيـــة الحديثـــة العهد ، التي ما إن لبثت حتى رُميتْ فيها بنوع من الرمي يسمى " رمية المُـــصمى " ، وهـــو رمي يُصيب ولا يُخطئ ، ويستأصل الروح من أعماق الجسد ، ثم تتمنى أن تكون مكان زوجها فتُقتل عوضا عنه ، ويهراق دمها غزيرا من أكحلها :

لـــيـــتـــه كـــان دمـــي فاحتلبـــوا درَكـــا منـــه دمـــي مـــن أكْحلـــي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يروي الأصفهاني [١] : " لما قتل جساسُ بن مرة كليبَ بن ربيعة ... ، اجتمع نساء الحيّ للمأتم ، فقلن لأخت كليب : رحّلي جليلة عن مأتمك ، فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب ؛ فقالت لها : يا هذه اخرجي عن مأتمنا ، فأنت أخت واترنا ، وشقيقة قاتلنا ، فخرجت " ؛ لأجل هذا رصدت جليلة لهن قطعة من خطابها فنادت :

يا نسائي دونكن اليوم قد ... خصّني الدهر برزء معضل

خصّني قتل كليب بلظى ... من ورائي ولظى مستقبلي

ليس من يبكي ليوميه كمن ... إنما يبكي ليوم بجل [٢]

تُبين لهن أن الدهر قد خصّها دونهن بهذا المصاب المعضل ، في الوقت الذي رمينها فيه بالشماتة ، وأن مصابها هذا سائرٌ أمامَها بقتل زوجها ، ورديفٌ خلفَها بتوقّع الثأر من أخيها وقومه ؛ فهي في مصاب مستمر ، ليس كمصابهن الذي ما إن يمرّ عليه يومان حتى يبرد ، فـ " ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة [٣] " .

لقد أوقعها القضاء في غمٍّ لا تستطيع أن تشتفي منه بثأر ؛ لأن قاتل زوجها هو أخوها ، فلا تبرح لو فعلت ذلك إلا أن تكسر جناحها بيدها ، فيتضاعف مصابها ، ويدلهمّ خطبها :

درك الثائر يشفيه وفي ... دركي ثأري ثكل المثكل

إنني قاتلة مقتولة ... ولعلّ الله أن يرتاح لي

١- الأصفهاني : الأغاني، ج٥ ، ص٤٠ .

٢- بجل : البجل : العجب . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بجل)

٣- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٣ ، ص٢٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هي قاتلة لكون القاتل أخاها ، مقتولة لأن المقتول زوجها ، تعبير عن حالتها التي تحيا النقيضين المرّين معا ، فلا تجد منهما خلاصا إلا أن تستعطف راجية ربّ القضاء أن يريحها بقضاء آخر لا يقدر عليه إلا هو وحدَه .

وتُشبّه فاطمة [١] بنت الأجْحم زوجها المتوفى بأنه قد كان جبلا يظلها، وسترا يعفّها ، وجناحا يحملها ، ثم صارت إلى حال مغاير بعدَه ؛ إلى ذِلّةٍ بعد عزّ ، وظلم بعد عدْل ، وحزن بعد سرور ؛ تقول [٢] :

قد كنت لي جبلا ألوذ بظله ... فتركتني أضحى [٣] بأجردَ ضاحي

قد كنت ذات حمية [٤] ما عشت لي ... أمشي البَراز [٥] وكنت أنت جناحي

فاليوم أخضع للذليل وأتقي ... منه وأدفع ظالمي بالراح

وإذا دعت قُمريّة شجنا لها ... يوما على فنن دعوت صباحي

وأغض من بصري وأعلم أنه ... قد بان حدّ فوارسي ورماحي

١- سبقت ترجمتها ، ص٥١ .

٢- القالي : الأمالي ، ج٢ ، ص١ ــ ٢ . وانظر : المرزوقي : شرح ديوان حماسة ، أبي تمام ، مج١ ، ج٢ ، ص٩٠٩ ــ ٩١٢ . البكري : سمط اللآلئ ، ج٢ ، ص٦٢٦ ، وفيه تنسب أيضا ليلى بنت يزيد بن الصعق ، ترثي ابنها قيس بن زياد ، وفيه نفسه إنها لامرأة من كندة . التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٧ ــ ٥٧٨ . ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٩ ، " ترثي أباها " .

٣- أضحى : انكشف . أجرد : أملس . ضاحي : بارز للشمس . التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٧ .

٤- حمية : حميت الشيء أحميه حمية : أي أنفت وغضبت . المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٨٧ .

٥- البراز : الفضاء من الأرض . المصدر نفسه ، ج١ ، ص٥٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اختلفت الروايات ــ انظر التخريج ــ في مرثيتها ، وأرجح أنها لزوجها بدليل أنها قالت " فتركتني أضحى بأجرد ضاحي " أي " انكشفت بعد أن كنت في ستر [١] " ، وهذا كلام ألصق بالزوج منه بالأب ؛ لأن الزوج مَظِنّة الستر ، وبدليل قولها : " وأغض طرفي " ؛ لتتقيَ هيجان رغبتها في الرجال عند النظر إليهم ؛ لوجود الغريزة الفطرية التي تدفعها إلى ذلك ولكنها تأبى وفاءً لزوجها وإكراما لعفتها ، وهذا ما لا أرجح أن تقولَه في رثاء أبيها بدليل أن البكريّ في سِمطه ذكرَ مطلعا آخر لهذه الأبيات هو :

يا عين جودي عند كل صباح جودي بأربعة على الجراح .

فعرّف الجرّاح بأنه زوجها [٢] ، أما الدليل الأخير فهو أن هذه " الأبيات تمثلت بها عائشة ــ رضي الله عنها ــ بعد وفاة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ [٣] " وغالبا لا يكون التمثُّل والاستشهاد بالشيء إلا لمشابهة في موقف أو حال .

ويلفتنا بيتها : " وإذا دعتْ قُمريّة ... " إلى أن موت زوجها أذكى في نفسها الحِسّ الرهيف ؛ فجعلها تشجى لصوت الحمام ، وتهتاج به ؛ فتعلو زفراتها وجْدا على فقيدها .

ومن الشاعرات الجاهليات اللواتي نقف لهن على بيت واحد في رثاء الأزواج دَخْتَنوس [٤] بنت لَقِيط فقد رثتْ زوجها عُمير [٥] بن مَعْبَد ، تقول [٦] :

١- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٧ .
٢- انظر : البكري : سمط اللآلئ ، ج٢ ، ص٦٢٦ .
٣- القالي : الأمالي ، ج٢ ، ص٢ .
٤- تقدمت ترجمتها ، ص١٧ .
٥- لم أعثر له على ترجمة .
٦- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج٢ ، ص٧٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعينيْ ألا فابكـــي عُميـــر بن مَعْبِد وكـــان ضروبـــا باليديـــن وباليـــد

تخاطب زوجها في بيتها هذا ؛ فتستخدم لندائه الهمزة ، دلالة على قربه من فؤادها ، وإن باعد الموت بينهما ، ثم تستفتح ب " ألا " منبّهةً لنا بها أن ثمة خطْبا دهاها ؛ فدعاها إلى أن تطلب من عينها أن تسعفها بدمع يثِجّ بغزارته ؛ ليغسل ما تعانيه من فقْد إلفها الذي عرفته مبالغا في الضّرْب ماهرا فيه ، وإذا أقدم على أمر لا يلوي عنه عناته حتى يـــدرك بُغيتـــه ، بإحدى قوتيه ؛ قوة اليدين معا أو قوة اليد الواحدة ، وهما قوتان تحددهما مهارة صـــاحبهما ؛ أين يوضعان ، ومتى يستخدمان .

ويقتل على عَقَبَة قُلاب [١] بِشْر [٢] بن عمرو ، زوج الخِرْنِق [٣] ، وابنهما عَلْقمة بن بِشْر ، وأخواه حسّان وشرحبيل ، وجماعة من قومهم [٤] ؛ فيعصف الأسى ببالغ قوته على الشاعرة عصفا يزعزع صبرها ويقتلع احتمالها ، ويرمي بها في لُجة الحزن الذي لا يمكن أن تعـــايش مثيلا له في قادم الأيام ، ومستقبل الزمان ؛ لأنه جاء على أغلى ما تملك وأنفس ما لـــديها ، ولم يبق لها شيء آخر يمكن أن نحزن عليه كحزنها على ما حلّ بساحتها ، تقول [٥] :

ألا أقســـت آســـى [٦] بعـــد بِشـــرْ علـــى حـــيٍّ يمـــوت ولا صديـــق

١- عقبة قلاب : جبل ، وهو من محلة بني سعد على ليلة ، وفي عقبة قلاب قتلت بنو أسد بشر بن عمرو بـــن مَرْثَد الضُبَعي ، قتله عُمَيْلة الوالبي . البكري : معجم ما استعجم ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٨ . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٤ ، ج٧ ، ص٧٨ ــ ٧٩ .

٢- بشر بن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن ثعلبة . البكري : سمط اللآلئ ، ج٢ ، ص٧٨٠ .

٣- سبقت الترجمة لها ، ص٥٧ .

٤- انظر : البغدادي : خزانة الأدب ، ج٥ ، ص٥١ .

٥- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ص٢٥ ــ ٢٦ .

٦- آسى : أسِيت عليه أسى : حزنت . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أسا) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد الخيـر علقمـةَ بـن بشـر ... إذا نزَتِ [١] النفـوس إلى الحلـوق

وبعـد بني ضُبيعـةَ حـول بشـر ... كما مال الجـذوع مـن الحريـق

مَنَـتْ [٢] لهـمُ بوالبـةَ [٣] المنايـا ... بجنب قُـلاب للحَيـْن [٤] المسـوق

فكم بقُلاب من أوصال [٥] خِـرْق [٦] ... أخـي ثـقـة وجمجمـة فليـق

نـدامـى للملـوك إذا لَقـوهـم ... حُبـوا وسُقـوا بكأسهـمُ الرحيق

هـمُ جدعوا الأنوف وأوْعبوها [٧] ... فما ينساغ لي مـن بعـد ريقـي

تستفتح الشاعرة التعبير عن مصابها بـ " ألا " ثم بلفظ " أقسمت " وكلاهمـا يفيـدان التأكيد ، فماذا تؤكد ؟ تؤكد أنهـا لن تحزن بعـد حزنهـا ذلك على حيّ يموت في مـستقبـل الزمـان ، لمـاذا ؟ لأنـه لـم يبـق مـا ستحـزن عليه ؛ فقد ذهـب المقرّبـون منهـا ؛ زوجها وابنها ، وجماعة من قومها ، فتنامى الحزن وبلغ حدَّه ؛ فهان كلّ شيء دونه ! .

وقد وجدَتْ على زوجها وجْدا ، أذكى فيها عذوبة تكرار اسمه ثلاثـا ، وكأنهـا أرادتْ بذلك أن تُوهِم نفسَها ــ ولو للحظات ــ أنها تخاطبه خطابها الزوجيَّ العَفْويَّ الذي يكون بينَها وبينَه في حنايا بيتهما ، وتنتقل إلى ذِكْر ابنها الذي سمّته " الخير " بما يحوي هذا الاسم مـن فضائل ، ولو أنها وقفتْ قليلا لترقّبنا بدلاً يدلنا على هذا " الخير " ، أو عطف يبان يفسّر لنـا المقصود به ، فيظهر لنا المعنى جليّا وضّاء ، وهذا ما فعلته ؛ إذ سكبتْ لنا فـي الكـأس مـا

١- نزت : النزو : الوَثَبان . المصدر السابق ، مادة (نزا) .

٢- منت : المَنى : القدر ؛ مناه الله يمنيه : قدره . المصدر نفسه ، مادة (مني) .

٣- والبة : موضع بأذربيجان . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٤ ، ج٨ ، ص٤٤٠ .

٤- الحين : الهلاك . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حين) .

٥- أوصال : المفاصل ، أو الأعضاء ، أو مجتمع العظام . المصدر السابق ، مادة (وصل) .

٦- خِرق: الخرق من الفتيان : الظريف في سماحة ونجدة ،وتخرّق في الكرم : اتسع. المصدر نفسه ، مادة (خرق) .

٧- أوعبوها : وعب الشيءَ : استأصله أجمع . المصدر نفسه ، مادة (وعب) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توقعّناه منها ، فباحت باسم ابنها مجاورا لاسم أبيه ؛ فوضعتِ الفرع جانبَ الأصل ، ثم اشترطتْ لابنها موقفا عرَفته وثّابا إليه ؛ عندما تثِبُ النفوس إلى الحلوق هلَعا من الحرب ؛ فيفرّجها ويكشف غمارها ، وتتقدّم إلى بني ضُبيعة ؛ قوم زوجها ، فتصف مصرعهم مجدلين كأنهم جذوع نخل أصابها حريق فأمالها ، وفي هذا وصف دقيق لحال الموتى ولونهم معا ؛ فكل منهم مرميّ متمدّد على الأرض ، وقد أحالت الشمس ألوانهم إلى السواد ؛فتشبيهها هذا وتشبيهها السابق لابنها يذكران معنىً بما نزل به الآي الحكيم ، فقوله تعالى [١] : (وبلغتِ القلوبُ الحناجر) ، يرادف قولها : " إذا نزت النفوس إلى الحلوق " ، وقوله تعالى [٢] : (كأنهم أعجازُ نخْلٍ مُنقعر) يقارب أيضا قولها : " كما مال الجذوع من الحريق " ، وفي هذه دلالة ساطعة على استقامة ألسنة هذه الأمهات اللواتي قلن وولدن مَن يقول قولا مبينا ، يتنزل القرآن العظيم بلسانهم وبيانهم ؛ فيخاطبهم خطابا لا يبعد عن سلائقهم اللغوية التي اعتادوا عليها ، بل يرفدها من معينه بما يؤهلهم أن يكونوا أفصح الأمم .

ويقفنا تعبيرها بلفظ " الجذوع " على البيئة التي تعيشها ؛ فتستعير هذه الصورة من بيئتها التي تدأب على زراعة النخيل ، وإلا فقد يكون من الأحرى أن تصف الواقع بصورة بدَويَّة ، تستعيض فيها عن " الجذوع " بذِكْرَ شيءٍ آخرَ يليق بالبداوة والصحراء .

وتضيف إلى صورة الجذوع المحروقة صورة أخرى ، ترسم فيها مشاهد الأعضاء المبتورة ، والجماجم المفلوقة ، المترامية هنا وهناك على ميدان المعركة ، ولتحسين هذا المشهد المفزع في عين الرائي تعمد إلى إلباس تلك الأعضاء ثياب كرَمِ أهلها وثقتهم ، ومواقفهم عند الملوك قدرا وإكراما .

١- سورة الأحزاب ، الآية ١٠ .

٢- سورة القمر ، الآية ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم تختتم ببيانٍ أكثرَ إيضاحا لمكانة أهلها بأنهم كانوا أنوفا أي سادة مطاعين في قومهم وخصّتِ الأنوف لأنّ الحميّة والغضب والأَنَفَة يبدو في شممها وارتفاعها والتعبير بهذا التشبيه مشهور بين العرب ، ولا أشهر من قول الحطيئة يمدح [١] :

قومٌ هم الأَنْفُ والأذنابُ غيرُهمُ ومَن يسوّي بأنفِ الناقةِ الذَّنَبَا

وببوْنهم عنها دخلها من الفزع والخوف ما جعلها تتوجّس عواقب ما قد تصير إليه من سوء الحال ؛ من أجل ذلك جفّ ماء حلقها استجابةً لداعي ما شعَرتْ به .

وترسم لنا ببيتين آخرين مشهد المأتم الذي أُقيم لتأبين زوجها ؛ تقول [٢] :

وبِيضٍ قد قعدْنَ ، وكلُّ كُحْل بأعينهن أصبح لا يليق

أضاع بُضُوعَهنّ [٣] مُصاب بِشْرٍ وطعنةُ فاتكٍ فمتى تفيق

الواو في " وبيض "واو ربّ للتكثير ؛ فلا يتفق هنا أن تكون للتقليل ، لأنّ في هذا إنقاصا لشأن المرثي ، وهذه البيض قد أقعدهن من قيام هولُ الفجيعة بمقتل بِشْر ، فبكين وسالَ ماؤهن غزيرا من عيونهن الكحيلة ، فساح الكحل على وجناتهن في مشهد يمتزج فيه سواده بخدودهن البيض ، المفعمة بماء الشباب ورونقه ، في وقت يأملن فيه المهور الغالية بسبب عزتهن لوجود بشر ، ولكنّ مصابه أذلهن بعد عزّة ، فرخُصت مهورهن ، فأنكرت الشاعرة باستفهامها : " فمتى تفيق " خلاصَهنَّ من تلك الحال .

١- الحطيئة ، جرول بن أوس : ديوانه ، ط١ ، رواية وشرح : ابن السكّيت ، دار الفكر العربي ، بيروت ــ لبنان ، ٢٠٠١ م ، ص٣٤ .

٢- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ص٢٨ .

٣- بُضُوعَهُنَّ : جمع بُضْع : النكاح . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بضع) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظلّ الحزن في فؤاد زينب [١] اليشْكُريّة متجدّدا لا ينقطع ، تُذكيه الحسرة كما تُذكي الريح النار إذا خبَت ؛ فترى نفسها موقنة ببصيرتها أنها كقطيعٍ حِيل بينَه وبين إلفِه الذي هو من جنسه ، يطمئنّ بقربه ، ويرتاح إلى أُنسه وينعَم في ظلّه فغادره في صحراء واسعة البطون ، بعيدة الأرجاء ، لا يُهتدى من ضلالها ، تقول راثية زوجها [٢] :

على مالكِ بنِ الفِنْدِ أُرزاه حسرةً ... تجدّد لي حزنا إذا قلتُ ولّتِ

أراني كسِرْبٍ حِيل عنه أليفُهُ ... قوافِزُهُ [٣] في مَهْمَهٍ [٤] الخَبْتِ [٥] ضلّتِ

ويكون من المتوقع لنا أيضا أن تتعرض الشاعرات وهنّ يندبن أزواجهن إلى ذكر الليل ؛ لأنه الوقت الذي يخلو فيه الإلف بألفه ، فيتهامسان فيه بما يحلو لهما من لذيذ الكلام ، والسرير واحد ، واللحاف مشترك ، فها هي سهية [٦] زوج شداد العبسي تصف لنا حال مات عنها زوجها فحرمت مما كانت تنعم به ، وجنّ الليل عليها ، فمدّت يدها إلى مكان نومه من

١- هي " زينب بنت مهرة بن الرائد اليشكرية ، شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية ، حارب زوجها مالك بن فنده بن شيبان في حرب البسوس ، حتى قتل " . عمر رضا كحالة : أعلام النساء في عالمي الجاهلية والإسلام ، ج٢ ، ص١١٩ .

٢- بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ص٦١ . وانظر : عمر رضا كحالة : أعلام النساء في عالمي الجاهلية والإسلام ، ج٢ ، ص١١٩ . عبد البديع صقر : شاعرات العرب ، ص١٥٠ . عبد مهنا : معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام ، ص١١٧ ــ ١١٨ . عمر الأسعد : ديوان رثاء الأزواج ، ص١٧٥ . عزيزة فوال : معجم الشعراء الجاهليين ، ص١٦١ . عبد الحكيم الوائلي : موسوعة شاعرات العرب ، ج١ ، ص٢٦٠ .

٣- قوافزه : الخيل التي تثب في عدوها . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قفز) .

٤- مهمه : المفازة البعيدة . المصدر السابق ، مادة (مهه)

٥- الخبت : ما اتسع من بطون الأرض . المصدر نفسه ، مادة (خبت) .

٦- هي سهية أو سمية زوج شداد بن معاوية بن قراد العبسي ، خالة عنترة بن شداد . انظر : عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج٢ ، ص٢٢٦ . بشير يموت : شاعرات العرب ، ص٦٥ . عبد البديع صقر : شاعرات العرب ، ص١٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سريرها ، فَوَجَدَتْهُ خاليا ، فأوجستْ بجفاء النوم عن مقلتيها ، وأحسّت بهملان الدموع من عينيها ، تقول [١] :

جفاني الكرى [٢] وأنا في الغسقْ [٣] وساعدني الدمع لمّا اندفقْ

لفقدِ هُمامٍ مضى وقضى وقد زاد منّي عليه القلق

فمَن بعد شدادَ يحمي الحريم إذا الحربُ قامتْ وسال العرَق

ومن يردعُ الخيلَ يومَ الوغى ومن يطعنُ الخصمَ وسطَ الحدَق [٤]

ومن يكرم الضيفَ في أرضِهِ ومن للمنادي إذا ما زعَق [٥]

لقد صرتُ مِن بعدِه في ضنى [٦] وقلبي لأجلِ الفراق احترقْ

تساعدنا كلماتها " جفاني ، الدمع ، اندفق ، القلق ، ضنى ، احترق " على وصفِ حالتها النفسية بكلّ ما تحمل هذه الدوّال من مدلولات ؛ فهي مسهّدة الطرف ، باكية العين ، قلقة الحال ، مُضنية الجسم ، مشتعلة الوجدان ، على فراق زوجها المحامي عن الأعراض ، الماهر في الطعن ، ذي الكرم والنجدة ، وهذه من عيون المناقب التي تحبّها المرأة في الرجل " ،

١- الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص١٥٩ . بشير يموت : شاعرات العرب ، ص٦٥ ــ ٦٦ . عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ص٢٦٦ . عبد البديع صقر : شاعرات العرب ، ص١٧٢ . عبد مهنا : معجم النساء الشاعرات ، ص١٣٧ . عبد الحكيم الوائلي : موسوعة شاعرات العرب ، ج١ ، ص٣٢٣ . : عفيف عبد الرحمن : ديوان شعر الأيام ، ص٣٥١ .

٢- الكرى : النوم والنفاس . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (كرا) .

٣- الغسق : أول الليل . المصدر السابق ، مادة (غسق) .

٤- الحدق : جمع حدقة : السواد المستدير وسط العين . المصدر نفسه ، مادة (حدق) .

٥- زعق : الزعق : الصياح . المصدر نفسه ، مادة (زعق) .

٦- ضنى : المرض . المصدر نفسه ، مادة (ضنا) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قيل لابنة الخُسّ [١] : [٢] " أيّ الرجال أحبّ إليك ؟ قالت : السهل النجيب ، السمْح الحسيب ، الندْب [٣] الأريب ، السيد المهيب " ، أما بيت الشاعرة الأخير فقد اختارت أن تزفر به آهاتها وملؤه التأكيد والتحقيق لما آلت إليه من مرض وسقم ، وكيف لجسم أن يصحّ بقلب أحرقته لوعة الفراق ؟ ! .

١- ابنة الخس أو الخص : هي هند بنت حابس الإيادي ، وهي الزرقاء . انظر : الجاحظ : البيان والتبيين ، ج١ ، ص٣١٢ ــ ٣١٣ . ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٦٨ .

٢- السيوطي ،عبدالرحمن ، جلال الدين ، (ت٩١١هـ) : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، د.ط ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ــ لبنان ، د.ت ، ج٢ ، ص٥٤١ .

٣- الندب : رجل ندب : خفيف في الحاجة ، سريع ظريف . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ندب) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

الرثاء القبَلي

أولا : الرثاء الجماعي :

لم تكن الشاعرات الجاهليات وهنَّ يعشن أحداث قبائلهن ليرثين الأفراد المقرّبين منهنّ نسبا حسب ، بل شمل رثاء بعضهن أبناء قبائلهن الذين سقطوا في معمعان الحرب ذوْداً عن القبيلة ؛ أرضها وعرضها ، فبثثن ما شعرْنَ به تجاه فقْد هؤلاء الأبطال ، وعبّرن عن فداحة الخسارة التي تلحق بالقبيلة ، جرّاء ذلك من نقصان في العدد الذي يمثّل قوة دفاع تثبُتُ به أمام المعتدين ؛ " ولذلك شاع في هذا الرثاء البكاءُ على أبطال القبيلة والقَبول بالقدر المقدور ؛ لأن القبائل العربية كلها أو جلها تلتقي في ملتقى واحد هو النزوع الدائم إلى القتال ، والرحيل عن المنازل إلى المقابر ، في موكب لا ينقطع [١] " .

نقرأ من ذلك مقطوعة للخِرْنِق [٢] بنت بدْر بن هَفّان ، تجسّد فيها تلاحم قومها ، وقوتهم في درء أعدائهم عنهم ، وسلوكهم الأخلاقية فيما بينهم ، تقول [٣] :

لا يبعدن قومي الذين همُ ... سمُّ العُداة و آفة الجُزُرِ

النازلون بكلّ مُعتركٍ ... والطيبيون معاقدِ الأُزُرِ

١- غازي طليمات ، و عرفان الأشقر : الأدب الجاهلي ، ط١ ، دار الإرشاد ، حمص ــ سورية ، د.ت ، ص٢٠٢ .

٢- سبقت الترجمة لها ، ص .

٣- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ط١ ، تحقيق : يُسْري عبد الغني عبدالله ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م ، ص٤٣ ــ ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن يشربوا يهبوا وإن يدعوا يتواعظوا عن منطق الهجر

قوم إذا ركبوا سمعت لهم لغطا [١] من التأييه [٢] والزجر

والخالطين نحيتهم [٣] بنضارهم [٤] وذوي الغنى منهم بذي الفقر

هذا ثنائي ما بقيت عليهم فإذا هلكت أجنني [٥] قبري

تستهل رثاءها إياهم بدعائها لهم : " كأنها قالت : لا يبعد الله قومي النازلين [٦] " بساحات الحروب ، وتلجأ إلى التشبيه البليغ ؛ فتشبههم بسمّ العُداة ، وكأنهم أفعى ذات سمّ قاتل يقضي على الملدوغ قضاءً محتوما ، ثم إنهم هُمْ آفة الجزر لكثرة ما ينحرون لإكرام ضيوفهم ، وقد أحسنتْ عطف " آفة الجزر " على " سمّ العداة " فكلا الأمرين هو جزّ في الواقع ؛ فهم يقطعون رقاب أعدائهم في الحرب ، وهم يذبحون الجزور لضيوفهم ، وكأنهم آفة أي عِلّة تقضي على ما أرادوا القضاء عليه من رقاب فلا تبقى .

ثم تنتقل إلى وصف مكانٍ محدّد من أجسادهم هو مكان معاقد الأزر ؛ حيث يعقد الرجل إزارَه عند سُرّتِه ؛ فتصف ذلك المكان بالطيب كنايةً عن عِفّة فروجهم التي لا تأتي الفاحشة ، وهي بهذا الكلام أيضا تدلنا على بعض أنواع الكسوة العربية التي كان يلبسها العرب في جاهليتهم ، ومن بينها الإزار [٧] .

١- لغطا : الأصوات المبهمة المختلطة ، والجلبة لا تفهم . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لغط) .

٢- التأييه : الصوت ، أيهتُ بفلان تأييها إذا دعوته وناديته . المصدر السابق ، مادة (أيه) .

٣- نحيتهم : الدخيل في القوم . المصدر نفسه ، مادة (نحت) .

٤- نضارهم : الخالص من كل شيء . المصدر نفسه ، مادة (نضر) .

٥- أجنني : جن الشيء يجنه جنا : ستره . المصدر نفسه ، مادة (جنن) .

٦- المرزباني : أشعار النساء ، ص١٠٦ .

٧- انظر : الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ج٣ ، ص٤٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلك غريزة الشهوة لديهم مَصونة بالعفّة ، أما غريزة البطن فيهم فلا أَثَرَةَ لها بطعام أو شراب دون جماعتهم ، فهم إذا شربوا انتَشَوْا ؛ فوهبوا وأعطوا ، وإذا أمسكوا عن الشرب ؛ تناصحوا بعدم الفحش في الكلام ؛ فطهُرَتْ أفواههم كما طهرت أنسابهم ، وهم من كثرة العدد ما يجعلك تسمع لهم جَلَبَةً وأصواتا مبهمة لا تعرِف لها مصدرا إلا مصدرا لهُمْ جميعا ، حتى ليتخيلهم المرء أنهم يسيرون في صفوف يصاقب بعضها بعضا ، ويقارب أولها آخرَها ، مقاربة الخيوط في الثوب الواحد ؛ فلا مكان فيه لخرْق يحتاج إلى رقْع . ويبدو من هذا فخر الشاعرة بكثرة قومها وتعاضدهم .

وتُجَلِّي هذه الأبيات مَنْقبة أخرى لهم هي المساواة وعدم ظهور الطبقيّة بينهم ؛ فلا تمييز بين أصيل النسب بالقبيلة ، وبين الدخيل عليها ، وبين الغني وبين الفقير ؛ فنسبهم واحد هي القبيلة ، ومالهم مشترك بين أفراد القبيلة أيضا . ثم تختتم بأن ثناءها باق فيهم تَـذَأْبُ على نشرِه ، والتغنِّي به ، فإذا ماتت قام عذرُها في ترك الثناء عليهم .

وتُؤبِّن عاصِية [1] البولانيّة بعض من قتل من قومها بالدموع المنهمرة ، مازجةً رثاءها بالهجاء والانتقاص من قاتليهم ؛ تقول [2] :

١- هي عاصية من بولان بين غصين بن عمرو بن الغوث بن طيء . عدتها المراجع المتأخرة جاهلية ، وهذا ما أميل إليه ؛ بآية ما تشي به لغة الأبيات وأسلوبها ، وما ينم عنه الموقف من أثآر بين القبائل العربية قبل الإسلام ، فضلا عن كون شعرها مقطوعة توافق جل شعر بنات جلدتها . انظر : التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ج٢ ، ص٩٢١ . ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٤٠٠ . وانظر : عفيف عبد الرحمن : معجم الشعراء الجاهليين ، ص١٤١ . عزيزة فوال : معجم الشعراء الجاهليين ، ص٢٠٥ . عبد مهنأ : معجم النساء الشاعرات ، ص١٦٩ .

٢- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ج٢ ، ص٩٢١ ــ ٩٢٢ .

والأبيات لـ " امرأة من طيء " في شرح المرزوقي لديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٥٤٨ ــ ١٥٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعاصي جودي بالدموع السواكـــب وبكـــّي لك الويلات قتلى محارب [١]

فلـــو أن قومـــي قتّلتهـــم عمارة [٢] من السروات[٣] والرؤوس الذوائب[٤]

صبرنـــا لما يأتي به الدهر عامدا ولكنمـــا أثـــآرنـــا [٥] في مُحـــارب

قبيـــل لئـــام إن ظهرنـــا عليهـــم وإن يغلبونـــا يوجـــدوا شرَّ غالب

تنادي نفسها باستخدام أداة النداء " أ " وهي تدلّ على قرب المنادى منها ؛ فـــلا أحـــد أقرب إليها من نفسها ، قاصدة بأسلوب النداء التنبيه والتنويه لعظم رزيتها بقومها ، ثم ترخّم اسمها " عاصي " وفي الترخيم ما يدلّ على السرعة أو المرض ، وهي هنا إلى المرض ألصق منها بالسرعة ؛ لأن الحزن عاطفة مشبوبة متوتّرة تصل أحيانا إلى حدّ المرض نتيجة مـــوت عزيز غال على الإنسان ، ثم تطلب من نفسها أن تكون كريمة بسكب الدموع وهو طلب النفس من النفس ؛ فتبالغ في الطلب بالفعل " بكّي " ؛ لتستمطر أكثر ما تستطيعه من ماء شـــؤونها ، ثم هاهي تُفصح عما أورثها المصاب بقولها : " لك الويلات " أي : " الحزن والهلاك والمشقة من العذاب [٦] " الذي ضاعفه عليها أن قاتلي قومها ليسوا من أندادهم الأكفاء ، بل هم من قبيلة " مُحارب بن خَصَفَةَ بن قيْس عَيْلان ، قبيلة محقورة عند العرب [٧] " ، " فإن ظفر قومها بهم لم

١- محارب : قبيلة من فِهر . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حرب) .

٢- عمارة : حي عظيم يطيق الانفراد . التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج٢ ، ص٩٢١ .

٣- السروات : الرؤساء . المصدر السابق ، ج٢ ، ص٩٢١ .

٤- الذوائب : الأعالي . المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٩٢١ .

٥- أثآرنا : جمع ثأر . المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٩٢٢ .

٦- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ويل) .

٧- الأندلسي : نشوة الطرب ، ج٢ ، ص٥٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يستحقّوا الافتخار للؤم عدوّهم ، وإن هم غلبوا قومها وُجِدوا شرَّ غالب [١] " . يقول امرؤ القيس [٢] :

وإنك لم يفخرْ عليك كفاخرٍ ضعيفٍ ولم يغلبْكَ مثلُ مُغَلَّبِ .

وكفى بقولها : " فلو أن قومي قتّلتهم عمارة " أنْ يذكّرنا كذلك بالمثل العربي الذي يقول : " لو ذات سوار لطمتني . وأصله أن امرأة لطمت رجلا ؛ فنظر إليها فإذا هي رثّة الهيئة عاطل [٣] " ، فقال المثل .

وتُفجع سارة [٤] القُرظيّة بقومها من يهود عندما يقتلهم أبو جُبَيْلَة [٥] بذي حُرُض [٦] ، تقول [٧] :

بنفسي أمة[٨] لم تغنِ شيئا بذي حُرُض تُعفِّيها [٩] الرياحُ

كهولٌ من قريظة أتلفتها سيوفُ الخزرجيةِ و الرماحُ

١- انظر : التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج٢ ، ص٩٢٢ .

٢- امرؤ القيس: شرح ديوان امرئ القيس ، ط٧ ، شرح : حسن السندوبي ، المكتبة الثقافية ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م ، ص٤٩ . وانظر : امرأ القيس : ديوانه ، شرح : محمد الاسكندراني ، و نهاد رزق ، ص٥٧ .

٣- العسكري : جمهرة الأمثال ، ج٢ ، ص١٩٣ . وانظر : البكري : فصل المقال ، ص٣٨١ . الميداني : مجمع الأمثال ، ج٢ ، ص٢٠٢ .

٤- شاعرة جاهلية كانت من يهود يثرب من بني قريظة من ولد الكاهن بن هارون بن عمران أخي موسى بن عمران . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٢ ، ص٧٧ ــ ٨١ .

٥- أبو جبيلة الغساني ، أحد ملوك اليمن . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٢ ، ص٧٩ . البكري : معجم ما استعجم ، مج١ ، ج٢ ، ص٤٣٩ . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٣٦ .

٦- ذي حرض : وادي يليل بالمدينة عند أحد . انظر البكري : معجم ما استعجم ، مج١ ، ج٢ ، ص٤٣٩ . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٣٦ .

٧- الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٢ ، ص٨٠ . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٣٦ .

٨- أمة : وردت في الأغاني بالرفع وأميل إلى نصبها بفعل محذوف تقديره أفدي ؛ فهو أنسب لموقف الرثاء .

٩- تعفيها : عفت الرياح الآثار إذا درستها ومحتها . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عفا) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رُزِئْنَا والرزيَّةُ ذاتُ ثِقْلٍ يَمُرُّ[١] لأهلها الماءُ القَراحُ[٢]

ولو أَرِبُوا[٣] بأمرِهِمُ لجالتْ هنالكَ دونَهمْ جَأْوا[٤] رَداحُ[5]

يُحكى أنه " لما استولى اليهود في الزمن القديم على المدينة ، وتغلّبوا عليها كان لهم ملك يقال له الفِطْيُون ، وقد سَنَّ فيهم سنَّةً ألا تدخل امرأة على زوجها حتى يكون هو الذي يفتضُّها[٦] قبلَه فبلغ ذلك أبا جُبَيْلَةَ أحدَ ملوك اليمن فقصد المدينة وأوقع باليهود بذي حُرُض وقتلهم " .

" تبكي أمَّتَها التي لم تعدْ تملك من أمرها ولا من أمر غيرها شيئا ، ولم تستطع أن تدفع عنها ما رُزِئَتْ به ، وسارةُ جزِعة أيضا ؛ لأن قومها لم يتدبّروا الأمرَ قبل وقوعه ، ولم يفطِنوا لما كان يُبيّت لهم وقد زعمت أنهم لو بصروا بأمرهم مع ما في حوزتهم من العدة والعتاد ما وقع الذي وقع ، وما كانوا أحيط بهم[٧] " .

ويمكن وصف أبياتها ببُعدٍ دَلاليٍّ آخرَ ؛ فهي تبدأ مفدِّيةً قومها بنفسها ، وتسمِّيهم " أمَّة " ، و " كلُّ جِيلٍ من الناس هم أمّة على حِدَة ، والجنْس من كلّ حيَ[٨] " . وفي القرآن الكريم : (... لَيْسُوا سَواءً مِنْ أهلِ الكتابِ أمّة ... [٩]) ؛ فميّزتِ الشاعرة بلفظ " أمّة " جنسَها اليهوديَّ عن سواه ، الذي لم يعدْ يملك شيئا يدفع به القوة الهائلة التي اقتلعتهم ؛ فأفنتهم ،

١- يمر : مر الشيء يمر . المر نقيض الحلو . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (مرر) .

٢- القراح : الماء الذي لم يخالطه شيء . المصدر السابق ، مادة (قرح) .

٣- أربوا : أرب بالشيء : درب به وصار فيه ماهرا ، فهو أرِبٌ . المصدر نفسه ، مادة (أرب) .

٤- جأوا : تخفيف جأواء : كتيبة جأواء : عليها صدأ الحديد وسواده . المصدر نفسه ، مادة (جوأ) .

٥- رداح : كتيبة رداح : ضخمة . المصدر نفسه ، مادة (ردح) .

٦- الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج ٢ ، ج٣ ، ص١٣٦ .

٧- أحمد محمد النجار : شعراء اليهود في الجاهلية وصدر الإسلام ، د.ط ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٨م ، ص٦٩ .

٨- ابن منظور : لسان العرب ، ماداة (أمم) .

٩- سورة آل عمران ، الأية ١١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهي " الرياح " ، وتقصد بذلك جيش أبي جُبيلة والخزرج بالمدينة ، ولم يغن قومها كونهم كهولا ذوي عقل وتجربة ؛ ليسوا بأحداث ، من تدبير وسيلة مُحكمة لنجاتهم ، بل وقعوا في شرك القضاء المحتوم ؛ لذلك ثقلت عليها المصيبة ، وذاقت مرارة الفجيعة ، وتمنَّت لو فطنوا لما دُبِّر لهم ؛ فخاضوا عَوان الحرب بكتيبتهم الضخمة المتحصِّنة بالحديد .

ولموقع يهود يثرب بين ظهراني العرب لم تتعرض الشاعرة لقاتلي قومها بهجاء أو تعريض بانتقاص ، وآثرت عدمَ تهييجهم ؛ حرصًا على حياة مَن بقيَ منهم ، يقول الله عزَّ وجلّ في اليهود : [١] (ولَتَجِدنَّهمْ أحرصَ الناسِ على حياة ...) .

وتقِف رَيْطَة [٢] بنت عاصِم بدارِ عشيرتها ، وربما كانت غائبةً عنها ، فإذا بالبواكي حاسراتِ الرؤوس ، فيفجؤها الحال ؛ فتقول [٣] :

وقَفتُ فأبكتني بدارِ عشيرتي ... على رُزئهِنَّ الباكيات الحواسرُ

غَدَوْا كسيوفِ الهندِ وُرادَ حومَةٍ [٤] ... من الموتِ أعيا وِردَهُنَّ المَصادِرُ

١- سورة البقرة ، الآية ٩٦ .

٢- هي ريطة بنت عاصِم فقط في شرحَيْ المرزوقي و التبريزي لديوان حماسة أبي تَمَّام ، والمنازل والديار لأسامة بن مُنقِذ . وفي أعلام النساء لعمر رضا كَحّالة : " شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية " وفي شواعر الجاهلية لرغداء ماردِيني : " ويبدو أن قولها كانَ في يومٍ من أيامِ العرب في الجاهلية " .
انظر : المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام مج ٢ ، ج ٣ ، ص ١١٠٠ . التبريزي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، ج ١ ، ص ٦٨١ . ابن منقذ المنازل والديار ، ص ٢٧٨ .
وانظُر عمر رضا كحّالة : أعلام النساء ، ج ١ ، ص ٤٧٧ . رغداء ماردِيني : شواعر الجاهلية ، ص ٧٢ .

٣- المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، مج ٢ ، ج ٣ ، ص ١١٠٠- ١١٠٢ . وانظُر : الفرزدق : ديوانه ، ج١ ، ص٢١٦ ، تنسب الأبيات إليه ، وأرجح أنها لريطة المذكورة ؛ بدليل أن كلا من المرزوقي والتبريزي وابن منقذ قد نسبوها إليها ، ولم يتعرضوا بالإشارة إلى نسبتها للفرزدق ، كما أن لغة الأبيات تقربنا من كونها لشاعرة ؛ ألا نرى أن الشاعرة قد أوقفتها الباكيات الحواسر ؛ فأبكتها ، وهذا ما لا يليق أن يقوله رجل كالفرزدق إذ يكون من الأحرى به أن يقصد مكان الرجال لا أن يقصد مآتم النساء . التبريزي ، ج١ ، ص ٦٨١-٦٨٢ . ابن منقذ : المنازل والديار ، ص ٢٨٧ .

٤- حومَة : حومة القتال : مُعظَمُه وأشد موضعٍ فيه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حوم) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فوارِسُ حامَوْا عن حريمٍ[١] وحافظوا بـدارِ المنايـا والقنـا متشاجِرُ[٢]

ولو أنَّ سَلمى[٣] نالَها مِثـلُ رُزئِنـا لَهُدَّت[٤] ولكـن تَحمِلُ الرُزءَ عامِرُ[٥]

تقـف بدار عشيرتهـا فيشُجيها بكـاءُ الباكيات وهنّ حواسر ؛ كاشفات الـرؤوس والذراعيـن [٦] في مشهـد مأتميٍّ جماعـيٍّ ؛ فيحملن الشاعـرة علـى البكـاء معهـن ، وكأنّ وقوفهـا كان بإرادة منهـا ، بينمـا كان بكاؤهـا لسبب خـارجيٍّ فـرَضَ نفسَـه عليهـا ؛ فلم تستطـعْ دفعَـه لغلبتِـه عليهـا فبكـتْ على رجـال عشيرتهـا الذيـن " ابتكـروا في خِلَقِهـمِ وتجرُّدهـم وصفائهـم ونفاذهم كسيـوف الهنـد [٧] " فوردوا أشـدَّ موضعٍ مـن المعركـة ، فلم يتمكّنـوا من الصدور عنـه وأعجزهـم ذلك منـه ؛ فهلكـوا ! وبهلاكهـم عزَّ المحامـي عن حرمـات العشيـرة ، حـالَ الرمـاح متداخلـة ، مُـشيـرة بذلـك إلى " أنّ للطعـن تلاحقـاً كمـا أن للقنـا في الاختـلاف تداخـلا [٨] " .

ثـمّ تعقـد مقارنـة في الصبـر والاحتمـال بيـن " سلمـى " ؛ الجبـلِ ، وبيـن قومهـا بنـي " عامـر " ، فتضَـعُ مـن احتمـال الجبـل بقولهـا " فَهُـدَّتْ " ، وترفـع مـن احتمـالِ وصبْـرِ قومهـا بقولهـا : " تحمِـل الـرزْءَ " . وفي هـذا بيـان لمـا في اتحـاد العشيـرة مـِن تماسـكٍ وثبـاتٍ يفوقـان ثبـاتَ الجبـال وصلابتَهـا .

١- الحريم : الذي حرُمَ مَسُّه فلا يُدنى منه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حَرُم) .

٢- متشاجر : متداخل . المصدر السابق ، مادة (شجر) .

٣- سلمى : على وزنِ فَعلى : سُمّيَ باسمِ المرأة التي نزلته ، وهو أحد جبلَيْ طيء ، البكري : معجم ما استَعجَم ، مج ٢ ، ج ٣ ، ص ٧٥٠ . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج ٣ ، ج ٥ ، ص٦٠ .

٤- لهُدَّت : الهَدُّ : الهدم الشديد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (هدد) .

٥- عامر : أبو قبيلة ، وهو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . المصدر السابق ، مادة (عمر) .

٦- انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حسر) .

٧- المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١٠١ .

٨- المصدر السابق ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيوتهم لأنّ اللحم عندَهم يُؤكل حين ذبحه ، وكيف يبقى وصفايا إبلهم تنحر إبّان حبلها على الشوامخ ؛ ليهتدي الضيف إلى نار القرى [١] فيأكلون من قدور معدودة عهدتِ الوفاءَ منهم بسبب ما يطبخون فيها من شحمٍ كنايةً عن سمين الجَزور وكثرة لحمها ؛ لأنّ الجزور إذا صادفت مرعىً خصبا ألحمتْ فكثر شحمُها .

ثم تختتم بأنها كانت في عزٍّ رفيعٍ لوجود قومها ، لكنّ الحال قد تبدّل بقتلهم فذلّ بعد عزّة ، ووقَع بعد رفعة بسبب تهدُّم الأعمدة ، ولا سبيل إلى من يرفع العزَّة مكانَها الأول ؛ لذهاب الرجال .

ويعصف الخلاف والقتال بين قوم أُمامة [2] بنت ذي الإصبُع العَدْواني ، فترى قومها يقتل بعضهم بعضا ؛ فينكشفون عن قلة في العدد بعد كثرة . تقول [٣] :

كم من فتىً كانت له مَيْعَةٌ [٤] أبلجَ مثلِ القمرِ الزاهرِ

قد مرَّتِ الخيلُ بحافاتِهِ كمرِّ غيثٍ لَجِبٍ ماطرِ

١- نار القرى : يوقدها الجواد الليل كله في ليالي الشتاء وغيرها ؛ ليستدل بها الأضياف . الأندلسي : نشوة الطرب ، ج٢ ، ص٨٠٠ .

٢- هي أمامة بنت ذي الإصبع العَدواني حرثان بن محرث بن ثعلبة بن سيار بن ربيعة ، أحد بني عَدوان ، وهم بطن من جديلة ، حكيم شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية ، وسبب لقبه بذي الإصبع أن حية نهشته على إصبعه فشلت ، فسمي بذلك ويقال : إنه عاش مائة وسبعين سنة ، ولأمامة ابنته هذه يقول ورأته قد نهض فسقط ، وتوكأ على العصا فبكت ، فقال :

جزعت أمامة أن مشيت على العصا وتذكرت إذ نحن م الفتيان

لا تعجبن أمام من حدث عرا فالدهر غيرنا مع الأزمان

انظر : ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج٢ ، ص٦٩٧ . الأصفهاني : الأغاني ، ج٣ ، ص٦٢ و ٧٥ ــ ٧٦ . الآمدي : المؤتلف والمختلف ، ص١٧٠ . المرتضى : الأمالي ، ج١ ، ص٢٤٣ .

٣- الأصفهاني : الأغاني ، ج٣ ، ص٧٥ .

٤- ميعة : ميعة الشباب : أوله وأنشطه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ميع) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ترى القلة في قومها ؛ فتتذكر كثرتَهم ؛ من أجل هذا تبدأ رثاءها إياهم بـ " كم " الخبرية التكثيرية [١] ؛ لتدلنا على عدد قبيلتها في الزمان الماضي ، إذ " كانت " تزخر سماؤها بالفرسان الشباب ذوي الوجوه المشرقة كإشراقة القمر ؛ لما يجري فيها من رونق الشباب ونضارته ، وقد خبروا مرور الكتائب ورجالها ، واختلطوا بصخبها ؛ من هَمْهَمَة فرسان ، وحَمْحمة خيول ، وصليل سيوف ، وقعقعة حديد ، وكأنّ مُعتركهم بما فيه من جيَشَانِ وثورانِ سحابةٌ ذات قصْفٍ تَجِفُ منه القلوب ، وبرْق يخطف الأبصار . ثم تحقّق لنا الواقع الذي آل إليه قومها :

قد لقيتَ فَهْمٌ [٢] و عَدوانها [٣] قتْلا وهُلكا آخر الغابر

كانوا ملوكا سادة في الذرى دهرا لها الفخر على الفاخر

حتى تساقَوْا كأسهم بينهم بغيا فيا للشارب الخاسر

تُفيد أبياتها بأنّ قومها قد قتل بعضهم بعضا ، وهم من جرثومة واحدة ؛ قَيْس بن عَيْلان ؛ يُجلِّي ذلك قولها : " فَهْم وعَدْوانها " دليل على وَحْدَة النسب لكلا الحيَّين ، ويظهر تحسُّرها على ما فاتَ من أيام اجتماع شملهم ؛ أيام كانوا ملوكا يفخرون على غيرهم بوَحْدتهم وأُلفتهم ، حتى تساقوا المنايا بينهم من كؤوس الظلم فوقعت عليهم الخسارة ؛ فاتصدع جدارهم بعد التئام ، واندثرت أوطانهم بعد عمران :

بادوا فمن يحلل بأوطانهم يحلل برسم مقفر داثر .

١- انظر : ابن هشام : مغني اللبيب ، ص٢٠٧ .

٢- فهم : قبيلة أبو حي ، وهو فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (فهم) .

٣- عدوانها : بطن من جديلة ، وهو عدوان بن عمرو بن سعد بن قيس بن عيلان . الأصفهاني : الأغاني ، ج٣ ، ص٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتنشب حرب الفِجار الآخر [١] ، فيسقط فيها صرعى من قريش ، وأُميمة [٢] بنت عبد شمس ترقُب الحدَث ؛ فيهولها الأمر ويسوؤها الحال ؛ فترى الليل عليها طويلا ، فتبيته سميرةَ الهموم والنجوم ، تقول [٣] :

أبى ليلك لا يذهب ... ونيط [٤] الطرف بالكوكب

و نجم دونه الأهوا ... ل بين الدلو و العقرب

وهذا الصبح لا يأتي ... ولا يدنو ولا يقرب

يمنعها الحزن نومها ، ويتعلق طرفها بالكوكب البعيد ، إشارة إلى أن ما تطلبه من أمل في حياة قومها أمسى بعيد المنال ، كبعد الكوكب عنها ، ثم تقلب طرفها من نجم إلى نجم ؛ لعلها تدرك حلا أو نجاة لموقفها تأتي من السماء ، والصبح حيث هو لا يتحرك ؛ فينكشف لها عمّا يُمكن أن تتسلى به ؛ فيخرجها من ليلها البهيم الرتيب بسبب :

بعقر [٥] عشيرة منا ... كرام الخِيم [٦] والمنصب

أحال عليهم دهر ... حديد الناب والمخلب

فحلّ بهم و قد أمنوا ... ولم يقصر ولم يشطب [٧]

وما عنه إذا ما حلّ ... من منجىً ومن مهرب

١- حرب الفجار الآخر : بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن . أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٥٠٦ .

٢- أميمة بنت عبد شمس بن عبد مُناف . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٥٢٥ . الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٢ ، ص٣٨ ــ ٣٩ و ٥٣ . ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٧٧ .

٣- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٥٢٥ ــ ٥٢٦ . وانظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٢ ، ص ٥٣ ــ ٥٤ . ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٧٧ ــ ٤٧٨ .

٤- نِيط : ناط الشيءَ : علّقه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نوط) .

٥- عقر : يقال : ما رأيت كاليوم عقيرة وسط قوم : للرجل الشريف يقتل . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عقر) .

٦- الخيم : الشيمة والطبيعة والخلق والسجية والأصل . المصدر السابق ، مادة (خيم) .

٧- يشطب : شطب عن الشيء : عدل عنه . المصدر نفسه ، مادة (شطب) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذن ، فسبب حزنها وذهاب نومها هو قتل عشيرتها ، التي هي منها بدليل قولها : " منا " ، ذات الخصال الكريمة ، والرُتَب الشريفة ، ولكن لا نجاة لهم من الدهر الذي هجم عليهم هجوم سبُع قاتل ؛ فوقع عليهم دون أن يعدل عنهم إلى غيرهم ، بل كانوا مقصده الأوحد ، ولا مناص لهم عنه .

ثم هاهي يجيش فؤادها بالحزن ؛ فتستمطر من عينها أغزر الدموع ، باسطة لنا سبب بكائها على عشيرتها :

ألا يا عين فابكيهم ... بدمع منك مستغرب [١]

فإن أبكي فهم عزي ... وهم ركني وهم منكب

وهم أصلي و هم فرعي ... وهم نسبي إذا أنسب

وهم مجدي وهم شرفي ... وهم حصني إذا أرهب

وهم رمحي وهم ترسي ... وهم سيفي إذا أغضب

فتعدّ لعشيرتها أحدَ عشرَ سبباً جعلها تبكي عليهم ، وهذه الأسباب قد سبكتها جميعا بصيغة الجملة الاسمية ؛ " فهم عزي ، وهم ركني ، وهم منكب ... " ولم تقيّدْها بزمن محدّد ، بل جعلتها صالحة لكل زمان ، فهكذا شأن حالها في زمن حياة قومها ، تاركة لنا أن نعرف منقلبها بدونهم لِعَفْوِ الخاطر ، متوقّعين لها نقيضَ ما ذكرتْ .

١- مستغرب : استغرب الدمع : سال . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (غرب) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونسمعها في أبيات أُخَر تطرَب لتلك المكارم التي كانت تزيّن عشيرتها ، فتعدّدها على سبيل الكثرة ، تقول :

فكم من قائل فيهم ... إذا ما قال لم يكذب

وكم من ناطق فيهم ... خطيب مِصقع مُحرب [١]

وكم من فارس فيهم ... كميٌّ معلم مِحرب [٢]

وكم من مِذره [٣] فيهم ... أديب حولَه مغلب [٤]

وكم من جحفل فيهم ... عظيم النار والموكب

وكم من خضرم [٥] فيهم ... نجيب ماجد منجب

وتطلب جَنوب [٦] بنت الحَزَن من عينها أن تجود بدموع منهمرة ، كانهمار الماء الغزير من السحاب على قومها ؛ تقول [٧] :

١- مُحرب : لا معنى لها ، وأضنها تصحيفا ، والتصويب عن الأغاني : " معرب " : رجل معرب : إذا كان فصيحا . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عرب) .

٢- مِحرب : رجل محرب : شديد الحرب شجاع . المصدر السابق ، مادة (حرب) .

٣- مدره : المقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال . المصدر نفسه ، مادة (دره) .

٤- مغلب : أديب حوله مغلب : هذا العجز أشكل معناه ، ولعل الصحيح كما ورد في الأغاني : " أريب حول قلب " : حول بتشديد الواو أي بصير بتحويل الأمور ، وهو حول قلب . المصدر نفسه ، مادو (حول) .

٥- خضرم : الجواد الكثير العطية ، مشبه بالبحر الخضرم ، وهو الكثير الماء . المصدر نفسه ، مادة (خضرم) .

٦- هي جنوب بنت الحزن بن مرة الهذلية ، راثية عامر بن عبيد ، وهو من خزاعة ، سيد قومه ، يقال له : مجمع ؛ لأنه جمع خزاعة من أفناء القبائل على حلف بني مدلج ، فخرج بهم غازيا هو وابن أخ له ، فقتلا في تلك الغزاة ؛ فقالت جنوب ترثيهما ومن قتل معهما من قومهما . انظر : السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٦٠ ــ ٨٦١ .

٧- المصدر السابق ، ج٢ ، ص٨٦١ ــ ٨٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألا يـــا عيـــن مـــا جـــودي بهمـــر على قتلـــى بني كعـــب بن عمرو [١]

أصابتهـــم قبـــائـــل مـــن هـــذيـــل وآدتهـــا [٢] بنـــو سعـــد بـــن بكر [٣]

يظهر أنها تبكي على قتلى من قومها ؛ هذيل وقد تعاورتهم رماح بني أبيهم ، تعينهم على ذلك قبيلة بني " سعد بن بكر " ، وإذا قاتلت القبيلة بعضها بعضا كان الخطب أفدح ، والمصاب أعظم ؛ لأنّ الأمر يكون حينئذ كما يقول طَرَفة بن العبد البكري [٤] :

وظلـــم ذوي القربى أشـــد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

لأجل هذا رغبت الشاعرة في دموع منهمرة ، تخفّف عنها ما تلقاه من أسى شديد على قتلى قومها ، وجزع على اضطراب صفوفهم ، وتفرق جماعتهم .

وترثي الحارثية [٥] قتلى قومها في يوم أرْمام [٦] ؛ فتقول [٧] :

شقيـــقٌ [٨] وحرمـــيٌّ [٩] أراقا دماءنا وفارس هـــدّاج [١٠] أشابَ النواصيا

١- بنو كعب بن عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن لحيان بن هذيل . انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص١٩٦ ــ ٢١٣ .

٢- آدتها : أعانتها . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٦٢ .

٣- بنو سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان . ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٢٦٥ .

٤- طرفة بن العبد : ديوانه ، ص٥٢ .

٥- لم أعثر لها على ترجمة .

٦- يوم أرمام : لباهلة على بني الحارث ومراد وخثعم . ابن الكلبي ،أبو المنذر ، هشام بن محمد بن السائب (ت٢٠٤هـ أو ٢٠٦ هـ) : أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها ، د.ط ، تحقيق : حسين نصار ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ــ مصر ، ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٣م ، ص١٠١ . وانظر : أبا عبيدة : أيام العرب ، ج٢ ، ص٥٧٦ . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج١ ، ج! ، ص١٢٨ . البغدادي : خزانة الأدب ، ج١ ، ص١٨٨ .

٧- ابن الكلبي : أنساب الخيل ، ص١٠١ . وانظر : الزَّبيدي : تاج العروس ، مادة (هدج) .

٨- شقيق : شقيق بن جزء بن رباح الباهلي . المصدر السابق ، مادة (هدج) .

٩- حرمي : حرمي بن ضمرة النهشلي . المصدر نفسه ، مادة (هدج) .

١٠- هدّاج : ككتان فرس الريب بن الشريق السعدي . ابن الكلبي : أنساب الخيل ، ص١٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتعبّر ببيتٍ فَـذٍّ عن ذلك اليوم الذي سُفكتْ فيه دماء قومها ، وقد تعمّدتْ من إعـلان اسمي " شقيق وحرمي " إشهارا لضرهما وإيقاضا لقومهما للثأر منهما ، وكفّا لأذاهما ، بينما تذكـر " فارس هدّاج " تنويهـا بفروسيتـه ، وإعلانا بأصالة فرسه ، كمـا تعبّـر عـن الهـول الذي لقيَتـْهُ يومَ مقتـل الفارس بأنه يوم تَشيب منه مقادمُ شعر الرؤوس .

ثانيا : الرثاء الفردي :

وهو لرثاء الأباعد نسباً عن الشاعرة ، الذين لهم عليها يدُ الإحسان بمال أو ذمّـة أو موقف كريم ، يستنهض في الشاعرة عاطر الذّكر ، وجميل الذكرى ، كما قال حاتم الطائي [١] :

أماويّ [٢] إنّ المـالَ غـادٍ ورائـحٌ ويبقى من المالِ الأحاديثُ والذِّكْـرُ

لا سيَّما عند مـوت الإنسان ؛ إذ يحلو تأبينُه بما له من محاسـنَ جميلـة ، وأخـلاق حميدة ، أو أيادٍ كانت له على الراثي ، فإذا بالموت يقطع تلك الصلة ، ويَحـوُل الفـوْت دون حصول المسألة ؛ فها هي أمُّ ناشِرة [3] ، وكانت جارية [٤] لهمّام [٥] بن مُرَّة " فـأرادت أن تلـد ،

١- حاتم الطائي : ديوانه ، ط٢ ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م ، ص٤٢ .

٢- أماوي : ترخيم ماوية .

٣- أم ناشرة : هند بنت معاوية بن الحارث بن بكر بن حبيب . ابن حبيب ، أبو جعفر ، محمـد بـن حبيـب البغدادي ، (ت٢٤٥هـ) : أسمـاء المغتاليـن مـن الأشـراف في الجاهليـة والإسـلام ، ط١ ، تحقيـق : سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م ، ص٥٠ . وانظر : ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج٢ ، ص١٤٧ .

٤- التصويب " جارة " ؛ لأنها لو كانت جارية لكانت وما تلد ملكا لسيدها فلا يحق لها التـصرف إلا بإذنـه . وانظر : المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٤٧ .

٥- همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ، وهو ممن اجتمعت له رئاسة قبيلته في حرب البسوس . وانظر : ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ص٥٠ . ابن حبيب : أسماء المغتالين ، (ضمن نـوادر المخطوطـات) ، ج٢ ، ص١٤٧ . ابن حبيب : المحبر ، ص٢٥٤ ــ ٢٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاجتمع إليها النساء ، فسمعهن همّام يَقْبَلْنَها [١] يقلن : قد جاء ، يعنين الولد ، فقالت أمه : ادقُقْنَ عنقَه ، فقال لها همّام : ويحكِ لا تفعلي ، قالت : وما يُعيشُه ؟ قال همّام : أَمَةٌ تُعيشه ، ولِقْحَةٌ [٢] ، وجمَل ذلول ، قالت : بلى ، فأعطاها إيّاها ، فلمّا كان يوم واردات [٣] ، وهو من أيام حرب البسوس [٤] خرج همام يسقي الماء واللبن ، فأبصره ناشرة [5] ، فختلَه ، فطعنه فقتله ، وهرب فلحق بقومه ؛ فقالت أم ناشرة :

لقد عيّل [٦] الأيتامَ طعنةُ ناشِرَهْ أناشرُ لا زالتْ يمينُكَ آشِرَهْ [٧] . [٨] " .

يُفهم من هذه الحكاية أنّ أمّ ناشرة كانت جارة لهمام بن مرة قبل نشوب حرب البسوس بزمن ، فلما قامتِ الحرب بين الحيّين تفرقا على قتال بعضهما بعضاً ، وانتحى كلّ واحد منهما عن الآخر ناحيةً من الأرض ، فكان بينهما أن كثُرتْ الضغائن ، وتعدّدت الوقائع ، وتهافتت النفوس ؛ فلجُّوا في طلب الثارات ، وبسببها قد أُصيب همام بن مرة بيد مَن أحسن إليه ، وأنقذه من الموت ، على غير رضى أمّ ناشرة ؛ فقالت بيتها الفرْد هذا في تأبينه ،

١- يقبلنها : قبلت القابلة المرأة : إذا قبلت الولد أي تلقته عند الولادة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قبل) .

٢- لقحة : الناقة تنتج في أول الربيع جمعها لقاح . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لقح) .

٣- يوم واردات : اليوم الثالث من حروب بكر وتغلب ، لتغلب على بكر . البكري : معجم ما استعجم ، مج٢ ، ج٤ ، ص١٣٦٢ . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٤ ، ج٨ ، ص٤٣٤ . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص٢١٨ ــ ٢١٩ .

٤- حرب البسوس : البسوس خالة جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان ، كانت لها ناقة تدعى سرابا ، فقتلها كليب ، فغضب عليه جساس فقتله ؛ فقامت الحرب بين بكر وتغلب حتى كادت تهلكهما . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص١٦٥ ــ ١٧٠ . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص٥٢٣ ــ ٥٣٩ .

٥- ناشرة بن أغواث . يدل سياق القصة على أنه كان تغلبيا . انظر : ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ص٥٠ .

٦- عيل : عيل إعياله : أهملهم . وترك يتامى عيلى أي فقراء . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عيل) .

٧- آشرة : مأشورة : مقطوعة بالمئشار . انظر : المصدر السابق ، مادة (أشر) .

٨- ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ص٥٠ . وانظر : ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج٢ ، ص١٤٧ . العسكري : جمهرة الأمثال ، ج١ ، ص١٣٣ ــ ١٣٤ . ابن منظور : لسان العرب ، مادتي (عيل) و (أشر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والدعاء على ابنها ، مؤكدةً ومحقّقةً لنا الأثر الذي تركه مقتلُه من إهمال للأيتام ، بعد رعايـة لهم ، وحدَب عليهم .

وإذا كانت أمّ ناشرة قد ركّزت على صفةٍ بعينها في مرثيّها وهي صفة الكرم بمعانيـه الكُثْر ، فإن شاعرة أخرى تسمى صفية [١] بنت الخَرِع ، تركّز أيضا على صفةٍ بـذاتها ؛ هـي صفـة الفروسيّة ، بما تحويه من معان ؛ كالشجاعة والإقدام والجـرأة ، والثبـات والـصبر وغيرها ، مؤبّنةً بها النعمان [٢] بن جِساس ، تقول [٣] :

نطـاقُـهُ هنـدوانـيٌّ[٤] وجُبتـهُ [٥] فضفاضةٌ[٦] كأضاة[٧] النَّهْي[٨] مَوْضُونة[٩]

غابـتْ تميـمٌ فلم تشهدْ فوارسُها ولم يكونـوا غـداةَ الرَّوْعِ يُخزونَـه

لقد أخذنا شفاءَ النفـسِ لو شُفيتْ ومـا قتلنـا بـه إلا امرءاً دونَـهْ

١- هي صفية بنت الخَرِع التيمية ، أي من ولد تيم بن عبد مناة بن أُدّ وقبيلتها الرِّباب . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج١ ، ص٨٦ . ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٧ . ابن حـزم : جمهـرة أنـساب العرب ، ص١٩٨ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١٦ ، ص٢٢٩ .

٢- النعمان بن جِساس ، سيد الرباب في يوم الكِلاب الثاني ، وهو يوم لتميم وأحلافهم على مَذْحِج وأحلافهـم . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج١ ، ص٧١ و٧٣ و٧٧ و٨٦ . أبا عبيـدة : النقـائض ، ج١ ، ص٣٧٤ ــ ٣٧٥ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١٦ ، ص٢٢٥ ــ ٢٢٦ و ٢٢٩ . ابن عبد ربه : العقد الفريـد ، ج٥ ، ص٢٢٤ ــ ٢٢٩ .

٣- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج١ ، ص٨٦ . وانظر : ابن طيفور : بلاغات النـساء ، ص٢٣٧ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١٦ ، ص٢٢٩ .

٤- هِندواني : إذا عمل ببلاد الهند ، وسيف هُندواني ، إذا شئت ضممتها إتباعا للدال . ابن منظـور : لـسان العرب ، مادة (هند) .

٥- جبته : الجبة من أسماء الدرع وجمعها جُبَب . المصدر السابق ، مادة (جبب) .

٦- فضفاضة : درع فضفاضة واسعة . المصدر نفسه ، مادة (فضض) .

٧- أضاة : غدير . المصدر نفسه ، مادة (أضا) .

٨- النهي : الموضع الذي له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه . المصدر نفسه ، مادة (نهي) .

٩- موضونـة : الـدرع المنسوجـة ، توضـن حلـق الدرع بعضها في بعض مضاعفة . المصدر نفـسه ، مادة (وضن) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتجلِّيه لنا فارساً شاكيَ السلاح ؛ ينتطِق سيفاً هنديّاً ، متسربلا درعا واسعة منسوجة بحَلَق الحديد ، مُحكمة الصنع ، مُتضامّة الأطراف ، كغدير ماء تمنعه حواجزُه من أن يفيض على الجوانب ، ويظهر لنا هذا الوصف أنه كان بَدينا ملحما يملأ جسمه درعه الواسعة .

ويخوض فارسها الميدان دون أحلافه من " تميم " ولو شهد " فوارسها " معركته ، وقد حميَ وطيسُها " غداة الروع " لوجد منهم النصرة على العدوّ ، والمدَد والتأييد .

أما بيتها الأخير فهي تلتمس فيه شفاء يائسا لنفسها، من حزنها عليه بطلب الثأر ، ولكنَّ ثأرها الذي أدركته لم يشف ما فيها من كمد ؛ لأن المثؤور منه لم يكن بمنزلة المثؤور له . وهو نفس الانتقاص الذي صفعت به نائحة [١] عمرو [٢] بن عاهان وجه قاتل مرثيها ، تقول [٣] :

يا عين فابكي على عمرو بن عاهان ... لو كان قاتله غير الذي كانا

لو كان قاتله حيا نعجّ [٤] به ... لكنّ قاتله بُهل [٥] بن بُهلانا

فلم يكن حسبها من الرثاء البكاء والعويل فقط ، بل مزجته بهجاء القاتل والتقليل من قدره ، فلم تره ممن يتمنى الاستغاثة به في عظائم الأمور ، ولم يكن له من الشهرة بين العربان ما يذكر به ؛ فهو مجهول النسب ، مشكوك في أصله وفي هذا ما يمس الشرف ،

١- لم أعثر لها على ترجمة .

٢- هو عمرو أو مرة أو مر بن عاهان ، أحد بني الحارث بن كعب . وفي هامش سمط اللآلئ قال محققه : " وأنا أرى أن الصواب في البيت : على مر بن عاهان مرخما في غير النداء . انظر : البكري : سمط اللآلئ ، ج١ ، ص٧٦ . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بهل) .

٣- البكري : سمط اللآلئ ، ج١ ، ص٧٦ . وانظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بهل) .

٤- نعج به : عج يعج عجا وعجيجا : رفع صوته وصاح بالدعاء والاستغاثة . المصدر السابق ، مادة (عجج) .

٥- بهل بن بهلان : يقال للمحتقر ، وللذي لا يعرف . انظر : البكري : سمط اللآلئ ، ج١ ، ص٧٦ . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بهل) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقدح في العرض ، ويخدش الحياء ، وفي الحقيقة أن الصورة الواقعية القاتل هي على خلاف ما أظهرته الراثية في شعرها ؛ فهو المنتشر [١] بن وهب الباهلي ، ولكنها قصدت أن تُغيظه ، وتؤلمه وتستفزّه .

ونسمعها تردّد لفظة " قاتله " ثلاث مرات في بيتين اثنين فقط ؛ تأليباً عليه ــ وهنا كما تروى القصة ــ يحمى أنفُهُ عليها ؛ فيُغير على قومها ، ويقطع لسانها إلى يوم الدين [٢] .

وتهزّ أريحيةُ الكرم امرأةً [٣] من حَنِيفة ؛ فتؤبن بها يزيدَ بنَ عبدِ الله بن عمرِو الحنفي ؛ تقول [٤] :

ألا هلك ابن قرّان الحميد ... أخو الجُلّى [٥] أبو عمرو يزيدُ

ألا هلك امرؤ هلكتْ رجال ... فلم تُفقدْ وكان له الفُقودُ

ألا هلك امرؤ حبّاس مالٍ ... على العِلاّت [٦] متلافٌ مفيدُ

١- المنتشر بن وهب الباهلي ، أحد رجّلي العرب ، أخوه لأمه أعشى باهلة عمرو بن الحرث أو الحارث ويكنى أبا قحافة ، رثى أخاه بقصيدة ، مطلعها :

إني أتتني لسان لا أسر بها ... من علو لا عجب منها ولا سخر .

انظر : الأصمعي : الأصمعيات ، ص٨٧ . الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، ج١ ، ص٢١٠ . اليزيدي : المراثي ، ص٥٧ ــ ٥٨ . الآمدي : المؤتلف والمختلف ، ص١١ ــ ١٢ . ابن رشيق : العمدة ، ص٤٣١ . البكري : سمط اللآلئ ، ج١ ، ص٧٥ . الراغب الأصفهاني : محاضرات الأدباء ، ج٣ ، ص٢٧٠ .

٢- انظر : البكري : سمط اللآلئ ، ج١ ، ص٧٦ .

٣- لم أعثر لها على ترجمة ، وكأنها جاهلية ؛ لأسلوبها ولغتها ، وتوافق عدد أبياتها مع جل أشعار المقطعات النسائية ، فضلا عن كونها غير معزية إلى اسم بعينه ، وكأنها من مجاهيل الجاهلية ، وقد تفرد المفضل الضبي بروايتها ، وهو من أوائل من عنوا بجمع الشعر الجاهلي .

٤- المفضل الضبي : المفضليات ، ص٢٧٣ .

٥- الجلى : الأمر العظيم . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جلل) .

٦- العلات : أي على كل حال . المصدر السابق ، مادة (علل) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألا هـلـك امـرؤ ظلّـت عليـه بشـطٍّ عُنيـزة [١] بقـرّ هُجـود [٢]

سمعـن بموتـه فظللـن نـوْحـا قيامـا مـا يُـحـل لهـنَّ عُـود

تبكي صاحبها ؛ فتجعله أخا للأمور العظيمة ، وترى في هلاكه تفردا لا يشبهه مـوت الآخرين ؛ لأنهم يموتون فلا يفتقدون ، ويموت صاحبها ؛ فيفتقد لانقطاع إحسانه على سواه ؛ فقد كـان يحبس إبله لقرى ضيوفه ، وهو ينفق ماله على كلّ حال في الشـدّة والرّخـاء ، والعُسر واليُسر ؛ فلا عجبَ بعد هذا أنْ تظلّ نساءٌ قياما ساهراتِ الطوارف يَنُحْنَ على موته ، وكأنهن بقر الوحش حُرِّمَ عليهن المرعى ؛ لإقامتهن على العويل .

وينزل سامَة [٣] بن لُوَيٍّ ضيفا على أزديٍّ من أهل عُمان بجوف الحَميلة [٤] ، ثم يرحـل عنه وفي طريقه تلدغه حيّة ؛ فيموت ! فتسمع بذلك امرأة الأزدي ؛ فتقول [٥] :

١- عنيزة : من ديار بني تميم يسمى بوادي الشجي ؛ لأنه شجي بعنيزة صارت في وسطه أو من أودية اليمامة ، وهو قرب عنيزة بالبحرين . انظر : البكري : معجم ما استعجم ، مج٢ ، ج٣ ، ص٩٧٦ . الحموي يـاقوت : معجم البلدان ، مج٣ ، ج٦ ، ص٣٥٩ .

٢- هجود : هجد وتهجد : سهر ، وهو من الأضداد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (هجد) .

٣- هـو سامـة بن لؤي بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النظر بن كنانة ، من قريش . انظر : ابـن هـشام : السيرة النبوية ، تحقيق: محمد فهمـي السرجانـي ، مج١ ، ج٢ ، ص٩٦ ــ ١٠١ . ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق وشرح : مصطفى السقا وآخرين ، مج١ ، ج١ ، ص٧٧ ــ ٨١ . ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص١٢ .

٤- جوف الحميلة : موضع في الطريق من مكة إلى عُمان . البكري : معجم مـا اسـتعجم ، مـج١ ، ج٢ ، ص٤٠٦ . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص٩٤ ــ ٩٥ .

٥- الزجاجـي ، أبو القاسـم ، عبـد الرحمـن بن إسحـاق ، (ت٣٤٠ هـ) : الأمالي ، ط٢ ، تحقيـق : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧م ، ص٤٩ ــ ٥٠ . وانظر : البكري : معجم ما استعجم ، مج١ ، ج٢ ، ص٤٠٦ . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ج٣ ، ص٩٥ . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (فوق) . ابن قيم الجوزية : أخبـار النـساء ، ص٢٢ . وتـروى الأبيـات باختلاف ، وتنسب إلى سامة مرة ، وإلى أخيه مرة أخرى . انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، مـج١ ، ج١ ، ص١٠١ ــ ١٠٢ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١٠ ، ص١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويغير يزيد [١] بن عبد المَدان على بني عامر بن صَعْصعة ، فيأسر أبا بَراء عامرَ بن مالك مُلاعب الأسنّة وأخاه عَبِيدَةَ بن مالك ، ثم يُنعم عليهما بفكّ أسرهما ، فلمّا مات يزيد حملتْ يدُ النعمة زينبَ [٢] بنتَ مالكٍ على البكاء عليه ؛ تقول [٣] :

سأبكي يزيد بن عبد المدان ... على أنه الأحلم الأكبر

رماح من العزم مركوزة ... ملوك إذا برزت تحكم

فلامها قومها في ذلك ، وعيّروها بأن بكتْ يزيدَ ، فقالت :

ألا أيها الزاري [٤] عليَ بأنني ... نِزارية [٥] أبكي كريما يمانيا [٦]

وما لي لا أبكي يزيد وردّني ... أجرٌ جديدا مِذرعي [٧] ورداثيا

وقالت :

بكيت يزيد بن عبد المدا ... ن حلّتْ به الأرض أثقالَها

شريك الملوك ومَن فضلُه ... يَفْضُل في المجْدِ أفضالَها

١- هو يزيد بن عبد المدان عمرو بن الديان ، يزيد بن قطن بن زياد بن الحارث ، كان رئيس مَذحِج ، شريفا شاعرا . انظر : ابن دريد : الاشتقاق ، ص٣٩٨ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٨ ، وج٢١ ، ص١٧ . ابن جزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٤١٦ .

٢- هي زينب بنت مالك بن جعفر بن كلاب ، وإذا كانت أخت ملاعب الأسنة لأمة أيضا ، فتكون أمهما معا هي أم البنين بنت عمرو بن عامر بن ربيعة بن صعصعة ، إحدى المنجبات الثلاث في الجاهلية . انظر : أبا عبيدة : كتاب الديباج ، ص٧٤ . ابن حبيب : المحبر ، ص٤٥٨ . الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص١٦ .

٣- المصدر السابق ، ج١٢ ، ص١٦ .

٤- الزاري : زرى عليه : عابه و عاتبه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (زري) .

٥- نزارية : تنتسب إلى نزار بن معد بن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام . انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٩ .

٦- يمانيا :ينتهي نسب يزيد بن عبد المدان إلى قبيلة يَمَانِيَة من ولد يعرُب بن يشجُب بن يعرب بن قحطان . انظر : المصدر السابق ، ص٣٢٩ .

٧- مدرعي : ضرب من الثياب تلبس ، وقيل : جبة مشقوقة المقدّم . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (درع) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فككْـتَ أسـاري بـنـي جعفـر[١] وكـنـدةَ إذ نـلـتَ أقـوالـهـا

ورهـط المجالـد قـد جـلّـلـتْ فـواضـلُ نُعمـاك أجبـالـهـا

ترى الشاعرة في المرثي الصفة الكبرى التي جعلته يطلق أخويها من أسرهما ، وهي صفة الحلم ، وتعظم هذه المنقبة في عينها حتَى تعدّه " الأحلم الأكبر " ؛ لأنه وافق حاجة ملحة في نفسها ، قد باتت ترجوها وتتعلق بها فكان أن حصلت عليها من أمر لا وسطية فيه فإما أن يسير إلى حياة ، وإما أن يصير إلى ممات .

ثم تصف ثباتَه وقوة عزيمته بـ " رماح " " مركوزة " من جنْس " العزم ؛ فيعقد قلبَـه على فعْل الشيء ؛ فيفعله بغير أناةٍ أو تردّد ، وكأنه واثق من إدراك بغيته ، متحقّق من نيـل مطلبه ، وهو بهذا العزْم يفصِل في الأمور ، ويقطع فيها بحُكمه المتكئ على حِلمه وعزمـه ، وهكذا دأب الملوك .

ويعتب عليها قومها أنْ رثتْ أي مدحت يمانياً ، فتعلّل ذلك بشجاعةٍ أنه أحسن إليها ؛ بـالعفو عن أخويها ، اللذين هما عزتُها ومنعَتُها ، ووقايتها من الذلّة والعار ، كوقاية المِدرع والرِّداء لجسمها ، ولعورتها من الظهور والانكشاف .

ويتأكّد لنا باعتذارها هذا أنها نأتْ بنفسها عن السقوط في مزالق العصبيّات القبائليّة ، التي لا تُنصف الآخرين ، واختارت الحقَّ ميزانا أخلاقيا وسلوكيّا لها .

وتصوّر موتَ مرثيِّها أمرا ثقيلا ؛ بسببه " حلتِ الأرض أثقالها " ، وكأن الأرض دابّـة مُحمّلة بالبضائع ؛ فيحِلّ بها مكروه ؛ فلا تقوى على السير فتسقط وترزُم عن القيام ؛ لعظـيم مكانة المتوفى ، ونباهة ذِكْرِه ، لماذا ؟ لأنه شريك الملوك فيما يملكـون ، ويفـضلهم مجْـدا بحلمه على الأسير ، وكرمه الذي يَطمُّ على الجبال .

١- بنو جعفر : قومها : بنو جعفر بن كلاب . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن حُمادى ما يجمُل ذكرُه للشاعرة أنها تستخدم الألفاظ ؛ " سأبكي ، أبكي ، بكيت " ، وهي أبنية تتضمّن ثلاثة أزمنة للفعل بكى ؛ الأول سأبكي للمستقبل القريب ، والثـــاني أبكـــي للمضارع ، والآخر بكيت للماضي ، وكأنها تريد بذلك بقاءها الدائم على ما هـــي فيـــه مـــن الحزن والتوجّع على فقْد هذا الطِّراز من الرِّجال الكرام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الثاني

دراســة فنيــة لشعــر الرثــاء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

بنية المرثية

الموضوع :

توصف كثيرٌ من قصائد الشعر الجاهليّ بتعدّد موضوعاتها ؛ فنقرأ في القصيدة الواحدة مجموعةً من أبياتها تمثّل لوحة وصفيّة ؛ تصف الأطلال والآثار ، والحنين والشوق إلى المنازل والديار ، ووصف الراحلة بقوة الجَلَد والاحتمال . وتشكّل مجموعةٌ ثانيةٌ لوحةَ النسيب ، وفيها يشبّب الشاعر بمحاسن حبيبته ، ويتغزّل فيها بمفاتنها وجمالها ، ثم يذكُر ما يجدُه من معاناة ، وحرقة ، وشوق ؛ بسبب فراقها له أو بعدها عنه ، ولا ينسى الشاعر حينذاك أن يتمدّح بمناقبه من كرم وشجاعة وبيان ؛ من أجل أن يبلغ بذلك إلى جذْب حبيبته إليه ، وسحرها بمعسول الكلام ، ثم يمضي بعد ذلك إلى الغرَض الرئيسيّ من قصيدته كالفخر بانتصارٍ في ميدان ، أو المديح لأحد كرام الناس ، أو الهجاء لعدوّ ، أو لأيّ غرَض آخر ، ولا أدلّ على هذا النهج من المعلّقات [١] . أما قصائد الرثاء ومقطّعاته عند شاعرات الجاهلية فهي لموضوع الرثاء وحدَه ، دون أن يشرَكه موضوع آخر ممّا ذُكر ؛ فجل القصائدأو المقطعات من أولها إلى منتهاها تستأثر بغرض الرثاء ذاته [٢] ، ولا تحيد عنه إلى موضوع آخر ؛ فما إنْ تبدأ الشاعرة رثاءها حتى تضعنا ــ مباشرة ــ في جوّ الحدَث ؛ جوٌ

١- انظر : الزوزني:شرح المعلقات السبع. مفيد قميحة : شرح المعلقات العشر . أحمد عبد الله فرهود وآخر : المعلقات العشر .

٢- انظر : مخيمر صالح موسى : رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص١٣٦ . محمد إبراهيم حور : رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهابة العصر الأموي ، ص٧٢ . رغداء ماردينى : شواعر الجاهلية ، ص١٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المباشـــرة بالبكاء والعويل وتظلّ فيه دون أن تنقلنا إلى موضوع آخر يخرجنا عـــن دائـــرة الرثاء ، ويظلّ الجوّ النفسي العام للمرثية ينتظم جميع أبيات النَّصّ الرثائيّ الـــشعريّ ســـواء أمدحت الشاعرة فيه الميّت بمناقبه ، أم فخرَت بشجاعته وبطولته ، أم هجت أعداءه ، فإنّ ذلك لا يخرج عن دائرة موضوع الرثاء ؛ لأنّ مجموعة أفكار النصّ ورؤاه تصبّ في مجرىً واحدٍ دون انقطاع سببيّ ــ غالبـــا ــ بيـــن أبيات المرثية ، ودون أن تكون هناك قابلية إلى فـــصله إلى عدة موضوعات ، فالمرثية ــ كما يظهرــ ذات شريحة واحدة ، تنأى عن تقليـــد مـــا مضتْ عليه سُنّة كثير من قصائد الشعر الجاهليّ ، ولعلّ طبيعة الحدَث الطارئ هو الذي فرَض وَحْدة الموضـــوع هذا ، فأيُّ حدَث أقسى من حدَث الموت ؟ وهل هناك موضوع آخر يمكن أن يجاوره ، أو يزاحمه بالحديث عند نزوله ؟ " ويمكن أن ترجع هذه الظاهرة ــ في جانب مـــن جوانبها ــ إلى الموقف والوقت وخاصّـــة عند الشعراء الذين استوت قصائدهم أعمـــالا فنيّـــة رائعة ، ونعني بالموقف أن هذه القصائد كانت من بنات الساعـــة ، ونعني بالوقت أن الشاعر كثيرا ما كان يُسرع للتعبير عن نشوة النصر والظفـــر [١] " أو الفقْد والثكل ؛ فصار من أقـــوى الاحتمالات أن يتفرد الرثاء بذاته ، بـــل يكون من فتور العاطفة ، وبرودة المشاعر أن يقـــوم موضوع الرثاء إلى جانب موضوع سواه ، ولا يعدّ حينذاك ــ في نظري ــ إيجابيـــة تحـــسب للقصيدة ، بل هي سلبية يؤاخذ عليها ، وتنتقِص منه بقدر ما يضاف إلى قصيدة الرثـــاء مـــن موضوعات أُخر ، لا سيما إذا كانت غزلية ؛ فإنه لا يحسن أن يقرن بالرثاء ، بل يعدّ ذلك شاذا عن الموقف الطبيعي ، شذوذَ أن يجتمع حاملو جنازة بموكب عرس في ظرف واحد ، فذلك ما لا يحمد أبدا ، إلا إذا تنكّر القول للفطرة الإنسانية السويّة ، التي تميّز الشعور بـــالحزن عـــن

١- حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في العصر الجـــاهلي ، ط٢ ، دار الجيـــل ، بيـــروت ــ لبنـــان ، ١٤٠٨هـــ ــ ١٩٨٧م ، ص١١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشعور بالفرح ولا يجمع بينهما بسبب ، غير أن الحسّ الجاهليّ المرهف عند شاعرة الرثاء في الجاهليّة أبى إلاّ أن يكون فنّ الرثاء موضوعا قائما بذاته ولذاته ، ولو كان موضوع الشراكة بين الرثاء وغيره ممكنا لصحّ أن تبدأ المرثية بالمقدمة الطللية ؛ لأنّ الحديث عن الطلل والوقوف على الآثار والدِّمَن وتذكّر الأحباب ومعاهد الصِّبا مما يُشجي النفوس ، ويستدعي ماء العيون .

ويفسّر لنا عدمَ اقتران موضوع الرثاء بغيره غلبةُ شعرِ المقطّعات في هذا الفنّ على شعر المطوّلات ؛ لأنّ المادّة التي وصلتْ إلينا في قالب مصفّى من القِطَع الموضوعية الأُخر ، " وفيها نجد التجارب الشعورية الكاملة ، والصّوَر الصادقة للحياة الجاهليّة ، وأصداء أمينة لخفقان قلب الشاعر ، وترجمانا لعواطفه وأحاسيسه ؛ ذلك لأنها قصائد أصيلة ، لم تصدرْ عن صناعة ، أو تكلّف ، وتتمثّل في هذه القصائد وحدة الموضوع [١] " الأمر الذي جعل مادة المرثية تبدو متزاحمة الأجزاء ، متصلة البناء ، متدفّقة العاطفة ، مزامنة للحدَث ، وترتجِل له ما يناسب مقامه الطارئ من مقطّعات الشعر ، فلا سبيل إلى الإطالة ؛ لأنها تحتاج إلى نفَسٍ شعريّ طويل ، وهذا ما يتعذّر حصولُه في وقْتٍ تخنق الحسراتُ صاحبَها ، ويمسك فيه اللسان عن كثير الكلام ، وتكون الغلبة للوقار والسكون ، على الخفّة والحركة ، كما أن عامل اللغة الرثائيَّة الذي يكون منبّثا في بِنية المرثية يجعل مادتها ذاتَ وَحدة موضوعية ، وتظلّ أغلبُ دوالّ المرثية مُوحيةً بذلك الشجن الرثائيّ من مطلع المرثية إلى خاتمتها .

١- يحيى الجبوري: الشعر الجاهلي ، خصائصه وفنونه ، ط٩ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م ، ص٢٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلـــع :

تجري العادة أنْ يَتخيّر الشاعر مطلعا لقصيدته يناسب موضـــوعها و " يحتـــرز فـــي أشعاره ومُفتتح أقواله ممّا يُتطيّر به ، أو يُستجفى من الكلام والمخاطبـــات كـــذكر البكـــاء ، ووصف إقفار الديار وتشتّت الألاّف ، ونعي الشباب وذمّ الزمان ، لا سيما في القـــصائد التـــي تُضمّن المدائح أو التهاني ، ويستعمل هذه المعاني في المراثي ، ووصف الخطوب الحادثة [١] " ، إذن فالاستهلال بالبكاء وما شاكله يناسب مقام الرثاء ، ويظهر من أوّل وهلة [2] على موضوع الرثاء ، دون أن يلجأ الشاعر إلى مقدّمات تقليديّة غيرِ رثائيّة يتصف بها قسْم آخرُ من الشعر يُعنى به عن قصْد في مطولاته ، عند استقرار الحال ، واطمئنان البال ، وإعمال الفكـــر فـــي النظر إلى بواطن الأمور برويّة وتمعُّن ، بينما هذا لا يتفق مع واقع الحال المشبوبة بالحزن ، والمسكونة بالعاطفة الوثّابة الثائرة ؛ لذا فإنّ صاحبها يدخل إلى جـــوّ الموضـــوع مباشـــرة ، ويظهر ذلك جليّا في لغة المطالع ، أو ما يجوز أن نسميّه مطالعَ على ظنّ أنّ كثيرا من المطالع الحقيقيّة للمراثي قد تعرّضتْ لبتر الزمان ، ونِسيان بعض الرواة لها ، فمّما وصل إلينا من تلك الاستهلالات ما يبدو على أشكال مختلفة ومنها النداء ، ومن صوره أن تخاطب الراثية عينها ، نجد ذلك في مستهلّ رثاء خالدة بنت هاشم أباها ، تقول [٣] :

عيـــنُ جـــودي بعبـــرة وسجـــوم ... واسفحي الدمع للجـــواد الكريـــم

عين واستعبري وسحّـــي وجمّـــي ... لأبـــيـــك المســـوّد المـــعـــلـــوم

١- ابـــن طباطبـــا ، أبو الحســـن ، محمد بن أحمد ، (ت٣٢٢هـــ) : عيـــار الشعـــر ، د.ط ، تحقيق : عبد العزيز بن ناصر المانع ، دار العلوم ، ١٤٠٥هـــ ـــ ١٩٨٥م ، ص٢٠٤ .

٢- انظر : ابن رشيق : العمدة ، ج١ ، ص٢١٨ .

٣- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قولها " عين " ، أي يا عين ؛ فحذفت يا النداء وهذا مشهور معروف . وكذلك نجد مثل هذا الاستهلال عند عمرة بنت شداد ترثي أخاها ، تقول [١] :

يـــا عينُ بكّـــي لمسعود بـــن شدّاد بكـــاءَ ذي عبـــراتٍ حزنُـــهُ بـــادِ .

ويظهر من هذا أن الغرض من نداء الشاعرة عينَها إنما هو شيء يلتصق بالتعبير عن حالتها النفسية خاصّة عند الصدْمة الأولى لها بخبر موت فقيدها ، ولـــيس تعبيـــرا عـــن ذات غيرها إزاءَ ذلك الحدَث ، ويكون غرضها من استخدام أسلوب النداء في مطلع مرثيتهـــا هـــو التنبيه ولفْت الأنظار إلى خطر الحدَث ، ومنزلة الفقيد ، ومدى تأثّر الراثية بموته .

ومن صور النداء أيضا في المطالع أن تنادي الراثية فقيدها ؛ كنداء أخت عمـــرو ذي الكلب أخاها ، تقول [٢] :

يـــا مَـــنْ بمقتلِـــهِ زُهـــى الـــدّهـــرُ قـــد كـــان فيـــك تضـــاءلَ البـــدْرُ

أو أن تنادي عاذلها ، نجد صورة هذا الاستهلال عند الخرنق بنت بدر ، تقول [٣] :

أعـــاذلـــتـــي علـــى رُزْءٍ أفيقـــي فقـــد أشرقْتِنـــي بالعـــذْلِ ريـــقـــي

وتتكرّر هذه الصورة الندائية عند جليلة بنت مرّة الشيبانية ، تقول [٤] :

يـــا ابنـــةَ الأقـــوامِ إنْ لُمْـــتِ فـــلا تعجلـــي باللّـــوْمِ حتّـــى تسألـــي .

ومن أشكال المطالع أيضا أن تبدأ الراثية مرثيتها بالقسم ، وغرضها منه تأكيد الحدث ، أو الموقف ؛ كقول عمرة بنت دريد ترثي أباها [٥] :

لعمـــرك مـــا خشيـــت على دريـــد ببطـــن سميـــرة جيـــش العنـــاق

١- ابن حبيب : أسماء المغتالين ، (ضمن نوادر المخطوطات) ، ج٢ ، ص٢٢٨ .

٢- المرزباني : أشعار النساء ، ص١٢٧ .

٣- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ص٢٦ .

٤- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص١٢٨ .

٥- ابن هشام : السيرة النبوية ، مج٢ ،ج٤ ، ص٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أشكاله التي تفيد التوكيد الصريح قول ريطة بنت عاصية [١] :

إن ابــن عاصيــة البهزي مصرعه خلــى عليــك فجــاج كان يحميها

ويجتمع التأكيد والتحقيق معا في مطلع عمرة الخثعمية [٢] :

لقــد زعمــوا أني جزعت عليهما وهــل جــزع إن قلــت وابأباهما

وفي ظني أنها احتاجت إلى التأكيد والتحقيق معا بـــ " لقد " لكي تصف واقع زعمهم ، الذي أثبتته ، ودافعت عن نفسها بتسبيب موقفها .

وتبدو لنا حاجة الشاعرة الملحّة في مشاركة غيرها حزنها وأساها ؛ إذ تطلــب ذلــك صراحة بلام الأمر مِمَّن تخاطبهم ؛ تقول ابنة أبي الجدعاء [٣] :

ليبكك أبــا الجدعــاء ضيف معيل وأرملــة تغشــى النــدي فترمــل

وإذا كانت شاعرتنا هذه قد طلبت من صنفين اثنين من الناس مشاركتها البكاء على فقيدها فإن ليلى بنت الأحوص لتطلب من قبيلة كاملة البكاء على فقيدها ، تقول [٤] :

ليبك ابن ذي الجدين بكرُ بن وائــل فقد بــان منها زينها وجمالهــا .

ومن المطالع ما تبدو لنا منها المباشرة بوصف الحدث ، وهو ما يؤكّد لنا أن هذا الصنف من الشعر يزامن وقوع الحدث ، ويعايش لحظاته الطارئة ، كقول دختنوس بنت لقيط [٥] :

بــكــر الــنــعــيّ بخــيــر خِــنْــدِف كهلــهــا وشــبــابــهــا

١- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٦٤ .
٢- المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٢ .
٣- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص١٠٣ .
٤- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص٦١٦ .
٥- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج١ ، ص٢٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول أم السليك [١] :

طـــاف يـبـغـــي نـجـــوة مـــن هـــلاك فـهـلـــك

وقول أخت عمرو ذي الكلب [٢] :

ســألــت بعمــرو أخــي صحبــه فأفظعنــي حــيــن ردّوا السّـؤالا

وقول رائطة بنت شيظم [٣] :

لــهــفــي عــلــى الأخــويـــن كالأســديــن مســعــود وحاتــم

وقول أميمة بنت عبد شمس [٤] :

أبـــى لـيـلـــك لا يـذهـــب ونـيـط الـطـرف بالـكـوكـب

أما تماضر بنت الشريد فإنها تلجأ في مطلع مرثاتها إلى التشبيه مقربة لنـا صـورة معاناتها أول وقوع خبر مقتل ابنها عليها ، تقول [٥] :

كأن العـين خالطهـا قـذاهـا لحـزن واقـع أفنى كـراهـا

الاستطراد :

وكما غابت المقدّمات بأشكالها عن الظهور في قصيدة الرثاء عند شاعرات الجاهلية ، فقد غاب عنها أيضا ما يسمى الاستطرادَ أو الخروج أو التخلّص ، وهو " مـا تخلّـص فيـه

١- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ل أبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٩ .
٢- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٣ .
٣- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٨ .
٤- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٥٢٥ .
٥- شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص١٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشاعر من معنى إلى معنى [١] " ؛ كأن يستطرد في موضوع ، ثم يخرُج منه إلى غيره ، وكان العرب " يقولون عند فراغهم من نعْت الإبل ، وذكْر القِفار وما هم بسبيله : " دعْ ذا " و " عدْ عن ذا " ... ، ولربما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة : " إلى فلان قصدت " و " حتى نزلت بفِناء فلان " وما شاكل ذلك [2] " ؛ كقول النابغة الذبياني فبعدما وقَف على الأطلال أخذَ في وصْف الناقة ، يقول [٣] :

فعدّ عمّا ترى إذ لا ارتجاعَ لهُ ... وانْمِ القُتُودَ [٤] على عَيرانةٍ [٥] أُجُدِ [٦]

وهكذا تستطرد القصيدة من موضوع إلى غيره ، ويحاول الشاعر أثناء ذلك أن يوجد سببا يواشج بين الموضوعات جميعا إن استطاع .

ولمّا كانت قصيدة الرثاء عند شاعرات الجاهلية تتصف بوحدتها الموضوعية ، فقد استغنت بعض الشاعرات عن هذا الاستطراد ؛ لأنه يرتبط بتعدّد الأغراض في القصيدة الواحدة ، واكتفين بالمطالع والخواتم ؛ أيْ بما يتّصل بأوّل المرثاة ونهايتها وهما من الأهمية ما يجعلهما مصدريْ تأثير على المتلقي ؛ فالمطلع " أوّل ما يقرَع السمع وبه يستدلّ على ما عندَه من أوّل وهلة [٧] " ، أمّا الخاتمة فهي " قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع وسبيله أن يكون مُحْكما ، لا تمكن الزيادة عليه ولا يأتي بعدَه أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له ،

١- ابن رشيق : العمدة ، ج١ ، ص٢٣٧ .

٢- المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٣٩ .

٣- النابغة الذبياني : ديوانه ، ط١ ، شرح : علي أبو ملحم ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ــ لبنان ، ١٩٩١م ، ص٢٨ .

٤- وانم القتود : جمع قتد : خشب الرحل ، وانم القتود : أي ارفع خشب الرحل . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قتد) .

٥- عيرانة : الناقة الصلبة ، تشبيها بعير الوحش ، والألف والنون زائدتان . المصدر السابق ، مادة (عير) .

٦- أجد : ناقة أجد : أي قوية موثقة الخلق . المصدر نفسه ، مادة (أجد) .

٧- ابن رشيق : العمدة ، ج١ ، ص٢١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجَب أن يكون الآخِر قفلا عليه [١] " ، وقد اتخذتْ خواتم بعض قصائد الرثاء صُورا متباينة ؛ منها ما يتصل بحال المرثيّ، ومنها ما يتّصل بأثر موت المرثي على الشاعرة أو على قوم الفقيد ، وقد تنتهي هذه المراثي بذمّ أولئك الذين كانوا سبباً في موت الفقيد ، أو إسلامه للموت في ميدان القتال ، وعدم نُصرته يومَ أغوَرَ الأمر إلى ذلك .

فأمّا ما يتصل بحال المرثيّ فنجد فيه اطّراد تَعدَاد الراثية لمناقبه ، وغالباً ما تكون أسمى تلك المناقب هي آخر ما تختتم به مرثيتها ؛ كقول عمرة بنت دريد وكان أبوها فارسا قائدا يقود الخيل من نصْر إلى نصر ، تقول [٢] :

عَفَتْ آثارُ خيلِكَ بعْدَ أيْنٍ بذي بقَرٍ إلى فيْفِ النُّهاقِ

وقول ابنة وثيمة في أبيها وكان فصيحا يلجم ببلاغته وفصْل خطابه أفواه منافريه [٣] :

ألْجَمتهمْ بعْدَ التّدافُعِ والتجاذُبِ في الحكومهْ

وقول خالدة بنت هاشم بن عبد مناف ، وقدِ اتّصف أبوها بكريم المَحْتِد ، وشريف النسب ، وأعالي الأمور [٤] :

غالبيّ مُشمّر أحوذيٌّ باسقِ المجدِ مُصرخيٌّ حليمِ

وقول أخت عمرو ذي الكلب ترثيه ، وقد كان شجاعا كثيرَ الغارة ، مظفّرا فيها [٥] :

وكلُّ قَبيلٍ وإنْ لمْ تكنْ أردتَهمُ منكَ باتوا وِجالا

١- ابن رشيق : العمدة ، ج١ ، ص٢٣٩ .

٢- ابن هشام : السيرة النبوية ، مج٢ ، ج٤ ، ص٧٥ .

٣- الجاحظ : البيان والتبيين ، ج١ ، ص١٨٣ .

٤- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٣ .

٥- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقــول أميمة بنت عبد شمس ترثي قومها من قريش وكانوا سادة تحج العــرب إلــى بيتهم ، وتحتكم في أدبها إليهم ، وتمتار من أسواقهم [١] :

وكــمْ مــنْ جــحــفــلٍ فــيــهــمْ عــظــيــمِ الــنــارِ والــمــوْكِــبْ

وكــمْ مــنْ خِــضْــرِمٍ فــيــهــمْ نــجــيــبٍ مــاجــدٍ مُــنْــجِــبْ

وقول عمرة بنت شداد وهي تدعو لأخيها بالبقاء ، تقول [٢] :

أبــا زُرارةَ لا تَبْعُــدْ فــكــلُّ فتــىً يومــاً رهيــنُ صَفيحاتٍ وأعــوادِ

و أروع خاتمــة ــ كما أحسب ــ تجلّيها هذه الدراسة هي خاتمة أخــت عمــرو ذي الكلب ، ترثيه ، ولعلّــه نفــس الأمر الذي حدا أبا العبّاس المبرّد أن يقول عنها [٣] : " وهــذا من أحسن المعاني وألطفها " ، تقول [٤] :

ما زالّ يحسُدُ بطْنُ أرضِكَ ظهرَهــا إذْ تــمّ أمــرُكَ واستــوى الــقَــدْرُ

حتــّى حلَلْــتَ بأرضِهــا فتقدّستْ فالــيــومَ يحسُــدُ بطنَهــا الظهْــرُ

وأمّــا مــا يتصــل بأثــر موت المرثيّ على الشاعرة أو قوم الفقيد ، فهو قول ابنــة أبي الجدعاء [٥] :

لقــد فَجعتْ شيبانُ قومي بفــارسٍ مُحــامٍ علــى عوراتِهم ليس يَنْكُلُ

وجدتمْ بني شيبانَ مُــرّاً لقاؤهــمْ وكانــت بنــو شيبانَ ذلك تفعــلُ

١- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٥٢٦ .

٢- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٧٥ .

٣- المبرد : الفاضل ، ص٦٠ .

٤- المصدر السابق ، ص٦٠ .

٥- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص١٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهي تختتم ببيان أثر مقتل الفقيد ، وتسم ذلك الحدث باسم الفجيعة ، وتحطُّ من مكانة بني شيبان وإن انتصروا على قومها ، وفجعوها بأخيها إلا أنهم وجدوا الانتصار على قومها مرّاً ؛ لاستبسالهم في الذّوْد عن حِياضهم .

وقول عمرة الخثعمية ترثي ابنيها مصورة موتهما بخاتمة سقوط عرشين كانت الشاعرة وقومها يعيشان في كنفهما [١] :

ولنْ يلبثَ العرشانِ يُستلُّ منهما خِيارُ الأواسي أنْ يميلَ غَماهما

وفي خاتمة مرثية ليلى بنت الأحوص لابنها بسطام بن قيس ، تُوسِع دائرة المُصاب به حتى يشمل طيرَ السماء ، تقول [٢] :

أُصيبتْ بهِ شيبانُ والحيُّ يَشْكُرٌ وطيرٌ يُرى أرسالُها وحبالُها

وقول رائطة بنت شيظم تبكي أخويها مُبينة حالها بعدهما [٣] :

فاليومَ أخضعُ للذّليلِ وللمُحارِبِ والمسالِمْ

ويبلغ الأسى في خاتمة الخرنق مبلغا يصوّر حالتها النفسية ؛ فتشعر بالخوف والهلع إلى درجةٍ لا ينساغ لها ريق ؛ بسبب فقدها زوجها ، تقول [٤] :

همُ جدعوا الأنوفَ وأوْعَبوها فما ينساغُ لي مِنْ بعدُ ريقي

وتدعو جليلة بنت مرّة الشيباني في خاتمة رثائها زوجها لنفسها بالراحة ، وكأنها تريد من الله ــ سبحانه وتعالى ــ أن يتوفّاها ؛ لِعِظَمِ مُصابها ، تقول [٥] :

إنّني قاتلةٌ مقتولةٌ ولعلّ اللهَ أنْ يرتاحَ لي

١- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٧ .
٢- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص٦١٧ .
٣- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٩ .
٤- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ص٢٥ .
٥- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتمنى سعدى بنت الشمردل في خاتمة رثائها أخاها لو قُبِلَتْ به فدية ضنّاً بأخيها عن الموت ، تقول [١] :

فـــوددتُ لـــوْ قُبلـــتْ بأسعدَ فديـــةٌ ممّا يَضَنُّ بـــه المُصـــابُ المُوجَـــعُ

غادرتُـــهُ يـــومَ الرُّصـــافِ مُجَـــدّلاً خبَـــرٌ لعمـــرُكَ يـــومَ ذلـــك أشنـــعُ

ويبلغ التمني ذروته في خاتمة رثاء أم السليك ابنها السليك ؛ تقول [٢] :

لـــيْـــتَ نـــفـــســـي قُـــدِّمَـــتْ لـــلـــمـــنـــايـــا بـــدلَـــكْ

وأما ما يتصل بذمّ اللذين كانوا سببا في موت الفقيد ، أو تعريضه للمـوت ، وعـدم نُصرته فهو قول دختنوس بنت لقيط [٣] :

وهـــــوازنٌ أصـــحـــابـــُكـــمْ كـــالـــفـــأرِ في أذنـــابِـــهـــا

وقولهـا أيضا تذمّ مَن فرّ عن نُصرة أحلافهم ، وتمدح الصابرين علـى المـوت فـي ميدان القتال [٤] :

لقـــدْ صبَرَتْ للموتِ كعْبٌ وحافظتْ كِلابٌ وما أنتمْ هنـــاك لمـــنْ رَأى .

١- الأصمعي : الأصمعيات ، ص١٠٤ .

٢- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٨١ .

٣- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٢٥٢ .

٤- المصدر السابق ، ج٢ ، ٢٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الخصائص المعنوية

يولد الشاعر في بيئة من البيئات ، ثم ينظر إلى السماء ، فيرى منها ما يقع عليه نظره من شمس وقمر ونجوم وكواكب وأجرام أُخر ، ويلتفت حولَه فيرى ويشعر بما تغنى به بيئته من مفردات طبيعية مختلفة من مياه وجبال وسهول ، وأشجار وحيوان وطير ، وهواء وغيرها ، ويعيش مع أخيه الإنسان فيكتشف الصلات التي تربطهما معا ، والعلاقات التي تجمعهما ، أو تفرّقهما ، وهكذا ولدت الشاعرة العربية في العصر الجاهلي بين بيئات عربيّة متنوّعة [١] ، يوحّد بينها الامتداد الجغرافيّ الطبيعيّ ، واللّسان العربيّ المبين ، والأحداث التاريخية المشتركة ، وبعض العلاقات الإنسانية المختلفة ؛ التجارية والزراعية والثقافية وغيرها ، وبعض الأمور الأخرى كالدين والعادات والأعراف ؛ فرأت بيئتها كما هي بيئة جبلية ، أو سهلية ، أو بحرية ، أو برية ، بكلّ أبعادها وأشكالها وأجزائها ودقائقها ، ورأت السكان حضَرهم وباديتهم ؛ فأثّر ذلك كله على معاني شعرها . هذا بشكلٍ عامّ على سائر أغراض شعرها ، أما تأثير هذه البيئة بشكل خاصّ على فنّ الرّثاء فهو الذي تسعى إليه هذه الدراسة التي تحاول أن تميّز بين نوعين من المعاني في إطار الخصائص المعنوية لفنّ الرّثاء ، وهي الخصائص المعنويّة العامّة لسائر اتجاهاته ، والخصائص المعنويّة الخاصّة بكلّ اتجاه على حِدَه .

١- انظر للمزيد حول تنوع البيئات العربية : ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ، ص١ ــ ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : الخصائص المعنويّة العامّة :

أول ما يُلاحظ على سائر اتجاهات الرثاء أنّ الشاعرات قد قَصَرْنَ شعرَهن على رثـــاء الرجال دون النساء ؛ فلم تقع الدراسة على قصيدة أو مقطعة لا تختلف فيها الروايات ترثـــي بها الشاعرة أمّا أو بنتا أو أيّ امرأة أخرى ، وإنما كان الرثاء كلّه على موت أب أو ابن أو أخ أو زوج أو شريف ، وقد يكون سبب هذا راجعا إلى طبيعة العادات الجاهلية التي تُعلـــي مـــن منزلة الرجال ، وتحطّ من منزلة النساء ؛ بدليل أنّ الوأد في الجاهلية لم يكن إلا للبنـــات دون البنين إنْ أقدم عليه بعض الآباء ؛ خشيةَ الفقر ، وتلافيا للعار الذي يمكن أن تلحقـــه البنـــت بشرف أهلها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنّ جلّ الأعمال الخطيـــرة يبقـــى ذكرهـــا ، وينتشر خبرها كانت منوطة بالرجال كأمور الملك وشؤون الإمارة وقيادة الجيـــوش ، وهـــذه أعمال تتصف بعموم تأثيرها على سائر أفراد المجتمع ، ويبقى ذكرها مقرونا بمواقف رجالها ، بدليل أنْ جلّ ما وصل إلينا من شعر النساء الجاهليات كان عن أيام حروبهم .

ومما يلاحظ على معاني هذا الرثاء وضوحها وسهولة فهمها ؛ فليس فيها تكلّـــف أو مبالغة في خيال ، فالشاعرة تستوحي ذلك ممّا أحاط بها من بيئـــة الجزيـــرة العربيـــة ، ذات الصحاري الواضحة الممتدة ؛ فحاولت أن ترسم رثاءها بما يناسب واقع الحال الذي تعيـــشه ، ثم تعكسه لنا بمرآة صقيلة تتجلى فيها " المعاني منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة ، فهي حقائق تسرد سردا ، وقلّما شابَه الخيال إلا ليزيدَها إمعانا في الوضوح والجلاء [١] " ، نجد هذا الوضوح غاية في الإبانة عندما تتحدث الراثية عن فضائل المتوفى ، وكأنها بذلك تقصد عمدا إلى مزيد من إشهاره ؛ فأيّ لَبس في معنى من المعاني يقتضي ألا تبلغ هدفها من إبلاغ لشهرة الفقيد ، أو اكتساب مشاركة في حزن أو أسى ، وكلاهما لديها ذو خطـــر ؛ فـــالأول واجـــب ،

١- شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، ط١٦ ، دار المعارف ، القاهرة ــ مصر ، د.ت ، ص٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يلزمها أنْ تؤدِّيَه إكراما لذكرى فقيدها ، والآخر هَمٌّ يحسُن بها أن تتسلّى عنه باستمالة غيرها إليها بلطيف المعاني ، ورقيق الألفاظ . نجد مثال هذا الوضوح لدى خالدة بنت هاشم ترثي أباها ، تقول [١] :

هاشم الخير ذي الجلال والحمد ... وذي الباع والندى والصميم

وربيع للمجتدين وحرز ... ولزاز لكلّ أمر جسيم

إلى أن تنتهي بقولها :

غالبيّ مشمّر أحوذيّ ... باسق المجد مصرخيّ حليم

والحقيقة أن مرثيتها كلَّها لا يعدو أن يمرَّ بيت واحد إلاّ وتمدح فيه فضيلة من فضائل أبيها ، دون أن تتغلغل إلى معانٍ غامضة تحتاج إلى إمعان الفكر ، أو إدامة النظر لاكتشاف خفايا ما تحمل من دلالة ذات عمق ، بل تأتي هذه المعاني على شكْل يسهل فهمُه ، أو تفسيره بالرجوع إلى معاجم اللغة .

ونجد من أمثلة هذا الوضوح في المعاني لدى رائطة بنت شيظم تبكي أخويها ، تقول [٢] :

السيدين المانعين ... الذائدين عن المحارم

الفاتقين الراتقين ... السابقين إلى المكارم

الضاربين جماجم الأبطال ... بالبيض الصوارم

والطاعنين بكل مارنة ... وقاصمة وقاصم

١- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٣ ــ ٢٣٤ .

٢- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر أنها صفات لم تخرج معانيها عن دائرة ما هو مشهور بين العرب ، ممدوح بينهم من ذوْد عن المحارم ومسابقة إلى المكارم ، وضرب بالبيض على جماجم الأبطال ، وطعن بالرماح في صفوف الأعداء ، وقد ترى بعض الراثيات أن يلبسن المرثيين لباسا يزدان بالمبالغة على وزن (أفعل) ؛ إجلالا لهم ، وتوقيرا لمقامهم ، لا سيَّما إذا كان تلك المحامد مجردة كالحلم ، تقول زينب بنت مالك [١] :

سأبكي يزيد بن عبد المدان على أنه الأحلم الأكبر

أو ما يكون على وزن (فعول) كقول آمنة بنت عتيبة ترثي أباها [٢] :

ضروبا للكمي إذا اشمعلّت عوان الحرب لا ورعا هيوبا

ومنها ما يكون على وزن (فعّال) وأكثر من استخدمت ذلك عمرة بنت شداد راثية أخاها على نمط ما رثت الخنساء به أخاها صخرا ، تقول [٣] :

شهاد أندية ، رفاع أبنية شداد ألوية ، فتاح أسداد

نحار راغية ، قتال طاغية حلال رابية ، فكاك أقياد

قوال محكمة ، نقاض مبرمة فراج مبهمة ، حباس أوراد

حلال ممرعة ، حمال مضلعة فراج مفظعة ، طلاع أنجاد

وتشعرنا هذه المبالغة التي تخلعها على المرثي بحركة المعنى وعدم جموده عند حدّ معين لا يتجاوزه ، بل تشعرنا أن المعنى يتَّسع إلى التكرار ويقبل المزيد ، كما يمكن أن تقودنا هذه الصيغة إلى إيقاع موسيقيّ تستعذبه الشاعرة ؛ فترى فيه قالبا تسكب فيه آهاتها الحزينة .

١- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص١٦ .

٢- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص٢٥٠ .

٣- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ أن أغلب معانيهن تصوّر الفقيد مثلا أعلى يحتذى بمكارمه وصفاته ، وأن خسارته لتؤثر على سائر أفراد قبيلته ؛ لذلك تسبغ عليه ما تستطيعه من صفات جميلة تجعله ذلك الرمز الذي تريده لغيرها .

ومن مظاهر تأثر معاني الرثاء بالبيئة ورود أسماء الأماكن في كثير من قصائده ومقطعاته ، لا سيما أسماء أيام العرب ووقائعهم التي كانت باعثا مهما على ظهور الرثاء ؛ فقد لعبت فيها المرأة دورا بارزا يقوم على استنهاض الهمم وتعداد مناقب الفقيد ، والتحريض على الأخذ بالثأر ، والانتقاص من العدو ، وناهيك بتأثير انتقاص امرأة لرجال من الأعداء ، كيف تحط من معنوياتهم ، وتستنزل من أقدارهم ؛ من أجل هذا وقفت المرأة بجانب الرجل في المعركة بالرأي والكلمة ، فسجلت لنا أسماء كثير من تلك الوقائع أو الأماكن ؛ تقول عمرة بنت دريد وقد قتل أبوها بسُميرة [١] :

لعمرك ما خشيت على دريد (ببطن سُميرة) جيش العَتاق

وكقول ابنة مالك بن بدر [٢] :

إذا سجعت (بالرقمتين) حمامة أو (الرّسّ) تبكي فارس الكتفان

وقول بنت بجير بن عبد الله [٣] :

وذَحْلُهُمُ يناديهم مقيما لدى (الكَدَّام) طلاَّب الذُّحُول

وقول ابنة فروة بن مسعود [٤] :

(بعين أُباغ) قاسمنا المنايا فكان قسيمها خير القسيم

١- ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، مج٢ ، ج٤ ، ص٧٥ .

٢- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٧ ، ص١٤٥ .

٣- المرزباني : أشعار النساء ، ص٦٤ .

٤- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول ريطة بنت العباس [١] :

وكانـــت إذا مـــا لم تطارد (بعاقل) و(بالرأس) خيلا طاردتها (بعيهما)

وقول أم تأبط شرا [٢] :

فتـــى فـــهـــم جميـــعـــا غـــادروه مقيما (بالحُريضة) مـــن (نُمار)

وقولها [٣] :

ويـــلُ امِّ طِرْف غادروا (برَخمان) بثابـــت بـــن جابـــر بـــن سفيان

وقول الكندية [٤] :

هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعـــوا (بجيشان) من أسباب مجد تصرما

وقول أخت حاجز الأزدي [٥] :

أحـــي حاجـــز أم لـــيـــس حـــيـــا فيسلك بين (جَنْـــدَف) و (البَهيم)

ويشرب شربة من (مـــاء تـــرَج) فيصـــدر مِشيـــة السبُـــع الكليـــم

وقول مية بنت ضرار الضبية [٦] :

لتجـــرِ الحـــوادثُ بـــعـــد امـــرئ (بـــوادي أشائـــيـــن) إذلالَـــهـــا

وقول الفارعة القشيرية [٧] :

شفـــى اللـــه نفســـي من معشـــر أضاعـــوا قدامة (يـــوم النِّســـار)

١- البكري : معجم ما استعجم ، مج١ ، ج١ ، ص٢٩٣ .
٢- الأصفهاني : الأغاني ، ج٢١ ، ص١٢٤ .
٣- المصدر السابق ، ج٢١ ، ص١٢٤ .
٤- المبرد : التعازي والمراثي ، ص٢٦ و ١٦٤ .
٥- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٣ ، ص١٥١ .
٦- ابن منظور : لسان العرب ، مادتا (زهف) و (أشر) .
٧- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٥٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول سارة القريظية [١] :

بنفسي أمة لم تغن شيئا (بذي حُرُض) تُعفِّيها الرياح

وقول ذئب بنت نشبة [٢] :

ألا إن يوم الشر يوم (بصُورةٍ) ويوم فناء الدمع لو كان فاتيا

ومن صور الاستعانة بعناصر الطبيعة واتخاذها وسيلة للتعبير هي أن ترمز الراثية لنفسها بالحمامة ، والقُمريّ ، والطّير ؛ تقول ابنة مالك بن بدر [٣] :

إذا سجعت بالرقمتين (حمامة) أو الرّسّ تبكي فارس الكَتِفَان

وتصف رائطة بنت شيظم حالها بعد فقد أخيها بالطير المقصّص ريش جناحيه ؛ تقول [٤] :

فبقيت كـ (الطير) المقصّص ريشُهُ واهي القوادم

وتقول أم عمرو بنت المكدم [٥] :

فسوف أبكيك ما ناحت (مطوّقة) وما سريتُ مع الساري على ساق

وتقول فاطمة بنت الأجحم [٦] :

وإذا دعت (قُمريَّةٌ) شجنا لها يوما على فنَنٍ دعوت صباحي

وترمز دختنوس بنت لقيط بالنَّعام على جُبْن مَن غدروا بأبيها ، تقول [٧] :

غدرتم ولكن كنتم مثل (خُضَّبٍ) أصاب لها القنّاص من جانب الشَّرى

١- الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٢ ، ص٨٠ .
٢- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٤٩ .
٣- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٧ ، ص١٤٥ .
٤- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٩ .
٥- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٣٠٧ .
٦- القالي : الأمالي ، ج٢ ، ص١ــ٢ .
٧- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج١ ، ص٢٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستعِـنَّ كذلك لإبراز معانيهن بالحيـوان من خيـل وإبـل وكلـب ونمـر ، تقـول ابنة أبي الجدعاء [١] :

ولو شاء نجّاه من الخيل (سابح) جموم على الساقين والسوط مفضل

وتقول أخت مسعود بن شداد [٢] :

نحّـار (راغية) ، قتّال طاغيـة حـلاّل رابيـة ، فكّـاك أقـيـاد

ويتكرّر المعنى عند ذئب بنت نُشبة ، تقول [٣] :

قُروما يَكُبُّون (المَخاض) على الذُّرى ويُوفـون بالشَّحـم القدورَ الغواليا

وتذكر ريطة بنت عاصية الكلب في معرِض رثائها ، تقول [٤] :

لا ينبح (الكلب) فيها غيـرَ واحدة مـن القريـس ولا تسري أفاعيها

كما تذكر أخت عمرو ذي الكلب (نمرين) قتلا أخاها عمرا ، تقول [٥] :

أتيـح لـه (نـمـرا) أجـبـلٍ فنـالا لعمـرك مـنـه مـنـالا

ويشبّهن بالقرود وبالفئران أعداءهن ؛ تقبيحا لأفعالهم وتصغيرا لشؤونهم ، إذ إنهم هم الخذلة لأقوامهن وقتَ الحاجة الملحّة إليهم ؛ تقول ابنة أبي الجدعاء [٦] :

ولكـن دعـا أشبـاه نبت كأنهم (قـرودٌ) على خيل تخبُّ وتركُلُ

ويتكرّر مثل هذا المعنى عند دختنوس بنت لقيط ، تقول [٧] :

وهـوازنٌ أصـحـابُـكـم كـ (الـفـأرِ) في أذنـابـهـا

١- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص٩٦ .
٢- ابن حبيب : أسماء المغتالين ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج٢ ، ص٢٢٨ .
٣- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٤٩ .
٤- المصدر السابق ، ج٢ ، ص٨٦٤ .
٥- المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٥٨٣ .
٦- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص٩٦ .
٧- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٢٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا تتوقف معانيهن على هذا القدْر من الآيات الطبيعية ، بل تمتدّ إلى ذِكْـر الريـاح والربيـع والبرق ، تقول أم مَعدان الشيبانية [١] :

مـعـدانُ مَـن لـلـحـيٍّ إذ هـبـّتْ (شآمـيـةٌ) فـجـورا

وتقول أخت عمرو ذي الكلب [٢] :

بأنـك كنـتَ (الربيعَ) المغيـث لمـن يعتريـك وكنـت الثـمـالا

وتقول أخت مسعود بن شداد [٣] :

يا مَن رأى (بارقا) قد بِـتُّ أرمقه جودا على الحرّة السوداء بالوادي

وممّا يلاحظ على معاني رثائهن أيضا أنهـن يكثرن من ذكر العين ودموعها ، والرأس وشيبه ، والنعي وشق الجيوب ، والبكاء والجزع ، واللهف والفجيعة ، والحوادث والمنـون ، ويرجع هذا إلى طبيعـة المـرأة الأنثويـة ؛ لأنهـا أقوى عاطفة وتأثرا من الرجال ، مثـال هذا قول خالدة بنت هاشم ترثي أباها [٤] :

(عين) جودي (بعبرة) وسجوم واسفحي (الدمع) للجواد الكريـم

(عين) واستعبري وسحّي وجمّي لأبـيـك الـمـسـوّد المطـوم

وقول ابنة قيس بن جابر [٥] :

تطاول ليلـي للهمـوم الحواضـر (وشيّب رأسي) يوم قيس بن جابر

١- المرزباني : أشعار النساء ، ص١٢٧ .

٢- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٣ .

٣- ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج٢ ، ص٢٢٨ .

٤- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٣ .

٥- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص٢٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول آمنة بنت عتيبة [١] :

على مثل ابن ميّة فانْعَياهُ (بشقّ نواعم البَشَر الجيوبا)

وقول ناجية أخت هرِم بن ضمضم [٢] :

يا (لهف) نفسي (لهفة المفجوع) ألا أرى هرِما على مَوْدوع

ولعلّ مِن أكثر المراثي التي زخرت بهذه المعاني هي مرثية سُعدى بنت الشَّمَرْدَل لأخيها ، تقول [٣] :

أمن الحوادث (والمنون) أروع وأبيت ليلي كله (لا أهجع)

وأبيت مخلية (أبكي) أسعدا ولمثله (تبكي العيون وتهمع)

وتبين (العين الطليحة) أنها (تبكي) من (الجزع الدخيل وتدمع)

ويلاحظ أنهن أبرزن في أشعارهن مجموعة من العادات الجاهلية ، وأشهرهن الأخذ بالثأر ، وتعليق التمائم ، وشق الجيوب عند المصيبة ، وإقامة المآتم ، واجتماع النسوة الثكلى بعضهن ببعض ؛ لأن " الثكلى تحبّ الثكلى [٤] " طمعا في أن يخفّ مصابها إذا رأت من يشاركها البكاء والجزع ؛ فمّما يدلّنا على عادة الأخذ بالثأر قول دختنوس بنت لقيط [٥] :

فما (ثأره) فيكم ولكن (ثأره) شريح ، وأردته الأسنة إذ هوى

فإن تُعقبِ الأيامُ من عامر يكن عليهم حريقا لا يُرام إذا سما

١- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص٢٥٠ .

٢- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٤ ، ص١٤٦ .

٣- الأصمعي : الأصمعيات ، ص١٠١ .

٤- الميداني : مجمع الأمثال ، ج١ ، ص١٥٣ .

٥- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٢٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول ابنة بُجير [١] :

فـمـا كعـبٌ بكعـبٍ إنْ أقامـتْ ولـم تـثـأرْ بفارسهـا القتيـلِ

وقول عاصية البولانيّة [٢] :

صبرنا لما يأتي به الدهـر عامـدا ولكنمـا (أثآرنـا) في مُحـارب

ومما يدلّنا على عادة تعليق التمائم قول الخنساء أخت زهير [٣] :

ومـا يُغنـي توقِّـي الموت شيئـا ولا (عَقْـد التميـم ولا الغُضار)

أما شقّ الجيوب نجد شاهدا عليه عند آمنة بنت عُتيبة [٤] :

علـى مثـل ابـن ميـّة فانْعَيَـاه (بشـقّ نواعـم البَشـر الجيوبا)

ويُظهر البيتان التاليان عادة إقامة المآتم الحزينة ؛ تقول رائطة بنت شيظم [٥] :

مـع كـل رنّـة (مـأتـم) لـي (مأتـم) وعلـي (ماتـم)

وتقول ريطة بنت عاصم [٦] :

وقفـت فأبكتني بـدار عشيرتـي على رزئهـن الباكيـات الحواسـر

تصف ببيتها هذا مأتما بدار عشيرتها تظهر فيه النساء باكيات حاسرات ؛ أي كاشـفات عـن رؤوسهن ووجوههن .

١- المرزباني : أشعار النساء ، ص٦٤ .

٢- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج٢ ، ص٩٢١ .

٣- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٠ ، ص٢٤٤ .

٤- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص٢٥٠ .

٥- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٨ .

٦- المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن خصائص رثائهن أيضا ندرة الحكمة فيه ويرجع ذلك إلى " أنهن ينصرفن إلى النواح ، ويستغرقن في الرثاء ، لا يلوين على غيره ؛ فلا يلحق به سواه ، كما كان الرجال يفعلون [١] " ، وترجع هذه الندرة أيضا إلى مباغتة الحدث الذي يصل خبره إليهن فجأة بغير مقدّمات ؛ فتضج عواطفهن بالصراخ ، وترتفع الحكمة حينذاك إلا عن قلة منهن يستطعن تمالك أنفسهن مفسحات للحكمة أن تأخذهن إلى المجرى الحيويّ الطبيعيّ المحكوم بالعقل ، والتصرّف إزاءَ الحدث برزانة وانضباط ؛ مثال ذلك قول سُعدى بنت الشمردل [٢] :

إن الحوادث والمنون كليهما ... لا يَعتبان ولو بكى من يجزع

ولقد علمت بأن كل مؤخر ... يوما سبيل الأولين سيتبع

ولقد علمت لو ان علما نافع ... أن كلّ حيّ ذاهب فمودع

أفليس فيمن قد مضى لي عبرة ... هلكوا وقد أيقنت أن لن يرجعوا

وقول أم السليك بن السلكة ترثيه [٣] :

كلّ شيءٍ قاتلٌ ... حينَ تلقى أجلَك

وتتصل ندرة الحكمة بما هو أندر في رثائهن وهو المثل ؛ إذ تقع الدراسة على مثل واحد من أشعارهن الرثائيّة قد عدّه الميدانيّ أحدَ الأمثال وهو " ثكلتك أمُّك أيَّ جَرْدٍ ترقع [٤] " ، والمثل جزء من بيت لسعدى بنت الشمردل ترثي أخاها أسعد ، تقول [٥] :

أجعلتَ أسعدَ للرماحِ درينةً ... (هبِلتْك أمُّك أيَّ جرْد ترقع)

١- أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ، القاهرة ــ مصر ، ١٣٨٢هـ ــ ١٩٦٣م ، ص٦٢٥ .
٢- الأصمعي : الأصمعيات ، ص١٠١ .
٣- التبريزي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٩ .
٤- الميداني : مجمع الأمثال ، ج١ ، ص١٥٥ .
٥- الأصمعي : الأصمعيات ، ص١٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد فسّر الميدانيُّ معنى لفظ (الجَرْد) بالثوب الخلَق ، غير أنه لم يرفع المثل إلى قائله ، ونحن نجد أنّ المطابقة بين المثل والبيت حاصلة تماما لولا الاختلاف بين كلمتي (هبلتك) في البيت و (ثكلتك) في المثل ، وهو لا يغيّر في الواقع كثيرَ معنى ، ومثل هذا الاختلاف كثير بين الرّوايات .

ثانيا : الخصائص المعنوية الخاصة :

وهي ما تخصّ كلّ اتجاه من اتجاهات فنّ الرثاء على حِدة ؛ ففي رثاء الآباء تكثر الراثية من امتداح أبيها امتداحا تلبسه به أجلّ صفات الأبوّة من شرف في النسب وكرم في الطباع ، وحلم ومروءة وإحسان على الأرامل والأيتام ، يوجد ذلك في قصيدة خالدة بنت هاشم في أبيها ، فقد أسبغتْ عليه مديحا في كلّ أبيات القصيدة ، ومنها [١] :

شيظمي مهذّب ذي فضول ... أبطحيّ مثل القناة وسيم

صادق البأس في المواطن شهم ... ماجد الجدّ غير نكْس ذميم

ونفهم من رثاء أروى بنت الحُباب أباها بأنّه كان محسنا للأرامل واليتامى محافظا على الأحساب ، تقول [٢] :

قل للأرامل واليتامى قد ثوى ... فلتبك أعينها لفقْد حُباب

وتقول :

أودى ابنُ كلِّ مُخاطرٍ بتلادِهِ ... وبنفسِهِ بُقيا على الأحساب

١- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٣ .

٢- البحتري : الحماسة ، ص٢٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتصف دختنوس أباها بالرئيس ، وهذه الصفة من أجلّ ما يتّصف به الأب ؛ لأنه يمثّل سيادة أوّلية على البيت ، فإذا قرنها برئاسة القبيلة صارت الصفة عليه حينذاك ألصق وأشهر ، تقول [١] :

ورئيسها عند الملوك وزَيْن يوم خطابها

وفي رثاء الأبناء أول ما يلاحظ أن الأم ترفض قبول الدّيَة ، بينما الأب يرضى بها ، نعرف هذا من عِتاب أمّ قِرفة لزوجها [٢] :

أيقتل قرفةً قيسٌ فترضى بأنعامٍ ونوقٍ سارحات
أما تخشى إذا قال الأعادي : حذيفة قلبه قلب البنات
فخذ ثأرا بأطراف العوالي وبالبيض الحداد المرهفات
وإلا خلّني أبكي نهاري وليلي بالدموع الجاريات
لعلّ منيتي تأتي سريعا وترميني سهام الحادثات
فذاك أحبّ من بغل جبان تكون حياته أردا الحياة

ونعرف كذلك أنّ الأمّ تتمنى أن تفديَ ابنها بنفسها من الموت لو استطاعت ؛ تقول أم السليك [٣] :

ليت نفسي قُدّمتْ للمنايا بدلَكْ

١- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص٢٥١ .
٢- بشير يموت : شاعرات العرب ، ص٦٢ .
٣- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما ما يتعلّق بصفات الفقيد ، فهي ترى ابنها الكامل في نظرها ، وتراه زين الناس جميعا ، وهاتان الصفتان نفتقدهما في الاتجاهات الأُخَر من الرثاء هذا ، تقول أمّ عمرِو بن عَدِيّ في رثاء ابنها [١] :

ويح عمرو بن عدي من رجل حان يوما بعدما قيل (كمل)

وتقول تماضر بنت الشريد [٢] :

على ولد و (زين الناس طرّا) إذا ما النار لم ترَ مَن صَلاها

ويُظهر لنا هذا اللونُ من الرثاء حديثَ الأمّ عن عُنوسة الزوجة إذا مات عنها الزوج قبل أن يَبني بها ؛ تقول عمرة الخثعمية [٣] :

لقد ساءني أنْ عنّستْ زوجتاهما وأن عُرِّيتْ بعد الوجى فرساهما

وفي رثاء الإخوان تشبّه الشاعرة أخاها باليدين ؛ تقول رائطة بنت شيظم [٤] :

كانا يديّ فشلّتا بالساعدين وبالمعاصم

ونرى في رثاء الإخوان تركيز الشاعرات على صفتي الشجاعة والفروسية ، وهما صفتان تتصلان بروح الشباب ، وعاطفة الأخوة المحامية عن حمى الأهل والقبيلة ؛ لأنّ القوة تكون في الشباب ، وأغلب قصائد ومقطعات هذا الاتجاه لم تغبْ عن هذه الروح الشابّة .

١- الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٤ ، ص٤٤ .

٢- شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص١٣٩ .

٣- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٢ .

٤- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي معرض تفدية الشاعرة أخاها ، نجد أنها تحاول أن تفدي أخاها بكل مـا تملـك ؛ تقول أم عمرو بن مكدم [١] :

أو كـان يُفـدى لكان الأهلُ كلّهـم وما أثمّـر مـن مـال لـه واق

وتقول سعدى بنت الشمردل [٢] :

فوددت لـو قُبلـت بأسعـد فديـة مما يضن بـه المصـاب الموجـع

ويلفت النظر في هذا الجنس من الرثاء التباهي والمفاضلة بين النـساء بـإخوانهن ، على غرار مباهاة بعضهن بعضا بما يملكن من حلي ؛ تقول أم عمرو بن مكدم أيضا [٣] :

فتـى هـو خيـر من أخيكن مالك إذا احمرّ أطراف الرماح من الـدم

ولا ترى أخت عمرو ذي الكلب ندا لأخيها تثأر منه ؛ لأن أخاها فـي نظرهـا الأفـضل علـى الإطلاق ؛ تقول [٤] :

واللـه لـو بـك لـم أدع أحـدا إلا قـتـلـت لفاتـنـي الـوتـر

وفي رثـاء الأزواج تنعت الشاعرة زوجها بالأنف ؛ فترفع من شأنه تشبيها له بالأنف المرتفـع على كثير مـن أعضاء الجسم وفي هـذا كناية عـن سيادته على البيـت ، أو القبيل'، أو على كليهما ؛ تقول الخرنق بنت بدر [٥] :

هـم جدعوا (الأنوف) وأوعبوها فما ينساغ لـي مـن بعـد ريقـي

١- أبو عبيدة : أسام العرب ، ج٢ ، ص٣٠٧ .
٢- الأصمعي : الأصمعيات ، ص١٠٢ .
٣- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج٢ ، ص١٣٧ .
٤- المبرد : الفاضل ، ص٦٠ .
٥- الخرنق بنت بدر : ديوانها ، ص٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتصف فاطمة بنت الأجحم زوجها بالجبل ؛ تقول [١] :

قـد كنـت لي (جبلا) ألوذ بظلـه فتركتني أضحـى بأجـرد ضاحـي

وتصف زينب اليشكرية زوجها وصفا مطابقا للحالة الزوجية التي يكون فيها الزوجان متآلفين في حياة تسودها المودّة والدَّعة ؛ لذلك تصفه بالإلف ؛ تقول [٢] :

أراني كسرب حِيـل عنـه (أليفه) قوافزه في مهمـه الخبـت ضلّـت

وطبيعيٌّ أن تذكر الشاعرة الليل ؛ لأنه ــ غالبا ــ الوقت الذي يمثل خصوصية لقاء الـزوجين معا ؛ تقول سُهيَّة زوج شدّاد العبْسي [٣] :

جفانـي الكرى وأنـا في (الغسق) وساعدنـي الدمـع لمـا انـدفـق

ويتّسم هذا الاتجاه كذلك بذكر البيت ؛ لأنه عُشُّ الزوجية ، ومكان الولادة ؛ تقول جليلة زوج كليب [٤] :

يـا قتيـلا قـوضـت صرعـتـه سقـف (بيتيّ) جميعا مـن عـل

قوضت (بيتي) الذي استحدثتـه وانثنـت في هـدم (بيتـي) الأول

وفي الرثاء القبلي نجد أن الرثاء لدى الشاعرات لم يتوقف عند رثاء المقربين مـنهن حسب ، بـل تجاوزهم حتى شمل سواهـم من قبائل شتى ، مهما كان بين قبيلـة الـشاعرة وقبيلة المرثي من عداوة أو بغضاء ؛ تقول زينب بنت مالك ، وقد عاتبها أهلها على رثاء يزيد ابن عبد المدان [٥] :

ألا أيهـا الـزاري علـي بأننـي نزاريـة أبكـي كـريمـا يمانيـا

١- القالي : الأمالي ، ج٢ ، ص١ .

٢- بشير يموت : شاعرات العرب ، ص٦١ .

٣- ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص١٥٩ .

٤- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص١٢٩ .

٥- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعلل لقومها سبب رثائها له :

وما لي لا أبكي يزيد وردني أجرّ جديدا مدرعي ورداليا

بل هناك ما هو أعجب من هذا ؛ هو أن تدعو الشاعرة على ابنها إن كان قاتلا من أحسن إليهما على السواء ؛ تقول أم ناشرة [١] :

لقد عيّل الأيتام طعنة ناشره أناشر لا زالت يمينك آشره

ويُظهر لنا الرثاء القبلي لديهن كذلك جانب المساواة بين فرسان القبيلة الواحدة ؛ تقول الخرنق بنت بدر في قومها [٢] :

والخالطين نحيتهم بنضارهم وذوي الغنى منهم بذي الفقر

كما يُجلّي لنا هذا الاتجاه حديث الشاعرة عن التماسك والجلَد لأبناء القبيلة عند نزول الشدائد عليهم كنتيجة طبيعية لاتحاد أفراد القبيلة وتعاضدهم ؛ مثال ذلك قول ريطة بنت عاصم [٣] :

ولو أن سلمى نالها مثل رزئنا لَهُدّتْ ولكن تحمل الرزءَ عامرُ

١- ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج٢ ، ص١٤٧ .

٢- الخرنق بنت بدر : ديوانها ، (تحقيق : يسري عبد الغني) ، ص٤٣ .

٣- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

الخصائص اللفظية

يجب أن يُفهم بداية ذي بدء أن لغة الشعر لا تتوقّف عند المعاني الحسيّة المعجمية القريبة ، بل تتجاوز هذا الحدَّ إلى المعاني المجرَّدة ، ذات العمق الدَّلالي البعيد ؛ فهي لغة الانزياح من المألوف إلى غير المألوف ، وكلّما كانت الدلالة أعمق وأخصب يكون النص الشعري قد تمتّع بما يميّزه من الجمال ، ويغذّيه بالنبض والحركة ؛ فلغة الشعر " هي لغة فنية ينبغي لها أن تصل إلى معانٍ ذات خصوصيّات لُغويّة [١] " .

ولإيجاد هذه الخصوصية يسعى هذا الفصل إلى تجلية العلاقة المشتركة بين موضوع الرثاء وما يتصل به من ألفاظ وأساليب ؛ يقول القرطاجنّي [٢] : " وأما الرثاء فيجب أن يكون شاجي الأقاويل ، مبكي المعاني ، مثيرا للتباريح ، وأن يكون بألفاظ مألوفة ؛ سهلة في وزن متناسب ملذوذ ، وأن يُستفتح فيه بالدلالة على المقصد " .

وهذا ما يُلمس على ألفاظ الرثاء لدى شاعرات الجاهلية ، وملاءمة الألفاظ للمعاني ؛ فما إن تستهلّ الشاعرة رثاءها حتى يتعالى نغم البنية الصوتية الدالة على معانٍ تفسِّر ــ غالبا ــ بأنها ذات دلالة رثائية حسيّة ، أو مجرّدة .

وحقيقٌ أنْ يُفهم أيضا بأن هناك سلطانا يحكم سيرورة البنية اللفظية في النص الشعري هو سلطان الموسيقى ؛ فلا يسمح للفظ أن يأتي عفْوا بلا توجيه ، بل يجب أن يكون الشاعر ضابطا ومسيّرا للفظ بحيث يكون منسجما مع الوزن والقافية ، ومع الدلالة ، وعندئذ يكون

١- إبراهيم السامرائي : في لغة الشعر ، د.ط ، دار الفكر ، عمان ــ الأردن ، د.ت ، ص٣ .

٢- القرطاجني ، أبو الحسن حازم ، (ت٦٨٤هـ) : منهاج البلغاء ، وسراج الأدباء ، د.ط ، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، د.ت ، ص٣٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العمل الشعريّ قائما على ثلاث أثافي هي اللفظ ، والمعنى ، والموسيقى . وأي سقوط لواحدة منها ينكفئ بسببه قِدْر هذه الصنعة الفنية على نارها فتخمد ! .

ويتبيّن لنا أن جُلّ الألفاظ في بنية المرثية لدى الشاعرات الجاهليات تشي لنا بمعاني الحزن والكآبة ؛ يظهر ذلك في ألفاظ مثل : لِيبْكِكْ ، أرملة ، فجعت ، هُلكه ، الحتف ، عفَتْ ، اليتامى ، شيّب ، النعي ، المنايا ، قتلنا ، عقيرة ، الموت ، الرزايا ، القتيل ، الدمع ، العين ، بكي ، آسى ، لهف ، حسرتي ، بؤس ، أفجعتني ، حنظل ، جزَع ، وأودى . وإلى غير هذه الألفاظ الحزينة الباكية ؛ وهي من الكثرة ما يجعلها ساكنةً في كلّ بيت من أبيات قصيدة أو مقطّعة ؛ مثال ذلك قول خالدة بنت هاشم [١] :

بكتْ عيني وحقّ لها بُكاها ... وعاودها إذا تمسي قذاها

أُبكّي خير من ركب المطايا ... ومن لبس النعال ومن حذاها

أبكّي هاشما وبني أبيه ... فعيل الصبر إذ مُنعت كراها

وكنت غداة أذكرهم أراها ... شديدا سقمها باد جواها

فلو كانت نفوس القوم تفدى ... فديتهم وحقّ لها فداها

فإذا حاولنا أن نعُدَّ شيئا منها وجدناها كالتالي : بكت عيني ، بكاها ، قذاها ، أبكي ، فعيل الصبر ، منعت كراها ، شديدا سقمها ، باد جواها . ويضاعف من العجب بكثرتها عندما نتبيّن أنها وقعت في مقطّعة من خمسة أبيات ، بل هناك ما هو أكثر من هذا ، تقول الكندية [٢] :

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم ... فماتوا وأطراف القنا تقطر الدما

١- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٣ .

٢- المبرد : التعازي والمراثي ، ص٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولو أنهـــم فـــرّوا لكانـــوا أعـــزة ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعـــوا بجيشان من أسباب مجـــد تصرما

نُبصِرُ معظم هذه الألفاظ والتراكيب قد جاءت حزينةً مثل قولها : " القنا في نحـــورهم ، فماتوا ، أطراف القنا تقطر الدما ، صبرا على الموت ، هوت أمهم ، مجد تصرما " .

ولا يخفى امتزاج الألفاظ ذات المعاني الحسيّة بالألفاظ ذات المعاني المجـــرّدة ؛ ففـــي المقطعة الأولى نرى الألفاظ الحسيّة ، مثل : بكت عيني ، وأبكي ، وأبكي هاشما . ونجد أيضا التراكيب المجردة ، مثل : " عاودها إذا تمسي قذاها " ، و " فعيل الصبر " . وتكاد تكون جميع ألفاظ وتراكيب المقطعة الأخرى ذات معان مجردة ، مثل : " القنا في نحورهم " ، و " هـــوت أمهم " ، و " مجد تصرما " .

وتشترك معظم الشاعرات في استخدام ألفاظ بعينها ، كلفظ (الموت) وما يدلّ عليه من ألفاظ أُخر ؛ مثل : الهلاك والحتف ، والمنايا ؛ ويرجع هذا إلى اعتبار الموت قُطْبا يدور حولَه موضوع الرثاء ؛ فلا ريب أن يكثر ذكرُه وتتعدّد ألفاظه في أشـــعارهن ؛ تقـــول أم الـــصريح الكندية :

ولو أنهـــم فـــرّوا لكانـــوا أعـــزةً ولكن رأوا صبْرا على(الموت) أكرما

وتقول حارثة بنت كلمن [١] :

كـــلـــمـــنُ هـــدّمَ ركـــنـــي (هـــلْـــكُـــهُ) وســـطَ المحـــلّـــه

وتقول الأزدية [٢] :

لا أرى مثـــلَ سامـــةَ بـــنِ لُـــوَيٍّ حملـــتْ (حتفَـــه) إليـــه الناقـــهْ

١- المسعودي : مروج الذهب ، ج٢ ، ص١٤٩ .

٢- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (فوق) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقول أم السُّليك [١] :

و (المنايا) رصَدٌ للفتى حيثُ سلَكْ

ويُعَدُّ التكرار اللفظي من خصائص رثائهن ؛ لأن الشاعرة تؤكد به موقفها إزاء الحدث ، وتراه أسلوبا يُعرب عن قصدها في الإفاضة عن صفات المرثي ؛ تستثير به مزيدا من كوامن عواطفها نتيجة امتلاكها لذلك الإيقاع المتناغم الذي تَبني عليه جديدا من التراكيب الدالة على مناقب الفقيد ؛ فتكرّر ألفاظا وتراكيب مثل : ألا هلك ، وأبكي ، وربّ ، ولقد علمت ، وأُتيح ، فنالا لعمرك منه . مثال ذلك تقول امرأة من حنيفة [٢] :

ألا هلك ابن قرّان الحميد أخو الجُلّى أبو عمرو يزيد
ألا هلك امرؤ هلكت رجال فلم تُفقدْ وكان له الفُقود
ألا هلك امرؤ حبّاس مالٍ على العِلاّت مِتلاف مُفيد
ألا هلك امرؤ ضلّت عليه بشطٍّ عُنيزةٍ بقرٌ هُجود

وتقول عمرة بنت دريد [٣] :

فربّ عظيمةٍ دافعتَ عنهم وقد بلغت نفوسهمُ التراقي
وربّ كريمة أعتقتَ منهم وأخرى قد فككتَ من الوَثاق
وربّ مُنوّهٍ بك من سُليمٍ أجبتَ وقد دعاك بلا رماق

١- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٩ .
٢- المفضل الضبي : المفضليات ، ص٢٧٣ .
٣- ابن هشام : السيرة النبوية ، مج٢ ، ج٤ ، ص٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقول سعدى بنت الشمردل [١] :

ولقد علمتُ بأنّ كلّ مُؤخّرٍ يوما سبيلَ الأولين سيتبعُ

ولقد علمت لو انّ علماً نافعٌ أنْ كلّ حيٍّ ذاهبٌ فمودّعُ

وتقول أخت عمرو ذي الكلب [٢] :

أتيحَ له نَمُرا أجَبُلٍ فنالا لعمرُك منه مَنالا

أتيحا لوقتِ حِمامِ المنونِ فنالا لعمرُك منه ونالا

وتتخذ الأساليب في لغتها أشكالا عديدة ؛ كالنداء والاستفهام والحوار والتمني والنهي والطلب والدعاء . وأغلب ما تلحق هذه الأساليب بمطالع وخواتم القصائد ، وقد عرضت الدراسة لأكثرها بالأمثلة في معرض الكلام عن بنية المرثية (القصيدة)في الفصل الأول من الباب الثاني ، وما بقي إلا عرضُ نفس الأساليب التي ورد استخدامها في المقطعات ، ومن ذلك أسلوب النداء ، نجد مثاله في مقطعة فاطمة بنت الأجحم ؛ تقول [٣] :

إخوتي لا تَبْعَدوا وبلى واللّهِ قد بَعَدُوا

فقولها " إخوتي " ؛ أي يا إخوتي .

ونجد أسلوب الاستفهام مثلا في مقطعة أم عمرو بن عدي ؛ تقول [٤] :

أيُهمْ دلاّك عمرٌو للردى وقديما حيّن المرءَ الأجلْ

١- الأصمعي : الأصمعيات ، ص١٠١ .

٢- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٣ .

٣- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٨ .

٤- الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٤ ، ص٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فـ (أيُّ) في قولها " أيهم " استفهامية تفيد الإنكار ، وكأن موت ابنها باغتها ، فلم تحتمل تصديق الخبر ؛ فعمدت إلى الاستفهام الإنكاري .

ونرى مثل هذا الاستفهام الإنكاري عند أم قيس الضبية ؛ تقول [١] :

مَن للخصوم إذا جدَّ الضَّجاج بهم ... بعد ابنِ سعدٍ ومن للضمّر القُودِ

إلا أن الأولى تستفهم منكرة ورود ابنها على الهلاك ، والأخرى تستفهم منكرة أن يقوم أحد بما كان يقوم به ابنها من قتال للخصوم ، وقيادة للخيل .

ويُلاحظ أنّ أسلوب الحوار في بعض المراثي يستدرج السامع ؛ فيدخله في جوّ الحدَث إدخالا لطيفا ؛ لاعتماده على الحكاية التي فيها قال وقلت ، وسأل وسألت ، وهي ألفاظ قصصية يَطْرَب السمع إليها ، وتشوق النفوس إلى معرفة ما وراءها من أنباء ؛ تقول عمرة بنت دريد [٢] :

قالوا : قتلنا دريدا ، قلت قد صدقوا ... فظلّ دمعي على السِّربال ينحدرُ

وتقول أخت ذي الكلب [٣] :

سألتُ بعمرٍو أخي صحبَهُ ... فأفظعني حين ردّوا السؤالا

فقالوا أُتيحَ له نائماً ... أعزُّ السِّباع عليه أحالا

ويُلاحظ أيضا على مراثيهن أسلوب التمنّي ؛ وهو أسلوب مَن لا طاقةَ له على استعادة ما فَقَدَ ، واسترجاع ما فات ، وهو بهذا الوصف يناسب موضوع الرثاء ؛ تقول ابنة مالك بن بدر في مقطعتها [٤] :

١- المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٥٩ .

٢- ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، مج٢ ، ج٣ ، ص٧٥ .

٣- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٣ .

٤- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٧ ، ص١٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(فليتهما) لـم يشربـا قـطُّ شَربةً (وليتهما) لـم يُرسـلا لرهـان

ويمثِّل أسلوبَ النّهي قولُ فاطمة بنت الأجحم في إخوتها [١] :

إخـوتـي (لا تبـعـدوا) أبـدا وبـلـى واللـه قـد بـعـدوا

ويبدو أنّ الغاية منه هي بيان حرص الشاعرة على فقيدها ؛ حرص الأمّ على ابنهـا ، فتنهاه مبصّرة له بما يجب أن يأتيه وعما ينتهي عنه.

ويكثـر أسلوب الطلب في ثنايا المراثي قصائدِها ومقطعاتها ، وهـو أسـلوب يلائـم الرثاء ؛ لأنـه يؤكد فقْـر الإنسان إلى غيـره ، وعـدم استغنائه بذاته عند نـزول القـضاء الذي يضعُـف الإنسان أمامَه فتبدو حاجته إلى مـن يُسرِّي عنه مصابَه ، ويشاركه أحزانـه ؛ تقول أروى بنت الحُباب [٢] :

(قل) للأرامل واليتامى قـد ثـوى (فلتبك) أعينُهـا لفقْـد حُـبـابِ

وقد تُوَجِّـه الراثية طلبَها إلى جامدٍ غيرِ عاقل ، تشخِّص بذلك شيئاً من الطبيعة تجعله ينسجم مع امتدادِ حزنها ؛ تقول ذئب بنت نشبة [٣] :

عمـادُ سمائـي أصبحتْ قد تهدَّمتْ (فخِرِّي) سمائي لا أرى لك بانيـا

وقد يُخاطب بالأسلوب نفسه الفقيد ؛ تقول أمّ عمرو بن المُكدَّم [٤] :

(فاذهبْ) فلا يَبْعَدنْك الله مِن رجلٍ لاقـى الـذي كـلّ حيٍّ مثلَـه لاقِ

١- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٨ .

٢- البحتري : الحماسة ، ص٢٧٥ .

٣- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٤٩ .

٤- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج٢ ، ص٣٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويأتي أسلوب الدعاء ، منسجماً مع لغة الرثاء ؛ لأنه في الوقت الذي تعجز فيه الشاعرة عن دفع الموت عن فقيدها الغالي ، لا تملك وسيلة إلا أن تدعو للفقيد ؛ الأمر الذي يقرِّبنا من عقيدة الشاعرة ، ويقِفُنا على نوع معبودها ، على أن الدعاء ينقسم إلى أقسام ؛ قسمٍ تدعو في الشاعرة للفقيد ، وقسمٍ تدعو فيه على العدو ، وقسمٍ آخرَ تدعو فيه لنفسها . وقد سبق الحديث عنه في خواتم المراثي في بنية المرثية ، بالفصل الأول ، من الباب الثاني ، فلا داعي للإعادة إلا لما ورد منه في المقطعات ، ومثال ذلك تقول ابنة قيس بن جابر داعيةً على حيِّ الأراقم [١] :

(فلا يهنئن) حيَّ الأراقمِ فقدُهُ فكلُّ امرئٍ رهْنٌ لريبِ المقادرِ

ويبلغ الدعاءُ ذروتَه عندما تدعو الأمُّ على ابنها ؛ لأنه قتَل مَن أحسنَ إليهما ؛ تقول أم ناشرة [٢] :

لقد عيَّل الأيتامَ طعنةُ ناشرهْ أناشرُ (لا زالتْ يمينك آشرهْ)

ومِن صُوَر الدعاء أيضا أنْ تدعوَ الشاعرة لقبر فقيدها بالسُّقيا ؛ تقول عمرة بنت شدّاد [٣] :

أسقي به قبرَ مَن أعني وحُبَّ به قبْراً إليّ ولو لمْ يَفْدِهِ فادِ

وتَقِلُّ المحسِّناتُ البديعية في الرثاء عندهن ، حالهن في ذلك حال معظم الشعراء الجاهليين الذين " يَجْرُون مع طبائعهم فيسجِّلون كلَّ ما تُمليه عليهم شياطينهم ، أو تجود به قرائحهم ، دون مراجعةٍ طويلة ، يجعلون الفكرة رائدهم ، وإصابتها هدفهم ، صارفين

١- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص٢٤١ .

٢- ابن حبيب : أسماء المغتالين ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج٢ ، ص١٤٧ .

٣- المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النظر عن الزخارف اللفظية ، والمعاني الغريبة [١] " ، وتقل كذلك المحسنات في رثائهن نتيجة ارتجال الرثاء ، ومباغتة الحدث ؛ فيأتي عفْوا بدون تزيين ، أو تنميق ، وإنما يفعل ذلك مَن لم يُفاجأ بخبر يحزنه ،وكان في ترَفٍ من وقته وعيشه ، فيمضي إلى اصطياد الألفاظ المتآلفة ، والمعاني المتعانقة ، فيجانس بين لفظين أو يطابق بينهما ؛ إظهارا لقوَّة تمكُّنِه في صَنعته ، وتنويعا في جَرَس ألفاظه ؛ فيطرب لها السامع ، وهذا ما لا تحتاج إليه الراثية ؛ لأنها في موقف باكٍ غير مُطرب ، ولم تكن ألفاظ الرثاء يوما مطربةً لأحد ، بل كانت دائما مُشجية للأفئدة ، بيدَ أنَّ شيئا مِن الجناس أو الطباق قد جاء بغير تكلّف ؛ فمثل جزءا أصيلا فيها .

ومن أمثلة ما جاء على الجناس ؛ تقول ابنة فروة بن مسعود [٢] :

بعين أباغ (قاسمنا) المنايا فكان (قسيمُها) خيرَ (القسيم)

فألفاظها : " قاسمنا " ، " قسيمها " ، " القسيم " ، تشترك في معظم الحروف ، غير أنها تفترق في المعاني . ومثل هذا عند أم السُّليك بن السُّلَكة ؛ تقول [٣] :

طاف يبغي نجوةً من (هلاكٍ) فـ (هَلَكْ)

وتقول أيضا :

أيُّ شيءٍ حسنِ لفتىً لمْ (يَكُ) (لَكْ)

١- محمد عبد العزيز الكفراوي : الشعر العربي بين الجمود والتطور ، د.ط ، دار نهضة مصر ، القاهرة ــ مصر ، د.ت ، ص٤ .

٢- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٦٢ .

٣- المصدر السابق ، ج١، ص٥٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقول زينب بنت مالك [١] :

شريـــك الملـــوك ومن (فضلـــه) (يفضل) في المجـــد (أفضالهـــا)

أما عن الطباق فمن أمثلته ؛ تقول الخرنق بنت بدر [٢] :

والخالطين (نحيتَهم) (بنُضارِهم) وذوي (الغنى) منهم بذي (الفقْرِ)

فالفرق واضح بين النَّحيت والنُّضار ، وبين الغنى والفقر ؛ فأحد اللفظين لا يرادف الآخر ، بل يُخالفه في المعنى ؛ مُخالفة النهار لليل في رثاء أخت عمرو ذي الكلب ؛ تقول [٣] :

فكنـــتَ (النهـــارَ) بـــه شمسَـــهُ وكنـــتَ دُجى (الليلِ) فيـــه هلالا

وتقول :

إذن نبَّـــهـــا لـــيْـــث عِـــرِّيـــسَـــةٍ (مُفيداً) (مُفيتاً) نفوســـاً ومـــالا

فالطباق ظاهر ما بين " مفيدا " و " مفيتا " ظهورا يُبصِّرنا كذلك بالجناس الآنف الذكر ، ولعـلَّ هذا الجمال اللفظيَّ في هذين البيتين هو ممّا حدا بالعسكري أن يقول [٤] : " ومثـــال ذلـــك مـــن الكلام المتلائم الأجزاء ، غير المتنافر الأطراف قول أخت عمرو ذي الكلب " .

ومثال على الطباق أيضا ؛ تقول رائطة بنت شيظم [٥] :

(الفاتـــقـــيـــن)(الراتـــقـــيـــن) السابـــقـــيـــن إلـــى الـــمـــكـــارمْ

فـــ " الفتق " و " الرّتق " ضدّان تصف بهما الراثية أخويها ؛ لأنهما ذوا قدرة على إنجاز كـــلا الأمرين كلّما دعتِ الحاجة إلى أحدهما أو كليهما .

١- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص١٦ .

٢- الخرنق بنت بدر : ديوانها ، تحقيق : يسري عبد الغني ، ص٤٥ .

٣- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٣ .

٤- العسكري : الصناعتين ، ص١٤٢ .

٥- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الصدق في الرثاء

يقول الأصمعيّ [١] : " قلت لأعرابيٍّ : ما بال المراثي أشرف أشعاركم ؟ قال : لأنّا نقولها وقلوبنا مُحترقة " ، هذا لأنها تصدر عن عاطفة صادقة ، يؤجّجها مكانُ الفقيد مِن الراثي ، إذا كان المرثيُّ أبا أو عمّا ، أو ابنا أو أخا ، أو ذا صلة قبليّة بالراثي ، أو ذا يدِ إحسانٍ ومعروفٍ عليه ، كما هو الحال في الرثاء عند شاعرات الجاهلية ؛ فلم يتعدَّ رثاؤهن ــ حسَب علمي ــ هذه الاتجاهات ؛ فوصل إلينا مُفعما بخصوصية الصدق ؛ فمن ذاق مرارة فقْد الأحباب ، واكتوى بألم المصاب ، وعانى الحرمان ممن تقرّ به عينُه ، وتطمئنّ به سريرته ، كان من أصدق الناس تعبيرا عن شجَنه ، وأدقهم وصفا لحاله ؛ يقول أرسطو [٢] : " والحق أنّ أقدر الناس تعبيرا عن الشقاء من كان الشقاء في نفسه " ؛ ولا سبيل حينذاك إلى كتمه أو كظمه ؛ لأنّ حرارته قد يذوب منها الفؤاد ، وزفراتِه تضيق بها الضلوع ، فلا مكان له بينها ، إلا أن يُنفث به إلى خارج النفس ، فهو الوضع الطبيعيّ الصحيّ لعافية الحزين ، أمّا أن يبقى حزنه معتلجا بخلجات النفس في شهيقها وزفيرها ؛ فإن ذلك ممّا يَضُرّ بها ، قيل [٣] : " إنّ امرأة مات ولدها ، فأمسكت نفسها صبرا واحتسابا ؛ فخرج الدَّمُ من ثديها ؛ وذلك لما ورد عليها من شدة الحزن مع الامتناع من البكاء " وليس هذا ببعيد ؛ لأنّ هناك ما يؤكّده من قصَص القرآن العظيم ، فسيدنا يعقوب ــ عليه السلام ــ حزِن على ابنه يوسفَ عندما افتقده

١- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٣ ، ص٢٢٨ .

٢- طاليس، أرسطو : فن الشعر ، د.ط ، ترجمه وشرحه وحققه : عبد الرحمن بدوي ، دار الثقافة ، بيروت ــ لبنان ، د.ت ، ص٤٨ .

٣- العسكري : الصناعتين ، ص١٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حزنا ابيضّتْ منه عيناه ؛ يقول تعالى [١] : (وتولّى عنْهم وقال يا أسفا على يوسفَ وابيضَّتْ عيناهُ من الحزنِ فهو كَظيمٌ) ، ومرجِع هذا إلى صدق العاطفة ، وقوتها التي قد تصل بصاحبها إلى حالٍ يوقّرها الاعترافُ بواقع المصيبة ، أو إلى حال يزيّنها الرفق بالنفس ، وهُما ــ كما أحسب ــ حالتان ممكنتان تتفاعلان مع الحدث بما يوازيه من قوّة نفسيّة " فنادبة تثير الحزن من ربضته ، وتبعث الوجْد من رقدته ، بصوت كترجيع الطير ، تقطع أنفاس المآتم ، وتترك صدْعا في القلوب الجلامد ، ونادبةٌ تخفض من نشيجها ، وتقصد في نحيبها ، وتذهب مذهب الصبر والاستسلام [٢] " .

إذن ،فمكانة المرثي ، ونوع الراثي ، ومعايشة الحدث ، عناصر تخلق الصدق في فنّ الرثاء ، ويمكن أن تُحدّد بؤرُ هذا الصدق بوساطة تعيين نقاطِ الانفعال والتوتّر النفسيّ في بعض المراثي ، والاستدلال عليها بألفاظ خاصّة ، وبجمل انفعالية ــ غالبا ــ تعكس صدق العاطفة مقرونا بالزمان ، الذي يمثل " لحظة سماع النعي صدمة عنيفة لمتلقيه ، وتختلف استجابات المتلقين ،وتأثيراتها حسب الصلة بالفقيد ، أو ما يتركه من الفراغ في نفس الشاعر ، ولكنها لحظة تبعث على اليأس والتشاؤم ، وتفتح باب الحزن والألم الذي يجدّد الأسى كلّما هاجتِ الذكرى [٣] " ، نتبيّن ذلك في مُستهل رثاء الفقيد ؛ لأنه يمثل الواجهة الأولى لمأساة الشاعرة ، وفي ختام رثائها كذلك ، الذي قد يمثّل صعودا بالعاطفة فيسمو صدقها ، أو نزولا فيفتر صدقها ، ونرى كيف تصف أثر موت الفقيد عليها ؟ وكيف تشمت بأعدائه وتحرّض على الأخذ بثأره ؟ .

١- سورة يوسف ، الآية ٨٤ .

٢- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٣ ، ص٢٢٨ .

٣- سناء جميل عطا جبر (١٩٩٩): فن الرثاء في الشعر الأموي ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، ص١٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصل إلى حارثة بنت كلمن نبأ موت أبيها ؛ فتصرخ باسمه عاليا في مستهلّ رثائها ؛ تقول [١] :

كلمنُ هدّمَ ركني هُلكُهُ وسطَ المحلّة

تدخل في جوّ الحدث مباشرة بغير مقدّمات ، فهناك فقيد تترتب على فقده خسارة تُعبِّر عنها الشاعرة مبالغة بالفعل " هَدّمَ " وليس بهَدَمَ ؛ لأنّ الفقيد أبٌ لها ، وسيدٌ لقومها ، وبه عزتها ومنعتها . وفي ختام رثائها يتعاظم عليها المصاب ؛ فتقول :

كوّنتْ ناراً وأضحتْ دارُ قومي مُضمحلّة.

ممّا يدلّ على تأجج عاطفتها بداية من قولها : " هدّم ركني " وهو وصف خاصّ لحالتها إلى أن تنتهي إلى قولها : " دار قومي مضمحلة " وهو وصف عامّ يعبّر عن شمولية حزنها الذي عمّ دار القوم جميعا .

أما ابنة قيس بن جابر فتعبّر عن صدق عاطفتها تجاه أبيها بقولها [٢] :

تطاول ليلي للهموم الحواضر وشيّب رأسي يومُ قيسِ بن جابرِ

أيضا تذكر اسم أبيها " قيس بن جابر " ، وتنظمه بجانب كلماتٍ حزينة : " تطاول " على وزن (تفاعل) دليل على مزيد من الطول . و " ليلي " و " للهموم الحواضر " و " شيب رأسي " ، وهي كلمات عاطفةٍ صادقة تعبّر بعفْوية تامّة عن الحدث ، بغير تنميقٍ للصنعة ، ثم تختم بالدعاء على قتلة أبيها :

فلا يهنئن حيٌّ الأراقم فقدُهُ فكل امرئ رهنٌ لريبِ المقادرِ

١- المسعودي : مروج الذهب ، ج٢ ، ص١٥٠ .

٢- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص٢٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فخاتمة رثائها ليست بأقلّ انفعالا من مستهلّها ؛ فقد استخدمتْ أسلوبَ الدعاء تعبيرا عن عاطفةٍ ناقمةٍ تتوقع لهم عدمَ الهناء في قادم الأيام طالما هناك قوّة تجتاح الأعمار وإن طالت ، يُسمى " ريب المقادر " .

ويصل دختنوسَ بنت لقيط نبأ مقتل أبيها ؛ فتنفجر غضبا على قاتليه ؛ تقول [١] :

ألا يا لها الويلاتُ ويلاتُ مَن بكى لضرْب بني عبْس لقيطاً وقد قضى

تغضب على بني عبس ؛ فتقذف الويلاتِ المترادفةَ عليهم متوعّدةً إياهم :

فإنْ تُعقبِ الأيامُ مِن عامرٍ يكنْ عليهمْ حريقاً لا يُرام إذا سَما

فيتّضِح الصدق في عاطفتها بدليل : " الويلات " ، " الويلات " ، " عليهم حريقا " ، " لا يُرام " وهي ألفاظ تعبّر عن العاطفة المتوتّرة الشديدة الانزعاج ، ولا يفوتها في ختام قصيدتها من الشماتة بهم :

لقد صبرتْ للموتِ كعْبٌ وحافظتْ كِلابٌ (وما أنتم هناك لمن رأى) ؛

فالكلمات في آخر عجز البيت الأخير تعييرٌ فاضح ، يدلُّ على جُبنهم وفرارهم عن مشاركة الفرسان ساحاتِ الوغى .

وتترحّم أمّ عمرو بن عديّ في مُستهلّ أبياتها على ابنها ؛ تقول [٢] :

ويحَ عمرِو بنِ عديٍّ مِنْ رجلْ حانَ يوماً بعدما قِيلَ كَمَلْ

كان لا يعقلُ حتّى ما إذا جاء يومٌ يأكلُ الناسَ عَقَلْ

فقولها " ويح " دعاء له بالرّحمة ، ثم نداؤها بإعلان اسمه دليلٌ على استعذاب التلفُّظ باسم فقيدها ، ويَظهر انفعالها في استخدام الفعل المضارع " يأكل " مشخّصةً له فاعلا " يوم "

١- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج٢ ، ص٢٥٠ .

٢- الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٤ ، ص٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمفعول به هو " الناس " ، تُريد بهم جميعا (ابنها) فهو جزءٌ عن كـلٍّ ؛ واحدٌ عن أمّـة ، ثم إن الجملة الفعلية " يأكل الناس " التي استخدمتها تعبّر عـن اسـتمرارية فقـدها الـذي لا يعوّضها عنه شيء ، ولا يقوم مقامَه ربْحٌ يُوازيه ؛ فهي في ثكْل مستمرٌ دائم .

ويبلغ بها الأسى مبلغا يصرفها عن حقيقة أنّ كلّ من مات فات ؛ فتظلّ تنتظر إيابَـه ، معلِّلةً نفسَها بالأمل :

قـد تـنـظّـرنـا لـغـادٍ أوْبـةً كـان لو أغنى عـن المرءِ الأمـلْ

فلا يخفـى أنها استخدمت " قد " لتحقيقِ انتظارِ رجوع ابنها الّذي دلّتْ عليـه بالفعـل المضارع المضعّـف للمبالغـة " تنظّرنا " إشـارة إلى كثرة الانتظـار ؛ ممّـا يَـسِمُ رثاءَهـا بالصدق من حيثُ كـونِ المرثيِّ ابنـاً لها وهي أمٌّ له ، ومن حيث نعته بأحسن ما تُريـد الأم لابنها في قولها : " كَمَل " ، وتعليلها النفس بانتظار إيابه .

وفي مطلـع رثـاء أخـت ذي الكلـب أخاها تناديـه ، ولكنها لا تعلـن اسـمه ، واكتفتْ بالاسم الموصـول " مَـن " بمعنـى الّذي ؛ فهو في نظرها أجـلّ مـن أن يُـسمّـى لشهرته بالشجاعة والفروسية ؛ تقول [١] :

يـا مـَن بمقتلـه زُهـى الدّهـرُ قـد كـان فيـك تضـاءلَ الـبـذْرُ

ثم تُقسِم بعد أبيات من هذا البيت :

واللـهِ لـوْ بـكَ لـمْ أدعْ أحـداً إلا قتلـتُ لـفـاتـنـي الـوِتْـرُ

وتختتم بوصف قبره بالقدسيّة ، وحسَدِ ظهر الأرضِ لباطنها يومَ نزل فيها :

حتـى حللـتَ بأرضهـا فتقدّسـتْ فالـيـومَ يحسُـدُ بطنَهـا الظهـرُ

١- المبرد : الفاضل ، ص٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نجد صدقها واضحا من ندائها أخاها ميتا ، لا يُحير جوابا ، ولكنها تُخيِيه ؛ لتوهمَ نفسها بوجوده ، وهذا موضعُ توتُّرٍ يُنافي الواقع ، ثم أنها تُقسِم وهو موضعٌ ثانٍ للتوتّر يُخيّل لسامعها أنها تقف مُغضبة ، محمرّة العينين ، عاليا صوتها بالقسم ، رافعة أصبعها متهدّدةً عدوها بالثأر لأخيها ، ثم تختتم بانفعال آخر هو إضفاء القدسيّة على أخيها ، وهذا قمة المبالغة في تأبين إنسان لا يعدم من الهِنات ، وإن كان نبيّا .

ويمكن أنْ نلمس صدق الرثاء في بيان تأثير موت الفقيد على الشاعرة ؛ كيف تصف الراثية ذلك الوضع الذي ستؤول إليه بعد فقيدها ؟ مثال ذلك نجده عند رائطة بنت شيظم ، بعد مقتل أخويها ؛ تقول [١] :

فبقيتُ كالطيرِ المقصّصِ ريشُهُ واهي القوادمْ

لا أستطيعُ ، ولا أطيقُ أردُّ عنّي كفَّ ظالمْ

مع كلِّ رنّةِ مأتمٍ لي مأتمٌ وعليَّ ماتمْ

فاليومَ أخضعُ للذليلِ وللمحاربِ والمسالمْ

تقول " فبقيت " ؛ أي عُقيب مقتلهما مباشرة ، كيف بقيتْ ؟ على أربعةِ أحوالٍ مجتمعة في حالٍ واحدٍ هي : ضعيفةٌ كطير بلا ريش ، مهضومةالحقّ بغير نصير ، حزينةٌ ذات مأتم ، خاضعةٌ مُجاملةٌ ؛ لتتقيَ الأشرار بعدما عَدِمتِ المحامي عنها . وهي بهذا تكشف لنا صدق رثائها إذ تُبيّن لنا حقيقةَ واقعها ، الذي يفرضه عليها القضاء .

١- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نَضرِب مثالا على معاناة الشاعرة بعد موت فقيدها بسعدى بنت الشمردل التي يروّعها موت أخيها ، وتبيت ليلها ساهرة الطرف ؛ لا يغفو لها جفن ، ولا تهجع لها نفس ، وحيدةً بعد أُنس ، باكيةً بعد فرح ، بعين طليحة أعياها الحزن وكدّها السهر ؛ تقول [١] :

أمِـنَ الـحـوادثِ والمنـونِ أروّعُ ... وأبيـتُ ليلـي كلَّـهُ لا أهـجـعُ

وأبيـتُ مُخليـةً أبكّـي أسـعـدًا ... ولمثلِـهِ تبكـي العيـونُ وتهمـعُ

وتبيـّنُ العيـنُ الطَّليحـةُ أنّهـا ... تبكي مِـنَ الجزَعِ الدَّخيـلِ وتدمعُ

ونتبين أنموذجا آخر لأثر موت الفقيد على الشاعرة ؛ هو أنمـوذج فقـدان الـشاعرة زوجَها ؛ تقول جليلة بنت مرّة [٢] :

يـا قتيـلاً قـوّضـتْ صرعتُـهُ ... سقْفَ بيتـيّ جميعـاً مِـنْ عَـلِ

قوّضـتْ بيتـي الّذي استحدثتُـهُ ... وانثـنـتْ في هـدْمِ بيتـي الأوّلِ

ورمـاتـي قتـلُـهُ مِـنْ كَـثَـب ... رميـةَ المُصمى بـه المستأصَـلِ

وتقول أيضا :

خصّتـي قـتـلُ كُليـبٍ بلـظـى ... مِـن ورائـي ولظـى مُستقبِلـي

تعبّر بكلّ صدق عن أثر مقتله ؛ فبسببه رأى الدهر فرصته لنقْض وهدْم سقْف بيتيها ؛ بيتِ أخيها القاتل ، وبيتِ زوجها المقتول ، ورماها رميةً تُصيبها ، بل تقتلعها من جـذورها ؛ أي من حالها الناعمة التي كانت عليها إلى حالٍ تلازمها بنارِ الثكل ، ولا مَحيصَ لها عنها من وراء ولا من أمام .

١- الأصمعي : الأصمعيات ، ص١٠١ .

٢- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنموذج أخير نتمثّل به الصدق في الرثاء القبَلي ، وأثر مقتل الجماعة على الشاعرة ؛ تقول ذئب بنت نُشْبة [١] :

عمادُ سمائـــي أصبحتْ قدْ تهدّمتْ فخِـرّي سمائـــي لا أرى لك بانيا

تصفهم بالعماد ؛ لأنهم يمثلون القوّة الّتي ترفع القبيلة ، وهي سماءٌ في نظرها تحيـا الشاعرة تحت سقفها ،وفي كنَفها ، فإذا مات قومها تهاوتِ الأعمدة ، وإذا ضعفت القبيلة خرّتِ السماء ؛ فوقعت الخسارة والضَّعَة في مَن بقيَ من أفراد القبيلة ؛ وبهذا يتحقّق صـدقها فـي رثائها إيّاهم ، إذ تُمسي بلا حمايةٍ تقيها هوانَ الأسْر ، وخدْشَ الحياء .

وموضعٌ آخرُ يُمكن أنْ نكتشف به صدق الرثاء ؛ هو الموضـع الـذي تَـشْمَتُ فيـه الشاعرة بقاتلي فقيدها ، أو مُسلموه في حَوْمة الوَغى للأعداء ، وعدْم نُصرته عندما يجِب ذلك عليهم ؛ تقول ابنة أبي الجدعاء ترثي أباها ، وتذمّ قومه الّذين خذلوه في المعركة [٢] :

وغابتْ بنو ميثاءَ عنه ولـم يكـنْ نعيمُ بن شيطانٍ هنـاك وجـرولُ

ولكنْ دعـا أشبـاهَ نبْـتٍ كأنّهـمْ قرودٌ على خيـلٍ تَخُـبُّ وتركُـلُ

نرى كيف تشبّههم بالقرود على خيل ذات حِرانٍ متمرّدة ، لا سيطرةَ لهم عليها ؛ لعدم أهليّتهم للفروسيّة ونبلِها ، التي تقتضي منهم لو كانوا فرسانا بِجِدٍّ نجْـدةَ الملهـوف ، وفـكّ الأسار .

وتدعو تماضر بنت الشريد على قاتل ابنها [٣] :

حُذيفـةُ لاسُقيـتَ مـن الغوادي ولا روّتـْك هـاطـلـةٌ نـداهـا

١- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٤٩ .

٢- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١، ص٩٦ .

٣- شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص١٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كمـــا أفجعتنـــي بفـــتـــىً كـــريـــمٍ إذا وزنـــت بنـــو عبْـــس وفاهـــا

تدعو عليه بعدم السُّقيا ؛ أي أن يموتَ عطَشاً ، وربطتْ دعاءها عليه بالسبب " كمـــا أفجعتنـــي بفتى كريـــم " ، بفتاها الشّابّ الّذي إذا وزن كان مضنة الوفاء بالرجحان والتفـــوّق على سواه .

وممّا يدلّ على الصدق في الرثاء لدى الشاعرات ذلك التعبير المتواتر فـــي قـــصائدهن ومقطوعاتهن عن العين والدمع ، والبكاء والنحيب ، والحزن والجزع ، وما يُشبه هـــذا مـــن الألفاظ ، وقد وقف عليه البحث في معرِض حديثه عن الخصائص اللفظية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى هذا فقد كانت الصورة الشعريّة لدى الشاعرات ترتكز على موضوع الحدَث ، وهو الموت ، والشعور تجاهَه برسم صورتِه ، وصورةِ الفقيد ، وصورةِ الشاعرة قبلَ الحدَث وبعدَه .

ولم يكنِ الموت يوما على ما أُوتي من رهبة جسما يُمكِن لإنسانٍ أن ينعته نعتا يصيب منه شكلا ، أو لونا ، أو رائحة ، وإنما كان شيئا مجرّدا ، يعتقد الإنسان بوجوده ، ويرى تأثيره فيما يخلّفه من قدرة تُحيل الحركة إلى سكون ، والحياة إلى بِلى ؛ لذلك نرى اختلاف الشاعرات في تصويره بأشكال وهميّةٍ أو حسيّة ؛ تقول حارثة بنت كلمن مصورة الموت نارا [١] :

سيّدُ القومِ أتاهُ الحَتْفُ (ناراً) تحتَ ظُلَّة

فالموت كما تراه مادّةً ملتهبةً ذاتَ حرارةٍ متوهّجةٍ وبألوانٍ مختلفة : فيها الأحمر والأصفر والأزرق ، وهي مادّةٌ حِسيّة لها قدرة على الحرْق ، لا تأتي على شيءٍ إلا أكلته .

وبمثل هذه الصورة تعبّر العَوراء بنت سُبيْع [٢] :

أبكي لعبدِ اللّهِ إذْ حُشَّتْ قُبيلَ الصُّبْحِ (نارُهْ)

أي أنه قد مات قبيل الصبح ؛ فصوّرتْ موته بإشعال النار كنايةً عمّا يُوقده مصابها بأخيها من نار الثكْل في نفسها .

وتصوّر أمُّ السُّليك الموتَ رصَداً ؛ أي هو شيء يترقّب الإنسان على الطّريق ، فما إنْ يصل إليه حتى ينقضّ عليه ، وهذا الرَّصَد لا تُقدّم له الشاعرة نعتا يُقرّبه إلى الفهم ، الأمرُ

١- المسعودي : مروج الذهب ، ج٢ ، ص١٤٩ .

٢- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الّذي يجعلــه في نظرنا مَخوفا أكثرَ ؛ لأنه يُباغت الإنسان من حيث يجهل له شيئا يحــذر بــه منه ؛ تقول [١] :

والــمــنــايــا (رَصَــدٌ) لِـلْـفَـتـى حـيـثُ سَـلَـكْ

والموت عند أُميمةَ بنتِ عبدِ شمسٍ هو الدَّهر متجسّدا في صورة حيوانٍ مُفترسٍ لــه نابٌ ومِخْلَب ؛ تقول [٢] :

أَحــالَ عـلـيـهــمُ (دهــرٌ حـديـدُ الـنّـاب والـمِـخْـلَـبْ)

وتتكرّر نفْسُ الصورة عند جليلة بنت مُرَّة [٣] :

يــا قتيلاً قــوَّضَ (الــدَّهــرُ) بهِ سقْــفَ بَيْتَــيَّ جميعــاً مِــنْ عَــلِ

إلاّ أنّه عندَها دهرٌ يهدِم البيوت ، كنايةً عن انهدام الحياة الزوجيّة بالموت ، باعتبــار " أنّ الزمــن قــوة تدميريّة لا يصمــد أمامَها شــيءٌ مهما يكن حصينا ومنيعــا [٤] " ، تقــول صَفيّة الباهليّة [٥] :

أَخْنَى على واحدي رَيْبُ الزَّمانِ وما يُبْقي الزَّمانُ على شيءٍ ولا يــذَرُ

وهو في نظَر ابنةِ فَرْوَةَ بنِ مسعودٍ شريكٌ أناتيّ يستأثر بالأرواح لِقِسْمَتِه ؛ تقول [٦] :

بعــيــنِ أُبــاغَ قاسَمنــا المنايــا فكــانَ قسيمُهــا خــيــرَ القَسيــمِ

١- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٧٩ .
٢- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج٢ ، ص٥٢٥ .
٣- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص١٢٨ .
٤- يوسف اليوسف : مقالات في الشعر الجاهلي ، ص٣٦٠ .
٥- ابن قتيبة : عيون الأخبار ، مج٢ ، ج٣ ، ص٧٥ .
٦- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتُصوِّره أمُّ عمرِو بنت مُكَدَّمٍ أداةً حربيّـةً نافذةً تنطلق بقوّة حتى تـصيب ، ولا دواءَ ولا رُقْيَة لعلاجه ؛ تقول [١] :

لكـنْ سهـامُ المنايا مَنْ نُصِبْنَ لهُ لـمْ يَنْجِـهِ طِـبٌ ذي طِـبٍّ ولا راقِ

وهو عند عَمْرة بنت دُريْدٍ قوّةٌ قاهرة ، لا تُقاوم ، ولا تُدفع ؛ تقول [٢] :

لـولا الّـذي قهَـرَ الأقـوامَ كلَّهـمُ رأتْ سُليـمٌ وكعْـبٌ كيـف تأتمِـرُ

تتعدّد صُور الفقيد في هذه الدّراسة ؛ بتعدّد ذي قرابتهم من الشّاعرة ؛ فالفقيـد أبٌ أو ابنٌ أو أخٌ أو زوجٌ أو آخرُ نَهَدَتْ إليه أرْيحيّة شاعرة بالرّثاء لصنيعٍ له معها أو مع أهلها .

صورة الفقيد (الأب) :

تُحاول الشاعرة وهي ترسم صورة والدها أنْ تُلبسه صفاتٍ جليلةً من السيادة والإمارة على قومه ؛ تقول حارثة بنت كَلْمَن [٣] :

(سـيّـدُ الـقـومِ) أتـاهُ الـحَـتْـفُ نـاراً تـخـتَ ظُـلَّـةْ

وتقول خالدة بنت هاشم [٤] :

عيْـنُ واستعبِـري وسَحّي وجَمّي لأبـيـكِ المُـسَـوَّدِ المعـلـومِ

وتقول دَخْتَنُوس بنت لَقِيط [٥] :

بَـكَـرَ الـنَّـعِـيُّ بِـخـيـرِ خِـنْـدِفَ كـهـلِـهـا وشـبـابِـهـا

١- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج٢ ، ص٣٠٧ .

٢- ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، مج٢ ، ج٣ ، ص٧٥ .

٣- المسعودي : مروج الذهب ، ج٢ ، ص١٤٩ .

٤- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٣ .

٥- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج٢ ، ص٢٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى أن تقول :

و(رئيسِها) عندَ المملوكِ وزَيْنِ يومِ خِطابِها

ولم تكن صورة الأب الرئيس تقتصر على كرسيِّ الحُكم ؛ لإصدار الأوامر والنواهي ، بل نرى صورته تتمثّل أيضا في مَيدان المعركة ؛ إذ يتقدّم صفوفَ قومِه فارسا محاميا عن الأحساب ؛ تقول أَرْوى بنت الحُباب [١] :

أَوْدَى ابنُ كلِّ مُخاطِرٍ بِتِلادِهِ وبنفسِهِ بُقيا على الأَحْسابِ

وتقول ابنة أبي الْجَدْعاء [٢] :

لقدْ فَجَعَتْ شيبانُ قومي بفارسٍ مُحامٍ على عوراتِهِمْ ليسَ يَنْكُلُ

وتقول ابنة قيس بن جابر [٣] :

بأنَّ أبي قدْ كانَ فارسَ قومِهِ بهِ تتَّقي حدَّ الرِّماحِ الشَّواجِرِ

وتصوّر الشاعرة أباها كذلك كريما ذا حَدَبٍ على الأيتام والأرامل ، وهي صورة تلمسها الشاعرة في أبيها عن مُعايشة له في البيت بما تلقاه وأفرادَ أسرتها من حِرْصه على قُوتِهم وتوفير حاجاتهم ؛ تقول ابنة أبي الجدعاء [٤] :

لِيبكِ أبا الجدعاءِ ضيْفٌ مُعَيَّلٌ وأرملةٌ تغشى النَّديَّ فترْمُلُ

وتتّخِذ أروى بنت الحُباب هذه الصّفة في الوالد سببا يُبكى عليه به ؛ تقول [٥] :

قُلْ للأرامِلِ واليتامى قدْ ثَوَى فلتبْكِ أعينُها لِفقْدِ حُبابِ

١- البحتري : الحماسة ، ص٢٧٥ .

٢- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص٩٦ .

٣- المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٤١ .

٤- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٩٦ .

٥- البحتري : الحماسة ، ص٢٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبدو صورة الأب عند بنت مُلاعب الأسنَّة غيثاً ينزل على المُجْدِبين الفقراءِ الجائعين من الجَدْب والقَحْط ؛ تقول [١] :

كـــانَ غِيـــاثَ المُرْمِـــلِ المُلتـــاحِ وعِصْمـــةً في الزَّمَـــنِ الـــكَـــلاحِ

والصورة نفسها تتكرّر عند ابنةِ وَثيمةَ في رثاء أبيها ؛ تقول مُصوِّرةً الجَدْبَ [٢] :

واخْـــمَـــرَّ آفـــاقُ الـــسَّـــمـــاءِ ولـــمْ تـــقـــعْ فـــي الأرضِ دِيـــمَـــةْ

ثم تنتهي إلى قولها :

أَلـــفَـــيْـــتَـــهُ مَـــأْوى الأرامِـــلِ والـــمُـــدَفَّـــعَـــةِ الْـــيَـــتـــيـــمَـــةْ

ونرى صورة الأب عند دختنوس كوكباً دُرِّيّاً بعدما أفاضتْ عليه من صـــفات الرئاســـة والفروسيّة والخِطابة ، وطهارة النَّسَب ؛ تقول [٣] :

كـــالـــكـــوكـــبِ الـــدُرِّيِّ فـــي سِـــيـــمـــاءَ لا يَـــخْـــفَـــى بِـــهـــا

وهي صورة تُشبِّه بها أباها بالكوكب الدرّي رَفعةً وأَلَقاً ، وشُهرةً ، وهِدايةً .

صورة الفقيد (الابن) :

تنزع الشاعرة في رثاء ابنها إلى تصويره بـــ " الكمال " ، وهو مطلب نفسيّ لا يَبـــرَح نفوسَ الأمّهات ؛ إذ إنّهن يأمُلْن أنْ يَرَيْن أولادهن على أكمل صورة ، وأجمل منظر ؛ لذا نرى تعبير الشاعرة الجاهلية يُطابق هذا المَنزع لدى الأمّهات ؛ تقول أمّ عمرِو بن عديّ [٤] :

وَيْحَ عمـــرِو بنِ عَدِيٍّ مِـــنْ رَجُـــلْ حانَ يومـــاً بعدَما قيلَ : (كَمَـــلْ)

١- ابن الشجري : الحماسة الشجرية ، ج١ ، ص٣٢٩ .

٢- الجاحظ : البيان والتبيين ، ج١ ، ص١٨٣ .

٣- الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٤ ، ص٤٤ .

٤- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج٢ ، ص٢٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقول تماضر بنت الشّريد [١] :

على ولدٍ (وزَيـّـنِ النّاسِ طُـرّاً) إذا مـــا النّـــارُ لـــمْ تَرَ مَنْ صَلاها

وتقول أمُّ بِسنطام [٢] :

لِيبكِ ابنَ ذي الجدّينِ بكرُ بنُ وائـــلٍ فقـــدْ بانَ منها (زَيْنُهـــا وجمالُها)

علـــى أنّ صـــورة الكمـــال التي تنـــزع إليهـــا الأمُّ الشاعرةُ لهـــا نـــــورٌ وســـناءٌ ، يبـــدو نورُها عند أمِّ بِسنطام أيضا [٣] :

إذا مـــا غـــدا فيهمْ غَدَوْا و كأنّهـــمْ نـــجـــومُ سمـــاءٍ بينَهـــنَّ هلالُهـــا

تُشبِّه ابنَها بالهلالِ الّذي يَرْتَقِبُهُ النّاس في مُستهلِّ كلِّ شهر ، كنايةً عن وقوفـــه فـــي مُقَدَّمَة قومِه للإتمام به ، وهم نجوم في شهرتهم ببطولاتهم ، وسطَ سماء ، أي عزّة ورِفعة ، والوقت الّذي يظهر فيه الهلال والنجوم معًا هو الليل ؛ وهو معروف لدينا ضِمْناً ؛ لـــذلك لـــم تذكُرْ الشاعرة لفظَه بسبب ذكرِها ما يدلُّ عليه ، وكذلك يتبادر إلينا أنَّ معنى الليل عندئذٍ هـــو الشِّدَّة والبلاء .

وتبدو لنا صورة الكمال ذات السّناء عند عَمْرَة الخَثْعَميّة في أخويها [٤] :

شهابانِ منّـــا أُوقِـــدا ثُـــمَّ أُخْمِـــدا وكان سَنـــاً للمُدلِجيـــنَ سَناهمـــا

فَنَعُدُّ لها أربعةَ ألفاظٍ تتضمّن معنى السّناء : شهابان ، وأُوقدا ، وسنا ، وسناهما ، وقد وَرَدَت جميعـــا في بيْت واحـــد ، و الألفاظ تُنبئ عن نورانيّة الصـــورة المتوهّجـــة الّتي مـــا لَبِثَتْ أنْ خَمَدَتْ كما يدلُّنا على ذلك لفظُها " ثم أُخْمِدا " ، ثـــم تنتقل إلى صـــورة أخرى لهمـــا

١- شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص١٣٩ .

٢- ابن الأثير : الكامل ، ج١ ، ص٦١٦ .

٣- المصدر السابق ، ج١ ، ص٦١٦ .

٤- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ص١٠٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكونان فيها على هيئةِ أسطوانةٍ أو ساريةٍ ترفع سقف العرشين ، ولعلّهـا أرادتْ بالعرشـين سيادَتَهما على قبيلتهما ؛ تقول :

ولـنْ يلبـثَ العرشانِ يُستَلُّ منهما خِيـارُ الأواسي أنْ يَميـلَ غَماهُما

صورة الفقيد (الأخ) :

يكون الأخُ ــ غالباً ــ أكثرَ مُعايشةً لأخيه ؛ لتقارب الأعمار ، أو اتفاقهما إنْ كانـوا توآم ، أو أبناءَ ضرائر ؛ مِنْ أجلِ هذا نجد الأخ إذا افتقَدَ أخاه يذكر أيامَ صِباه معه ، ومرحلـةَ طفولته الّتي يكون فيها الصغيُر كالغصنِ نماءً ونضارة ؛ تقول صفيّة الباهليّة [١] :

كنّا كغصنينِ في جُرثومـةٍ سمَـوَا حينًـا بأحسـنَ ما تسمُو لهُ الشَّجَرُ

حتّى إذا قِيلَ قـدْ طالـتْ فروعُهما وطـابَ قِنواهُما واستُنْظِـرَ الثَّمَـرُ

أخنَى علـى واحدي ريْبُ الزّمانِ ولا يُبقـي الزّمانُ على شيءٍ ولا يَـذَرُ

تُمثِّل الصورةُ الأخَ وأختَـه معاً في مرحلة عُمْرية واحـدة ، تُعبّـر عنها الأخـت بـ " غصنين " نابتين من أصلٍ واحد ؛ أي من أسرةٍ واحدة من الأب والأم ، ويستمرّ نموُّهما على أحسنِ حال ، وأرغدِ عيش ، حتّى إذا أصبحا في مرحلة الشباب ، وقد طالت قامتاهمـا ، ورُجِيَ منهما ما يُرجى من الشباب عطاءً وبذلاً ، مـالَ الزّمانُ بقوّةٍ مدمّرة علـى أحدِهمـا فأهلكه ! .

ثم تطلُع علينا صورةٌ ثانيةٌ للأخِ فارساً محاميًا عن الحِمَى ، مدافعا عـن الأعـراض ، دفاعَ الأسد عن عَرينه ؛ تقول رائطة بنت شَيْظَم [٢] :

لـهْـفـي عـلـى الأخـويـنِ كـ (الأسديـنِ) مسعـودٍ وحـاتـمْ

١- ابن قتيبة : عيون الأخبار ، مج٢ ، ج٣ ، ص٧٥ .

٢- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصورةُ نفسُها لدى أخت ذي الكلب [١] :

فأقسمتُ يا عمروُ لوْ نبّهاك ... إذاً نبّها منكَ أمراً عُضالا

إذاً نبّها (لَيْثَ) عِرِّيسَةٍ ... مُفيداً مُفيتاً نفوساً ومالا؛

ولأنّ الفارس أحوج ما يَحتاج إلى يديه اللّتين يبطش بهما ، ويقود بهما زمام فرسه ، ويملك بهما خصمه ، تُصوِّر رائطة بنت شيظم أخويها تارةً أخرى باليدين ، تقول [٢] :

كاتا (يديّ) فشلّتا ... بالسّاعدينِ وبالمعاصمْ

ولا يُمكن أنْ تفسّر (اليدان) هنا بيدي الكرم والعطاء ؛ بدليل قول الشاعرة عقب هذا :

لا أستطيعُ ، ولا أطيقُ أردُّ عنّي كَفَّ ظالمْ

فالظالم لا يُردّ إلاّ بقوّة اليد العادلة ؛ لأنّ يدَ الكرم لا تَرُدّ الظالم اللئيم .

ولكونِ الأخ مُحامياً عن الأعراض ، تُلصق به الأختُ صفاتٍ أُخر ، منها العِفّة والكرم لتبدوَ صورتُه أكثرَ جذْباً وجمالاً ؛ تقول العَوْراء بنت سُبَيْع [٣] :

طَيّانَ طاوي الْكَشْحِ لا ... يُرْخَى لِمُظْلِمَةٍ إزارُهْ

يَعْصي البخيلَ إذا أرا ... دَ المجْدَ مَخْلوعاً عِذارُهْ

فقد استعارتِ الإزار ؛ للدّلالة على عِفّتِه ، وأرادت بـ " يَعصي البخيل " مخالفتَه في السَّجيّة ، وتتّسع هذه الصورةُ عند حَمْدَة بنت ضِرار ، لتجعلَ صورة أخيها صورةَ رجلٍ زِمّيتٍ مَهيبٍ لا يجرؤ أحدٌ على الكلامِ المَعيبِ في مجلسِه ؛ تقول [٤] :

١- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٥٨٣ .

٢- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٨ .

٣- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١٠٥ .

٤- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا تقــرَبُ الكَلِــمُ العُــورانُ مجلسَهُ ولا يــذوقُ طعاماً وهــو مستــورُ

وناهيك بصورة " الكَلِمِ العُوران " من صورةٍ مُوحِيَةٍ بالجمــال ؛ إذ شخّــصتْ الكــلامَ المَعيبَ بالرَّجل الأعور ،الشّنيع المنظر، الّذي لا يَهتدي سبيلاً ، وبينما يكون الأخ هكــذا فــي موقف الكلام الرَّصين نراه لا يتوعّر من الأكل مع سواه ، تواضعًا وكرماً ، وكأنّ الشاعرة تريد بذلك أنْ تجعل أخاها كما قالت رَيْطة بنت عاصية [١] :

حُلْوٌ ومُرٌّ جميــعُ الأمــرِ مُجتمــعٌ مَــأوى أرامِلَ لمْ تُعقصْ عَقاريهــا

فهو حلوٌ عند الفضائل ، مُرّ على النقائص ، بل هو كما تصوّره عَمْرة بنت شدّاد [٢] :

جمّاعُ كلّ خِصالِ الخيرِ قــدْ عَلِمــوا زَيْــنُ القريــنِ وخَطْمُ الظالم العادي

وتظلّ صورة الأخ في عينِ الأختِ الشاعرةِ تستكمل أجملَ العناصر حتى تصلَ بها إلى البهاءِ الّذي يتمثّل في سُطوع الشمس ، وتَمام البدر ، ووجه الهلال ؛ تقول أخت عمــرو ذي الكلب [٣] :

فكنــتَ النهــارَ بــه شــمــسَــهُ وكنــتَ دُجــى اللّيــلِ فيــه هلالا

فقيمة صورتِه بالنَّهار ، كقيمتِها باللَّيل ؛ فهو الشمسُ نهاراً ، إشراقا وبهجة ؛ لليقظة ، وهو الهلال في الليل ، نورا للسامرين ، وهداية للمسافرين .

وصورة الأخ عندَها أيضا قبل أنْ ترفعه بها إلى صفحة السماء تمرّ بــصورة قبْليّــة مُمَهِّدة للصّورة السّماويّة الكُليّة الجامعة ؛ تقول [٤] :

كــنــتَ المُجيــرَ علــيــه تقهــرُهُ فــإذا ســطــوتَ ســطــا القهْــرُ

١- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٦٤ .

٢- ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج٢ ، ص٢٢٨ .

٣- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٣ .

٤- المبرد : الفاضل ، ص٥٩ ــ ٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا سكتَّ فإنّها عِدّة وإذا نطقْتَ تدفَّقَ البحْرُ

وإذا نظرْتَ إلى أخي عدَمٍ أثرى وزالَ بلحظِكَ الفقْرُ

وإذا رقدتَ فأنتَ مُنتبِهٌ وإذا بدوْتَ فوجهُكَ البدْرُ

فهو القهر ، والبحر ، والغنى ؛ صُورٌ ستجعلها الشاعرة تلتقي بـــ (البدر) في السماء الذي تختتم به أبياتَها دَلالةً على شُموليّة الصورة العظمى لأخيها .

صورة الفقيد (الزوج) :

يُلاحظ للزوج صورتان إحداهما في إطار الأسرة ، والأخرى في إطار مجتمع الفقيد وبيئته ؛ فأمّا الأولىترسمها جليلة بنت مرّة في رثاء زوجها كليب ؛ إذ تقول [١] :

يا قتيلاً قوّضتْ صرعتُهُ سقْفَ بيتيَّ جميعاً مِنْ عَلِ

قوّضَتْ بيتي الّذي استحدثتُهُ وانثَنَتْ في هَدْمِ بيتي الأوّلِ

تبدو صورةُ زوجها مُمَثَّلةً في البيت الذي استحدثَتْه ؛ فزوجُها نفسُه هو البيت بما يَحويه من سكَن ومودَّة ورحمة ، وهو أحد أهمّ أسبابِ النَّسْل ، وبموتِه ينهدم البيت .

ويتجلّى الزّوج جَبَلاً كما تُصوّره فاطمة بنت الأجْحَم ، تحتمي بحماه ، وتلوذ بظلّه آمنةً ، مُعتصمةً برفعته من الضَّيْم حِينا ، وحِينا يكون لها في دفءِ مشاعره وحدَبه عليها جناحا ناعمَ الخوافي يَقيها البرد ، ويَدفع عنها العينَ والرّيح ، حبّا فيها ، وحِرْصا على سلامتها .

وأمّا الصّورة الأخرى للزوج في إطار المجتمع ؛ فتوسّعها له الخِرْنق بنت بدر حيث يكون في ميدان المعركة الفارسَ القائد الخائض لغمار الحرب التي تنجلي بموت القائد وابنه

١- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص ١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجماعةٍ من قومهما ، فتبدو صورتهم مأساويّة ؛ أوصالُهم فيها مُقطّعة ، وجماجمهم مفلوقة ، ممدّدين كجذوع نخلٍ محروقة ؛ تقول [١] :

وبعـدَ بني ضُبيعـةَ حـولٌ بِشْـرٍ كما مالَ الجُـذوعُ مِـنَ الحريـقِ

إلى أنْ قالت :

فكـمْ بقُلابَ مِـن أوصالِ خِـرْقٍ أخـي ثِـقَـةٍ وجُمجمـةٍ فَليـقِ

صورة الفقيد (القبيلة) :

تتلـوّن صـورة رثـاء الشاعرة الجاهلية لقبيلتها بلونِ الفروسيّة ؛ مثالُ ذلـك قـول رَيْطَة ابنة عاصم [٢] :

غَـدَوْا كسيوفِ الهندِ وُرادَ حومَـةٍ مِنَ الموتِ أعيا وِردَهنَّ المصادِرُ

فوارِسُ حامَوْا عنْ حَريمٍ وحافظوا بـدارِ المنايـا والقنـا مُتشاجِرُ

وتبدو بعضُ عناصرِ الصورة واضحةً في ألفاظها ؛ " سيوف الهند " ، " القنا " ، كمـا يبدو مكانُ الصورة جليّاً مـن لفظها " حَوْمـة " ؛ أي موضـع القتـال ، وتقتـرن صـورة الفروسية والشجاعـة بصفة الكرم مما يجعلهم نجوماً مشهورين معروفين للضّيفان ؛ تقـول ذئب بنت نُشْبَة [٣] :

قَتلتـمْ نُجوماً لا يُحولُ ضيفُهـمْ و لا يَذخُـرونَ اللَّحْـمَ أخضرَ ذاويا

قُرومًا يَكُبُّونَ المَخاضَ على الذُّرَى ويُوفـونَ بالشَّحْـمِ القُدورَ الغواليا

ثم تأتي الصورة المعبِّرة عن رِفعة القبيلة وعِزّتها بهم :

عمادُ سمائـي أصبحتْ قد تهدَّمتْ فخِـرِّي سمائـي لا أرى لك بانيا

١- الخرنق بنت بدر : ديوانها ، تحقيق : حسين نصار ، ص٢٦ .

٢- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١٠٠ .

٣- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص٨٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهم عمادُ سماء القبيلة ، تتحقّق بهم العزّة لها ، وبفقدهم تنهدّم ولا يرتفع لها بعدَهم شأنٌ أو ذِكْر .

صورة الفقيد (في الرِّثاء الفرديّ) :

وهي صورة الفقيد مِن غير ذي قرابة الشاعرة أو مِن غير أفراد قبيلتها ، ممّن يكون له على الشاعرة يدُ الإحسان بإكرامها ، أو إطلاقه لأسار أحد ذويها ؛ فها هي امرأة من بني حَنيفة تُؤبّن بصفةِ الكرم يزيدَ بنَ عبدِ المَدان ؛ فتُجلّي صورتَه على أنّه صاحب الأمر العظيم ، وأنّه ممّن يُفتقد ، فيُبكى عليه ، لأنّه حبّاسُ مالٍ على كلّ حال ، جواد مُفيد ؛ تقول [١] :

ألا هلَكَ ابنُ قَرّانُ الحميدُ ... أخو الجُلَّى أبو عمرٍو يزيدُ

ألا هلك امروٌ هلكتْ رجالٌ ... فلمْ تُفقدْ وكانَ لهُ الفُقودُ

ألا هلك امروٌ حبّاسُ مالٍ ... على العِلاّتِ مِتْلافٌ مُفيدُ

ألا هلكَ امروٌ ظلّتْ عليهِ ... بشطٍّ عُنيزةٍ بقرٌ هُجودُ

سَمِعْنَ بموتهِ فَظَلَلْنَ نَوْحاً ... قياماً ما يُحَلُّ لهنَّ عُودُ

وتَجعل زينب بنت مالك صورة الفقيدِ نفسه أفضلَ ؛ إذ تصفه [٢] :

سَأبكي يزيدَ بنَ عبدِ المَدانِ ... على أنّهُ الأحلمُ الأكبرُ

رماحٌ مِنَ العزْمِ مَركوزةٌ ... ملوكٌ إذا بَرَزَتْ تَخْكُمُ

فهو في نظرها " الأحلم الأكبر" ، وهو ثابت العزم ، وهو ملوكٌ مجموعةٌ في شخْصِ ملكٍ واحدٍ ، يَبرُزُ للحُكْم بين الناس والفصل بينهم .

١- المفضل الضبي : المفضليات ، ص٢٧٣ .

٢- الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة الرّاثية (البنت) :

نرى في هذه الصورة ذلك الكمّ الغزيرَ من الدموع الذي تسحّه شؤونُ الراثيةِ عندما يصلها خبُر موتِ والدها ؛ تقول خالدة بنت هاشم [١] :

عيْنُ جُودي بعَبْرةٍ وسُجومِ واسفَحِي الدَّمْعَ للجوادِ الكريمِ

عيْنُ واستَعْبِري وسَحّي وجَمّي لأبيكِ المُسَوّدِ المغْلُومِ

وتقول أيضا [٢] :

بكَتْ عيْنِي وحَقّ لها بُكاها وعاودَها إذا تُمسي قَذاها

ونجد بمحاذاةِ هذه الصورةِ صورةً ثانيةً تُبيّن أثَرَ فقْدِ الأبِ على الأبناء ؛ تقول عمرة بنت دريد [٣] :

فكانَ جزاؤنا منهمْ عُقوقاً وهَمّاً ماعَ منهُ مُخُّ ساقي

فالعقوق والهَمُّ الثقيلُ هما أوّل ما يُعاني منه كثيرٌ من الأبناء بعدَ افتقادهم آباءَهم ؛ لأنَّ الآباء الآخرين يَنصرفون إلى إلاءِ عيالهم نظرتَهم الأولى ، وكثيرٌ منهم مَن يغفل عن النظرة الأخرى للأيتام .

وترسم ابنة قيس بن جابر لنفسها صورةً أخرى ؛ تقول [٤] :

تطاول ليلي للهموم الحواضرِ وشيّبَ رأسي يومُ قيسِ بنِ جابرِ

١- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص٢٣٣ .

٢- المصدر السابق ، ص٢٣٣ .

٣- ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، مج٢ ، ج٤ ، ص٧٥ .

٤- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج١ ، ص٢٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتكوّن صورتُها مِن ليلٍ ما يزال يتطاول ويتّسع في الطّول ، وهمومٍ حواضرَ لا تُفارقها وبين هذا وذاك تَطِلّ برأسٍ أشيبَ ، ولعلّ بياضَ الرأس مع حُلول الظلام يكون أظهَـرَ لبيـان الشّيْب ، فَجَمَعتْ هذه العناصرَ معاً في صورة واحدة .

صورة الرّاثية (الأمّ) :

نقرأ في صورة الراثية الأمّ تردّدها في استقراء واقعِ موتِ ابنها ؛ ففي الوقـت الـذي تنتظر فيـه رجوعه إلى الحياة كرجوع المسافر مـن سفره ، نراها تشكّك في هذا الأمل ، ولا تقطع فيه ؛ لأنهـا تفتقر إلى الحزْم في اتخاذ موقفٍ واضـحٍ تجاهَ الاعتراف بمـوت ابنهـا ؛ لشدةِ حبِّها له ؛ تقول أمّ عمرو بن عديّ [١] :

قـدْ تَـنَـظّـرتُـا لِغـادٍ أوْبَـةً كانَ لوء أغنى عـنِ المـرءِ الأمَـلْ

وتصوّر تَماضُرُ بنتُ الشَّريد تأثيرَ موتِ ابنِها عليها بصورةِ الأمِّ الباكيةِ أبـداً عليـه ؛ تقول [٢] :

فدمعـي بـعـدَهُ أبـداً هَـطـولٌ وعيـنـي دائـمٌ أبـداً بُـكـاهـا

ولا يَخفى ما في " أبدا " و " دائم " و " أبدا " من علاقة الصورة بالزّمن ؛ إذ تُقدّم لنـا صورةً حزينةً باكيةً لا يَبليها مرورُ الزّمن ؛ ممّا يُؤكّد شجَنَ الأمِّ الّذي لا يسليها عـن ذكـرى ابنها شيء .

وترسم عَمْرَة الخثعميّة حالَها بعد موت ابنيها عجوزاً ضعيفةً حُرِمتْ جميعَ أهلها بموت ولديها ، فلم ترَ لها معنىً في الإقامة ؛ فآثرتِ الظّعْن ؛ تقول [٣] :

بُنيـّا عجـوزٍ حـرّمَ الدّهرُ أهلَها فمـا إنْ لهـا إلّا الإلهُ سواهمـا

١- الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٤ ، ص٤٤ .

٢- شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص١٣٩ .

٣- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتختم أمّ السُّليك في رثاء ابنها بصورةٍ تلجُّ فيها بتمنِّي الصّبر ، والموت مكانَ ابنها ، بعدما تُوهِم نفسَها بالتَّعزّي عن قريبٍ ؛ تقول [١] :

سأُعزّي النفسَ إذْ ... لمْ تُجِبْ مَنْ سَألَكْ

لَيْتَ قلبي ساعةً ... صبرَهُ عنْكَ مَلَكْ

لَيْتَ نفسي قُدِّمَتْ ... لِلمنايا بَدَلَكْ

صورة الرَّاثية (الأخت) :

تُصوِّر الراثيةُ الأختُ نفسَها بعد موت أخيها بصورةِ اليدين المشابهتين لجناحي طائرٍ مُقصّصِ الرِّيش ، كنايةً عن الضَّعف ؛ لأنَّ جناح الطائر يُمثِّل قوتَه ، فإذا ما أُصيبَ فيه فَقَدَ قوةَ حركتِه ؛ تقول رائطة بنت شَيْظَم بعد فقد أخويها [٢] :

كانا يديَّ فَشَلَّتا ... بالسّاعدينِ وبالمعاصِمْ

فبقِيتُ كالطيرِ المُقَصَّصِ ريشُهُ واهي القوادِمْ

لا أستطيعُ ، ولا أُطيقُ أردُّ عنِّي كفَّ ظالِمْ

وتختم بصراحةٍ واضحةٍ عن أثرِ موتِهما عليها :

فاليومَ أخضعُ للذَّليلِ وللمحاربِ والمسالِمْ

تخضع خضوعَ الطيرِ المَهيضِ الجناح .

١- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج١ ، ص٥٨١ .

٢- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص٤٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتَعرِض أمُّ عمرِو بن مُكَدَّم إلى تصوير فجيعتها بأخيها عرْضًا واضحَ الدَّلالة ، صادقَ الإحساس ؛ بتصوير نفسها باكيةً مُستمرةً على الحزْن الّذي تتوقّعُه أنْ يُرجع أخاها حيّاً لو صحّ هذا التوقّعُ لِكَثْرة بكائِها عليه ، لكنّه لا يُجدي شيئا ؛ تقول [١] :

أبكي على هالِكٍ أودَى وأورثني ... بعدَ التفرّق حُزْناً بعدَهُ باقِ

لو كان يُرجعُ ميْتاً وجْدُ ذي رَحِمٍ ... أبقى أخي سالماً وجْدي وإشفاقي

ثم تبدو صورتُها مستسلمةً ليدِ القضاء الّذي أخذَ أخاها منها :

فاذهبْ فلا يَبْعَدَنْكَ اللهُ مِن رجلٍ ... لاقى الّذي كلُّ حيٍّ مثلُهُ لاقِ

وتُعاهده :

فسوفَ أبكيكَ ما ناحتْ مُطوقةٌ ... وما سَريتُ معَ السَّاري على ساقِ

أبكي لِذِكْرَتِهِ عَبْرى مُفَجَّعةً ... ما إنْ يجفّ لها مِن ذِكْرِهِ آقي

يقول حسين جمعة معلِّقاً على هذه الصورة [٢] : " فلمّا أيقنتْ أن لا شيء يردّه أو يفديه عاهدته على بكائه ما ناحت حمامة على ابنها " ، متّخذةً من الحمامة رمزاً للبكاء .

صورة الرّاثية (الزّوجة) :

تُصوّر جليلة بنت مرّة حالَها وقد قَتَلَ أخوها زوجَها فأُصيبتْ بالخطْب مِن كِلا الطَّرفين ، باتهدامِ بيتيها معاً ؛ بيتِ زوجها ، وبيتِ أخيها ؛ فلم يعد لها حِمى تحتمي به ، فكأنها قد رُميتْ برمية نافذة استأصلت حياتها ؛ تقول [٣] :

يا قتيلاً قوّضتْ صرعتُهُ ... سقْفَ بيتيّ جميعاً مِنْ عَلِ

١- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج٢ ، ص٣٠٧ .

٢- حسين جمعة : قصيدة الرثاء ، جذور وأطوار ، ط١ ، دار النمير ، دمشق ــ سورية ، ١٩٩٨ ، ص٩٣ .

٣- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص١٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوّضتْ بيتي الّذي استحدثتُهُ وانثَنَتْ في هدمِ بيتي الأوّلِ

ورماني قتلُهُ مِنْ كَثَبٍ رَمْيَةَ المُصْمِي بهِ المُستأصلِ

وتتّسع هذه الصورة لتشملَ عنصراً آخرَ يُعبّر عن حرارة كبدها ، وهو عنصر النار ؛ تقول :

خصّني قتْلُ كُليبٍ بلظَى مِنْ ورائي ولظَى مُستقبِلي

فهي بين نارين ؛ نارِ الحزن على زوجها ، ونارِ عدمِ قُدرتها على الثأر له ؛ لأنّ قاتله أخوها الّذي يكون القصاص منه أنكى لجرحها ، وأكبر لخسارتها ؛ مِن أجلِ هذا تلجأ إلى الله أنْ يُريحها :

إنّني قاتلةٌ مقتولةٌ ولعلّ اللّهَ أنْ يَرتاحَ لي

أمّا فاطمة بنت الأجْحَم فتصوّر نفسَها بعد زوجها بالّتي انكشفتْ عن الظّلّ ، وبرزَتْ للشّمس في مكانٍ أملسَ تَزَلُّ فيه القَدَم ولا تثْبُت ؛ تقول [١] :

قدْ كنْتَ لي جبَلاً ألوذُ بظلّهِ فتركتني أضحَى بأجْرَدَ ضاحي

قدْ كنتَ ذاتَ حَميَّةٍ ما عِشْتَ لي أمشي البَرازَ وكنتَ أنتَ جَناحي

ويبلغ تأثيرُ موته عليها إلى أن تَخضع للذّليل ، وتتّقي شرّه ، وتدفع ظالمها بالمُجاملة :

فاليومَ أخضعُ للذّليلِ وأتّقي منهُ وأدفعُ ظالمي بالرّاحِ

ويدفعها الشّجَنُ إلى مُشاركة الحمامة نَوْحَها :

وإذا دَعَتْ قُمْرِيّةٌ شجَناً لها يوماً على فَنَنٍ دعوتُ صباحِ

وتصل إلى ذروة الضّعف عندما تقول :

وأغُضُّ مِنْ بصري وأعلمُ أنّهُ قدْ بانَ حدُّ فوارسي ورماحي

١- القالي : الأمالي ، ج٢ ، ص١ــ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مُسبِّبَةً غضَ بصرها بفراق الحدّ الذي تُجالد به ، وهو زوجها .

وتتمثّل صورة زينب اليَشْكُريّة في فقْدها زوجها في صورةِ قطيعٍ حِيلَ عن إلفه الّـذي هو مِن جِنسه ؛ فأمسى ضالاً لا يَهتدي في صحراءَ واسعةٍ ؛ تقول [١] :

أراني كَسِـرْبٍ حِيلَ عنــهُ أليفُــهُ قوافِزُهُ في مَهْمَــهِ الخَبْــتِ ضلّــتِ

وكأنّ المرض أمسى لباساً تلبسه سُهيّة زوج شدّاد العبْسي ؛ لفقْدِها زوجَها ؛ فتبـدو شاحبةَ اللَّونِ ، مُتغيرةَ الحال ، مُحترقةَ القلب ؛ تقول [٢] :

لقدْ صِـرتُ مِـن بعـدِه في ضَنًىً وقلبي لأجـلِ الفِـراقِ احتَـرقْ

صورة الرّاثية (لأبناء القبيلة أو لآخرين) :

وتبدو صورة الشاعرة في رثائها أبناء قبيلتها أو غيرهم صورةً بُكائيةً تُعبّر عن رُزئها بِهِم ؛ تقول سارة القُرَيْظيّة [٣] :

رُزِئْـنـا والرَّزيـّة ذاتُ ثِـقْـلٍ يَـمُـرّ لأهلهـا المـاءُ القَـراحُ

وتُشبِّـه المصيبةَ بالماء المُرّ ؛ وهو تشبيه يعبّر عن المعاناة الّتي تعترض الـشاعرة ومن معهـا بدليل قولهـا : " رُزِئنا " ، ويتكرّر هـذا اللّفظ عند رَيْطة بنت عاصم ، التي تُقابل المصيبةَ بالصَّبر ؛ تقول [٤] :

ولو أنَّ سَلمى نالَها مِثْـلُ رُزئِنـا لَهُدَّتْ [٥] ولكـنْ تَحملُ الرُزءَ عامِرُ

غيـرَ أنّ الفرْق بيـن الرُّزئين اليهوديّ والعربي يكمـن في الاحتمال ؛ فالأوّل اليهودي " ذات ثِقْل " يُقابله في الآخرِ العربي " تحمِل الرُّزءَ عامرُ " .

١- بشير يموت : شاعرات العرب ، ص٦١ .

٢- الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص١٥٩ .

٣- الأصفهاني : الأغاني ، ج٢٢ ، ص٨٠ .

٤- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج٢ ، ج٣ ، ص١١٠٢ .

٥- لهُدَّت : الهَدُّ : الهدم الشديد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (هدد) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبدو صورة أُميمة بنت عبد شمس ، وهي تبكي قومَها ساهرةَ الطـرف ، مُـسامرة للنجوم ، في ليلٍ طويلٍ لا يأتي صُبْحُه ؛ تقول [١] :

أبَـى لـيـلُـكِ لا يـذهـبْ ... ونِـيـطَ الـطـرَّفُ بالـكـوكـبْ

و نـجـمٍ دونَـهُ الأهـوا ... لُ بـيـنَ الـدَّلْـوِ و العـقـربْ

وهـذا الـصُّـبـحُ لا يـأتـي ... ولا يـدنُـو ولا يـقـرُبْ

١- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج٢ ، ص٥٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الـــخـــاتـــمـــة

بعد عرض هذه الدراسة وتحليلها توصل البحث إلى نتائج تتمثل فيما يلي :

أولا : لاحظ أن المعنى اللغوي للرثاء هو البكاء والرقة ، والإشفاق ومدح المتـــوفى ، وهـــو بالمعنى الاصطلاحي بكاء يصف حدث الموت ، وما يزامنه من ارتدادات نفسية . وقد جاورت لفظة الرثاء كلمات يغلب استخدامها عند الموت مثل : البكاء النواح ، العويل النعي ، النـــدب التأبين والعزاء .

ثانيا : لاحظ أن اتجاهات الرثاء عند الشاعرات الجاهليات قد انحصرت فـــي : رثـــاء الآبـــاء والأعمام ، والأبناء ، والإخوان ، والأزواج ، والقبيلة وبعض الأفراد الذين ليسوا من أقـــارب الشاعرة . ولم تقع الدراسة على شعر شاعرة في رثاء امرأة ؛ أم أو أخت ، أو غيرهمـــا ، أو لرثاء شيء آخر .

ثالثا : لاحظ أثناء جمع المادة الرثائية أن جلّ أشعار الشاعرات الجاهليات قد قيل في غـــرض الرثاء ، وأن جانبا منه قد ارتبط بأيام العرب ، وعرّفنا ببعض الوقائع الحربية وما دار فيها .

رابعا : لاحظ غلبة عدد المقطّعات على عدد القصائد ، والتزامها بوَحدة الموضوع ، وخلوّهـــا من المقدّمات بكلّ أشكالها .

خامسا : لاحظ تأثير البيئـــة العربية على بِنية المراثي ، وتمثّل في وضـــوح معظـــم ألفاظهـــا ومعانيها ، وعـــدم الإغراق في الخيال ، واستيحاء الصور والمعاني الحسيّة والمجـــرّدة مـــن واقع البيئة ، ومعايشة الطبيعة .

سادسا : لاحظ أن الشاعرات قد أكثرن في رثائهن من ألفاظ مثل : العين والـــدمع ، والخـــوف والجزع ، والرأس والشيب ، واللهفة والحسرة ،وشق الجيوب ، والحوادث والمنون ؛ وهـــذه الألفاظ تعبّر عن الطبيعة الأنثوية ، ذات الحساسية الصادقة إزاء الموت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سابعا : لاحظ قدرة أكثر الشاعرات على التنويع في أساليبهن اللغوية ؛ النـداء والاسـتفهام ، والنهي والطلب ، والتمني والدعاء . وقد ظهر التكرار اللفظي في بعض القصائد والمقطعات .

ثامنا : لاحظ أن القيم الأخلاقية التي تركّز عليها الراثية عند تعداد مناقب الفقيد تتمثـل فـي : الإحسان للأيتام والأرامل ، والشجاعة والكرم ، والحلم والعفة والمروءة ، كما لاحظ الـصفات الحسية التي ترثي بها الفقيد مثل : السيادة والقيادة ، والوسامة .

تاسعا : لاحظ أن صدق العاطفة في رثائهن هو أحـد أهمّ الخصائص الـشعرية التـي تميّـز رثاءهن ، وقد انعكس من خلال انفعال المرأة وبكائها عند سماعها خبر موت فقيدها ، ودعائها له ، أو لها ، أو على قاتل فقيدها ، والشماتة بأعدائه ، وعدم قبولها الدّية عن ابنها الفقيد .

عاشرا : لاحظ أن صورتها الشعرية للفقيد قد جسَّدتْ فيها مأساتها المتمثلة بفقد الوالد السيد ، والابن البر ، الكامل في نظرها ، والأخ العضد ، والزوج الجبل والبيت والسقف ، وابن القبيلة المحامـي ، وآخـر ليـس من القبيلة الكريم الحليم . كما صورت حالها بعد وفاة فقيـدها ، ابنة مَجفوَّة ، وأما باكية ، وأختا مكسورة الجناح ، وزوجة بلا بيت ، وابنة قبيلة بـلا عمـاد لسمائها . وصورت الموت نارا ذات حرق ، ورصدا بلا شكل ، وحيوانـا ذا مخلـب ونـاب ، ودهرا قاهرا ، وقوة مدمرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المصادر والمراجع

أ . المصادر المطبوعة :

ـ القـــرآن الكريـــــم .

ـ الآمدي ، أبو القاسم ، الحسن بن بشر بن يحيى ، (ت٣٧٠هـ أو ٣٧١هـ) . **المؤتلف والمختلف** ، د.ط ، (تحقيق عبد الستار أحمد فراج) ، د.ت .

ـ ابن الأثيـر ، عز الديـن ، أبو الحسـن ، علـي بن أبـي الكرم ، محمد بـن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد ، الشيباني (ت٦٣٠هـ) . **الكامل في التاريخ** ، د.ط . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

ـ ـــــــ. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ، ط١ ، (تحقيق الشيخ كامل محمد محمد عويضة) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

ـ الأصفهاني ، أبو الفـرج ، علـي بـن الحسيـن ، (ت٣٥٦هـ) . **الأغانـي** ، ط١ ، (تحقيـق إحسـان عبـاس ، و إبراهيم السعافين ، والأستاذ بكر عباس) . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

ـ الأصمعي ، أبو سعيد ، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك، (ت٢١٦هـ) . **الأصمعيات** ، ط٧ ،(تحقيق وشرح أحمد محمد شاكروعبد السلام محمد هارون) . دار المعارف ، مصر ، ١٩٩٣م .

ـ امرؤ القيس . **ديوانه** ، ط٧ ، (شرح حسن السندوبي) . المكتبة الثقافية ،بيروت – لبنان ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

ـ ـــــــ . **ديوانه** ، د.ط ، (شرح محمد الاسكندراني ، و نهاد رزق) . دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ الأندلسي ، ابن سعيد ، أبو الحسن ، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ، (ت٦٨٥هـ) . **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب** ، ط١ ، (تحقيق نصرت عبد الرحمن) . مكتبة الأقصى ، عمان ـ الأردن ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

ـ البحتري ، أبو عبادة ، الوليد بن عبيد ، (ت٢٨٤هـ) . **الحماسة** ، ط٢ ، (اعتنى به الأب لويس شيخو اليسوعي) . دار الكتاب العرب ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٧م .

ـ البخاري ، أبو عبدالله ، محمد بن إسماعيل ، (ت٢٥٦هـ) . **صحيح البخاري** ، د.ط . دار إحياء التراث ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ البصري ، صدر الدين ، علي بن أبي الفرج بن حسن ، (ت٦٥٦ هـ) . **الحماسة البصرية** ، ط١ ، (تحقيق و شرح عادل سليمان جمال) . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

ـ البغدادي ، عبد القادر بن عمر ، (ت١٠٩٣هـ) . **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** ، ط٣ ، (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون) . مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ مصر ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

ـ البكري ، أبو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي ، (ت٤٨٧هـ) . **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع** ، ط٣ ، (تحقيق مصطفى السقا) . مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ مصر ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦ .

ـ ـــــ . **سمط اللآلئ** ، ط١ ، (تحقيق عبد العزيز الميمني) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

ـ ـــــ . **فصل المقال** ، د.ط ، (تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين) ، الخرطوم ـ السودان ، ١٩٥٨م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ التبريزي ، أبو زكريا ، يحيى بن علي بن محمد الشيباني ، (ت٥٠٢هـ) . **شرح ديوان الحماسة لأبي تمام** ، ط١ ، (كتب حواشيه غريد الشيخ ، وضع فهارسه العامة أحمد شمس الدين) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .

ـ أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي ، (ت٢٣١هـ أو ٢٣٢هـ) . **الوحشيات (الحماسة الصغرى)** ، ط٣ ، (تحقيق عبد العزيز الميمني) ، زاد في حواشيه محمود محمد شاكر . دار المعارف ، القاهرة ـ مصر ، د.ت .

ـ الثعالبي ، أبو منصور ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، (ت٤٢٩هـ) . **فقه اللغة وسر العربية** ، د.ط . مؤسسة مطبوعاتي ، قم ـ إيران ، د.ت .

ـ الجاحظ ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر ، (ت٢٥٥هـ) . **البيان والتبيين** ، (تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون) . د.ط ، دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ ـــــ . **الحيوان** ، د.ط ، (تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون) . دار إحياء التراث ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ الجمحي ، ابن سلام ، محمد ، (ت٢٣١هـ) . **طبقات فحول الشعراء** ، د.ط ، (قرأه و شرحه محمود محمد شاكر) . دار المدني ، جدة ـ السعودية ، د.ت .

ـ حاتم الطائي **ديوانه** ، ط٢ . دار ومكتبة الهلال ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

ـ ابن حبيب ، أبو جعفر ، محمد بن حبيب البغدادي ، (ت٢٤٥هـ) . **أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام** ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ط١ ، (تحقيق عبد السلام محمد هارون) . دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

ـ ـــــ . **أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام** ، ط١ ، (تحقيق سيد كسروي حسن) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ ابن حبيب . **المحبر** ، د.ط ، (اعتنت بتصحيحه ة إيلزه ليحتن شـتيتر) . جمعيـة دائـرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م .

ـ ابن حزم ، أبو محمد ، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي ، (ت٤٥٦هـ) . **جمهرة أنـساب العرب** ، ط٦ ، (تحقيق عبد السلام محمد هارون) . دار المعارف ، القاهرة ـ مصر ، د.ت .

ـ الحصـري ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن علي القيرواني ، (ت ٤٥٣هـ) . **زهر الآداب وثمر الألباب** ، ط١ ، (تحقيق و شرح علي محمد البجاوي) . دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م .

ـ الحطيئة ، جرول بن أوس . **ديوانه** ، ط١ ، (رواية و شرح ابن السكيت) . دار الفكـر العربي ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م .

ـ الحموي ياقوت ، شهـاب الديـن ، أبو عبدالله ، ياقوت بن عبد الله ، (ت٦٢٦هـ) . **معجم البلدان** ، د.ط . دار إحياء التراث ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ الخرنق بنت بدر بن هفان . **ديوانها** ، ط٢ ، (تحقيق حسين نصار) . دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ـ مصر ، ١٩٩٦م .

ـ ـــــ. **ديوانها** ، ط١ ، (تحقيق و شرح يسري عبد الغني عبدالله) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

ـ الخليل الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن ، الخليل بـن أحمد ، (ت١٧٥هـ) . **كتاب العـين** ، ط١، (تحقيق مهدي المخزومي ، و إبراهيم السامرائي) . انتشارات أسوة ، قم ـ إيـران ، ١٤١٤هـ .

ـ الخنساء ، تماضر بنت عمرو بن الحرث بن الـشريد ،(ت٢٤هـ) . **ديوانهـا** ، ط١ ، (تحقيق و شرح كرم البستاني) . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٨٥م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ ابن دريد ، أبو بكر ، محمد بن الحسن ، (ت٣٢١هـ) . **الاشتقاق** ، ط٢ ، (تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون) . مكتبة المثنى ، بغداد ـ العراق ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٩٩م .

ـ الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم ، الحسين بن محمد بن المفضل ، (ت٥٠٢هـ) . **محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء** ، (تحقيق رياض عبد الحميد مراد) . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .

ـ ابن رشيق ، أبو علي ، الحسن بن رشيق ، القيرواني ، الأزدي ، (ت٤٥٦هـ) . **العمدة** ، ط٥ ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) . دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

ـ الزَّبيدي ، محب الدين ، أبو الفيض ، السيد محمد مرتضى الحسيني ، الواسطي (ت) . **تاج العروس** ، ط١ . المطبعة الخيرية ، مصر ، ١٣٠٦هـ .

ـ الزجاجي ، أبو القاسم ، عبد الرحمن بن إسحاق ، (ت٣٤٠هـ) . **الأمالي** ، ط٢ ، (تحقيق عبد السلام محمد هارون) . دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

ـ الزمخشري ، أبو القاسم ، جار الله ، محمود بن عمر ، (ت٥٣٨هـ) . **الكشاف** ، د.ط . دار الفكر ، دمشق ـ سورية ـ د.ت .

ـ الزوزني ، أبو عبد الله ، الحسين بن أحمد ، (ت٤٨٦هـ) . **شرح المعلقات السبع** ، د.ط ، (تحقيق لجنة التحقيق في الدار العالمية) . الدار العالمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

ـ السرّاج ، القارئ ، أبو محمد ، جعفر بن أحمد بن الحسين ، (ت٥٠٠هـ) . **مصارع العشاق** ، د.ط . دار بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ السكري ، أبو سعيد ، الحسن بن الحسين ، (ت٢٧٥هـ) . **شرح أشعار الهذليين** ، د.ط ، (تحقيق عبد الستار أحمد فراج) ، راجعه محمود محمد شاكر . دار العروبة ، القاهرة ـ مصر ، د.ت .

ـ السيوطي ، جلال الدين ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت٩١١هـ) . **شرح شواهد المغني** ، د.ط . دار مكتبة الحياة ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ ـــــ. **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** ، د.ط ، (تحقيق محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم) ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ ابن الشجري ، هبة الله بن علي بن حمزة العلوي ، (ت٥٤٢هـ) . **الحماسة الشجرية** ، د.ط ، (تحقيق عبد المعين الملوحي). دار منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ـ سورية ، ١٩٧٠م .

ـ الشمشاطي ، أبو الحسن ،لي بن محمد بن المطهر العدوي ، (القرن الرابع الهجري) . **الأنوار ومحاسن الأشعار** ، د.ط ، (تحقيق السيد محمد يوسف) ، راجعه وزاد في حواشيه عبد الستار أحمد فراج . التراث العربي ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٧٧م .

ـ أبو طالب ، المفضل بن سلمة بن عاصم (ت٢٩١هـ) . **الفاخر** ، ط١ ، (تحقيق عبد العليم الطحاوي) ، مراجعة محمد علي النجار . دار إحياء الكتب العربية ، الجمهورية العربية المتحدة ، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م .

– طاليس ، أرسطو . **فن الشعر** ، د.ط ، (ترجمه و شرحه وحققه عبد الرحمن بدوي) . دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، د.ت .

ـ طرفة بن العبد البكري . **ديوانه** ، ط١ ، (شرح و تحقيق محمد حمود) . دار الفكر اللبناني ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٩٥م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ ابن طيفور ، أبو الفضل ، أحمد بن أبي طاهر ، (ت٢٨٠هـ) . **بلاغات النساء** ، ط١ ، (تحقيق يوسف البقاعي) . دار الأضواء ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٩٩م .

ـ ابن عبد ربه ، أبو عمر ، أحمد بن محمد الأندلسي ، (ت٣٢٧هـ) . **العقد الفريد** ، د.ط ، (شرح و تحقيق وضبط أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبياري) . دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

ـ أبو عبيدة ، معمر بن المثنى ، (ت٢٠٩هـ) . **أيام العرب قبل الإسلام** ، ط١، (جمع و تحقيق ودراسة عادل جاسم البياتي) . مكتبة النهضة العربية ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

ـ ـــــ. **الديباج** ، ط١ ، (تحقيق عبدالله سليمان الجربوع ، و عبد الرحمن بن سليمان العثيمين) . مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ مصر ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

ـ العسكري ، أبو هلال ، الحسن بن عبدالله بن سهل ، (ت ٣٩٥هـ) . **كتاب الصناعتين** ، د.ط ، (تحقيق علي محمد البجاوي ، و محمد أبو الفضل إبراهيم) .

المكتبة العصرية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

ـ ـــــ.**جمهرة الأمثال** ، ط٢ ، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعبد المجيد قطامش) . دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ ـــــ. **ديوان المعاني** ، عن نسخة الإمامين الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد محمود الشنقيطي ، مع مقابلة المشكل بنسخة المتحف البريطاني ،د.ط . عالم الكتب ، د.ت .

ـ العسكري ، أبو أحمد ، الحسن بن عبدالله ، (ت٣٨٢هـ) . **المصون في الأدب** ، ط٢ ، (تحقيق عبد السلام محمد هارون) . مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ مصر ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ عنترة بن شداد . **ديوانه** ، ط١ ، (شرح علي العسيلي) . مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

ـ ابن فارس ، أبو الحسين ، أحمد بن فارس بن زكريا ، (ت٣٩٥هـ) . **مقاييس اللغة** ، ط٢، (تحقيق عبد السلام محمد هارون) . مكتبة مصطفى البابي ، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .

ـ الفرزدق ، همام بن غالب ، (ت١١٤هـ) . **ديوانه** ، د.ط . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

ـ الفيروز آبادي ، مجد الدين ، محمد بن يعقوب ، (ت٨١٧هـ) . **القاموس المحيط** ، ط٤ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م .

ـ القالي أبو علي ، إسماعيل بن القاسم ، البغدادي ، (ت٣٥٦هـ) . **الأمالي** ، ط٣ . دار الكتب المصرية ، القاهرة ـ مصر ، ٢٠٠٠م ،

ـ ابن قتيبة ، أبو محمد ، عبد الله بن مسلم ، (ت٢٧٦هـ) . **الشعر والشعراء** ، د.ط ، (تحقيق و شرح أحمد محمد شاكر) . دار الحديث ، القاهرة ـ مصر ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م .

ـ ـــــ. **عيون الأخبار** ، ط١ ، (شرحه وعلق عليه مفيد محمد قميحة) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

ـ القرشي ، أبو زيد ، محمد بن أبي الخطاب ، (ت١٧٠هـ) . **جمهرة أشعار العرب** ، ط١ . دار المسيرة ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

ـ القرطاجني، أبو الحسن، حازم ، (ت ٦٨٤ هـ) . **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** ، د. ط ، (تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة) . دار الكتب الشرقية ، د. ت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ ابـن قيـم الجوزيـة ، شمـس الدين ، أبو عبدالله ، محمد بن بكر الزرعي ، الدمـشقي ، (ت٧٥١هـ) . **أخبار النساء** ، د.ط ، (شرح و تحقيق نزار رضـا) . مكتبـة الحيـاة ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

ـ ابن الكلبي ، أبو المنذر ، هشام بن محمد بن السائب ، (ت٢٠٤هـ أو ٢٠٦هـ) . **أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها** ، د.ط ، (تحقيق حسين نصار) . مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ـ مصر ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .

ـ المبـرد ، أبو العباس ، محمد بن يزيد ، (ت٢٨٦هـ) . **التعازي والمراثي**، ط٢ ، (تحقيق محمد الديباجي) . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .

ـ ـــــ. **الفاضل** ، د.ط ، (تحقيق عبد العزيز الميمني) . دار الحرم للتراث ، القـاهرة ـ مصر ، د.ت .

ـ المرتضى ، علي بن الحسين ، الموسوي ، العلوي ، (ت٤٣٦هـ) . **أمالي المرتضى وغرر الفوائد ودرر القلائد** ، د.ط ، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) . دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، ١٩٩٨م .

ـ المرزباني ، أبو عبيد الله ، محمد بن عمـران ، (ت٣٨٤هـ) . **أشعار النـسـاء** ، ط١ . عالم الكتب ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .

ـ ـــــ، **معجم الشعراء** ، د.ط ، (تحقيق عبد الستار أحمد فراج) ، الهيئة العامة لقـصور الثقافة ، القاهرة ـ مصر ، د.ت .

ـ المرزوقي ، أبو علي ، أحمد بن محمد بن الحسن ، (ت٤٢١هـ) . **شرح ديوان حماسـة أبي تمام**، ط١ . دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ المسعودي ، أبو الحسن ، علي بن الحسين بن علي ، (ت٣٤٦هـ) . **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، ط٤ ،(تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) .المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م .

ـ المعري ، أبو العلاء ، (ت٤٤٩ هـ) . **رسالة الصاهل والشاحج** ، (تحقيق ة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ) . دار المعارف ، القاهرة ـ مصر ، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

ـ المفضل الضبي ، أبو العباس ، المفضل بن محمد ، (ت١٦٨هـ) . **المفضليات** ، ط٨ ، (تحقيق و شرح أحمد محمد شاكر ، و عبد السلام محمد هارون) . دار المعارف ، القاهرة مصر ، ١٩٩٣م .

ـ ابن منظور ، أبو الفضل ، جمال الدين بن مكرم (ت٧١١هـ) . **لسان العرب** ، ط٢ . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، ١٣٠٠هـ .

ـ ابن منقذ أسامة ، (ت٥٨٤هـ) . **المنازل والديار**، ط٢،(تحقيق مصطفى حجازي) . دار سعاد الصباح ، القاهرة ـ مصر ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .

ـ الميداني ، أبو الفضل ، أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ، (ت٥١٨هـ) . **مجمع الأمثال** ، د.ط ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) . المكتبة العصرية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

ـ النابغة الذبياني . **ديوانه** ، ط١ ، (شرح علي أبو ملحم) . دار ومكتبة الهلال ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٩١م .

ـ النويري ، شهاب الدين ، أحمد بن عبد الوهاب ، (ت٧٣٣هـ) . **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، ط١ ، (تحقيق يحيى الشامي) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ ابن هشام ، أبو محمد ، عبد الملك بن هشام الحميري ، (ت٢١٨هـ أو ٢١٣هـ) . **السيرة النبوية** ، ط١ ، (تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي) . دار الخير ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م .

ـ ـــــ. **السيرة النبوية** ، د.ط ، (تحقيق محمد فهمي السرجاني) . دار التوفيقية ، الأزهر ـ مصر ، د.ت .

ـ ابن هشام الأنصاري ، أبو محمد عبدالله ، جمال الدين بن يوسف بن أحمد ، (ت٧٦١هـ) . **شذور الذهب في معرفة كلام العرب** ، (شرح محمد محيي الدين عبد الحميد) ، د.ت .

ـ ـــــ. **قطر الندى وبل الصدى** ، د.ط ، (شرح محمد محيي الدين عبد الحميد) . مكتبة الفيروز آبادي ، د.ت .

ـ اليزيدي ، محمد بن العباس ، (ت٣١٠هـ) . **المراثي** ، د.ط ، (تحقيق محمد نبيل طريفي) . دار إحياء التراث العربي ، دمشق ـ سورية ، ١٩٩١م .

ب . المراجع الحديثة :

ـ الأسعد ، عمر ، (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م) . **ديوان رثاء الأزواج** ، ط١ ، بيروت ـ لبنان : دار الرشاد .

ـ الألوسي ، السيد محمود شكري ، (د.ت) . **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب** ، د.ط ، (شرح وتصحيح وضبط محمد بهجة الأثري) ، بيروت ـ لبنان : دار الكتب العلمية .

ـ بابتي ، عزيزة فوال ، (١٩٩٨م) . **معجم الشعراء الجاهليين** ، ط١ ، بيروت لبنان : دار صادر .

٦٢٢٩٦٧

ـ بلاشير ، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م). **تاريخ الأدب العربي** ، (ترجمة إبراهيم الكيلاني) ، دمشق ـ سورية : دار الفكر المعاصر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ حور ، محمد إبراهيم ، (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) . **رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي** ، د.ط ، أبو ظبي ، العين ـ دولة الإمارات العربية المتحدة : مكتبة المكتبة .

ـ خليف ، مي يوسف، (د.ت). **الشعر النسائي في أدبنا القديم** ، د.ط ، القاهرة ـ مصر : مكتبة غريب .

ـ الزركلي ، خير الدين ، (١٩٨٦م) . **الأعلام** ، ط٧ ، بيروت ـ لبنان : دار العلم للملايين .

ـ السالمي ، عبدالله بن حميد ،(د.ت) . **شرح الجامع الصحيح** ؛ مسند الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي ، د.ط ، مسقط ـ سلطنة عمان: مكتبة الاستقامة .

ـ السامرائي ، فاضل صالح ، (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م). **معاني النحو** ، ط٢ ، عمان ـ الأردن : دار الفكر .

ـ ، (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م). **شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة** ، د.ط ، بيروت لبنان : دار التراث .

ـ الصابوني ، محمد علي ، (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م). **صفوة التفاسير** ، ط١ ، بيروت لبنان : دار الفكر .

ـ صقر ، عبد البديع ، (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م) . **شاعرات العرب** ، ط١ ، منشورات المكتب الإسلامي .

ـ ضيف ، شوقي ، د.ت . **الرثاء** ، د.ط ، القاهرة ـ مصر : دار المعارف .

ـ طليمات ، غازي والأستاذ عرفان الأشقر ،(د.ت) . **الأدب الجاهلي** ، ط١ ، حمص سورية : دار الإرشاد .

ـ عباس ، إحسان ، (١٩٩٦م) . **فن الشعر** ، ط١ ، عمان الأردن : دار الشروق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ الوائلـــي ،عبد الحكيم ، (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م) . **موسوعـة شاعـرات العـرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين** ، ط١ ، عمان ـ الأردن : دار أسامة .

ـ يحيى ، مخيمر صالح موسى ، (د.ت) . **رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري** ، ط١ ، الزرقاء ـ الأردن : مكتبة المنار .

ـ يموت ، بشير ، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م) . **شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام** ، ط١ ، (تحقيق عبد القادر محمد مايو) ، حلب ـ سورية : دار القلم العربي .

ـ ـــــ ، (١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م) . **شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام** ، ط١ ، بيروت ـ لبنان : المطبعة الوطنية .

ـ اليوسف ، يوسف ، (١٩٨٥م) . **مقالات في الشعر الجاهلي** ، ط٤ ، بيروت – لبنان : دار الحقائق .

الرسائل الجامعية :

ـ يعقوب ، أحمد عيسى ، (١٩٩٦م) . **شعر رثاء الإخوة من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي** . رسالة ماجستير / غير منشورة ، جامعة اليرموك ، اربد ، الأردن .

ـ جبر ، سناء جميل عطا ، (١٩٩٩م) . **فن الرثاء في الشعر الأموي** ، رسـالة ماجستير /غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، عمان الأردن .

الدوريات :

ـ منصور ، حمدي ، (٢٠٠٤م). أهم صناعات الجاهليين كما تبدت في أشعارهم . **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني** ، (العدد ٦٧) : ص ١٢٦– ١٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

THE SHE-POETS` ELEGIAC POETRY

By

Khamis Bin Majid Bin Khamis Alsabari

Supervisor

Dr. Hamdi Mansor

ABSTRACT

This Study tackles the She- poets` elegiac poetry of the pre-Islamic period . It follows the induction method to bring about all the subtleties of this art of verse and the main trends of it's development .

The study contains an introduction , two chapters and a conclusion . The introduction talked about the importance of this study and the justification of it's choice . The two chapters discussed in detail all aspects of the verse of this type of art and the She-poets with reference to the sources and texts .

The Conclusion asserted the fact that the elegiac poetry of the She-poets ' of the pre-Islamic period was a straight-forward expression of deep sorrow and personal shock and it's language was far from being ornamental .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit